جماعة الأزهر للنشر والتأليف

العربية

دراسات في اللغة واللهجات والأساليب

من عمل

يوهان فك

JOHANN Fück

نقله إلى العربية وحققه وفهرس له

دكتور عبد الحليم النجار

مدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

بتصدير الدكتور

احمد أمين بك

وتقديم الدكتور

محمد يوسف موسى

الناشر : مكتبة الخانجي بمصر

القاهرة

مطبعة دار الكتاب العربي

١٣٧٠ هـ — ١٩٥١

جماعة الأزهر للنشر والتأليف

العربية

دراسات في اللغة واللهجات والأساليب

من عمل

يوهان فك

JOHANN Fück

نقله إلى العربية وحققه وفهرس له

دكتور عبد الحليم النجار

مدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

بتصدير الدكتور

احمد أمين بك

وتقديم الدكتور

محمد يوسف موسى

الناشر : مكتبة الخانجي بمصر

القاهرة

مطبعة دار الكتاب العربي

١٣٧٠ هـ — ١٩٥١ م

فهرس تحليلي لموضوعات الكتاب

١ — تمهيد

(ص ١ — ٦)

٢ — الروابط اللغوية فى عهد الدولة العربية (الأموية)

(ص ٧ — ٤٩)

٣ — عربية الدولة ولغة الشعب فى أوائل العصر العباسى

(ص ٥٠ — ٨٤)

الاستشهاد بروايات من الحديث على تصحيح اللحن — أقوال عن عمر فى الحث على تعلم العربية — ص ٧٨ : نهى عمر عبد الله بن مسعود عن القراءة بلسانه الهذلى — روايات عن ابن مسعود — ص ٧٩ : لم يسهم أهل الحديث فى حركة تنقية اللغة — لم يمنع اللحن أهل الحديث أن ينبغوا فى فنهم — ص ٨٠ : لم يقتصر ظهور اللحن على غير المثقفين — استيعاب النحاة لصيغ المقصور والممدود بسبب اللحن فيهما — الجاحظ يحكى لحن يوسف بن خالد التيمى — ص ٨١ : خطأ « نولدكه » فى الاحتجاج على صوغ أفعل التفضيل من أسماء العيوب الخلقية — ص ٨٢ : تعسر الحكم على لغة الطبقات الدنيا والوسطى فى المدن والأقاليم — افتراض عدم انتشار العربية بين شعوب البلدان المفتوحة — ص ٨٣ : الفارسية كانت سائدة فى مدن العراق — الأصمعى كان يحسن الفارسية — ص ٨٤ : إجادة الفارسية إلى جانب العربية كانت أمراً شائعاً — انتشار الألقاب الفارسية إلى الأسماء العربية .

٤ — اللغة العربية فى عصر هارون

بلوغ الدولة ذروة سلطانها فى ظل هارون — ازدهار علوم العربية — اقترانها بأعلام العلماء — لغة البدويين هى المثل الأعلى — خلاف علماء اللغة مع اللهجة الدارجة — البصريون يتهمون القراء باللحن — ص ٨٦ : الخليفة يظل العلماء بعطفه — فصاحة زبيدة — الأصمعى يخطىء أبا يوسف الفقيه — ص ٨٧ : بصر الكسائى باللغة — باعث الكسائى إلى تعلم النحو — ص ٨٨ : لم يحصل واحد من علماء اللغة على دراية كاملة بالعربية — أبو عبيدة يعجب من فصاحة أم الهيثم الأعرابية — الخلاف حول من يرجع إليه فى العربية — ابن الأعرابى لا يعتد بالأصمعى ولا أبى عبيدة — عدم رسوخ ابن الأعرابى نفسه فى اللغة — ص ٨٩ : قلة خبرته بالأنساب — أقدم الآثار الأدبية لحركة تنقية اللغة ينسب إلى الكسائى — ص ٩٠ : نقد تحليلى لنسبة الكتاب — الأصمعى ينظم الاستعمال اللغوى بتحديدات معنوية دقيقة — لم يسلم الأصمعى من مخالفة الاستعمال البدوى — ص ٩١ : البطليوسى يلوم ابن قتيبة على متابعته للأصمعى — الشعر الرفيع يعتنق مبدأ تنقية اللغة فى جميع العصور — شعر أبى نواس — ص ٩٣ : وقوع شعراء الطبقة الثانية فى اللحن الصريح — العمانى — إبراهيم الموصلى — مسلم بن الوليد — ابن سيابة — ص ٩٤ : اللحن فى أشعار القصور أقل منه فى شعر الفرص والمناسبات — أبو النضير يعد لحنه لهجة — تهكم أبان

٥ — العربية المولّدة

(ص ١٠٠ — ١١٠)

٦ — العلاقات اللغوية فى عصر المأمون وعقيدة الاعتزال الرسمية

(ص ١١١ — ١٢٩)

٧ — العربية تصير لغة الأدب الفصحى فى النصف الثانى من القرن الثالث

(ص ١٣٠ — ١٤٢)

٨ — عربية الأدب فى القرن الرابع

(ص ١٤٣ — ١٥٢)

المكنز اللغوى فى ترتيب عملى — مبدأ الاتجاه إلى ذلك منذ القرن الثانى — موازنة بين كتاب قدامة وكتاب الألفاظ لابن السكيت — ص ١٤٩ : لم يكن قدامة أيضا أول من حاول سد حاجات الكتاب العملية — كتاب الألفاظ الكتابية للهمذانى — موازنة بين الكتابين — كتاب الألفاظ الكتابية يحتوى على زيادات لابن خالويه — ص ١٥٠ : الباعث للهمذانى إلى تأليف كتابه — ص ١٥١ : رأى الصاحب ابن عباد فى كتاب الهمذانى — دلالة هذا الرأى على انحطاط الأدب — سبب الانحطاط اتجاه الذوق الأدبى فى ذلك العصر — التلذذ الذوقى باللغة وجرسها ديدن العرب منذ قديم — مقام الخطيب إلى جانب الشاعر قبل الإسلام — السجع يرفع الفورات الانفعالية لدى الكهان القدماء — السجع فى القرآن — ص ١٥٢ : علو كلمة السجع تدريجا .

٩ — العربية ولهجات البدو فى القرن الرابع

(ص ١٥٣ — ١٦٦)

تغير نظر المثقفين إلى لهجات البدو — احتذاء لغة البدو على ممر القرن الثالث نوع من التقعير — العربية الفصحى تصير لغة الكتابة فى بدء القرن الرابع — اختلاط البدو بغيرهم أفقد لغتهم صفاءها وخلوصها — ص ١٥٤ : بيان الهمدانى عن العلاقات اللغوية فى جنوبى الجزيرة حوالى نهاية القرن الثالث — اختلاط الألسنة الأصلية بعربية الشمال — طريقة الهمدانى ضاعفت من عنائه فى تصوير أخلاط اللهجات — الهمدانى يرى أن لغة الكتابة العربية هى اللغة الأصلية فى جنوبى الجزيرة — ص ١٥٥ : الهمدانى يقيس كل لهجة بمقاييس النحو — لا يفترض للهجات اليمن أساسا من لغة أخرى غير عربية الشمال — ملاحظات الهمدانى السطحية على اللهجات وتقسيمها إلى فصيحة ومعقدة — تفصيل لهجات القبائل الجنوبية — المهرية والشحرية — لهجات حضرموت — سرو مذحج — مأرب — بيحان — حريب — تحديد المنطقة بين مأرب وذمار — منطقة قائفة — كومان — ص ١٥٦ : منطقة همدان — لهجة سفيان بن أرحب — بنو حرب — المنطقة العظمى التى تغلب فيها الفصاحة — القبائل التى تسكنها — ص ١٥٧ : أهل تهامة عربيتهم رديئة — ناحية صعدة — بعض لهجات أخرى غير فصيحة — لهجات المنطقة الجبلية — ألهان وأنيس غربى ذمار — جبال حراز — جبال الحضور — ص ١٥٨ : الجحادب — بعض قبائل غتم (غير فصيحة) — ظاهر همدان النجدى — لهجة جُبلان — لهجة يحصب ورعين

١٠ — العربية واللغة المولدة فى القرن الرابع
(ص ١٦٧ — ١٨١)

١١ — ظهور اللغة الدارجة فى أشعار القرن الرابع

١٢ — وصف المقدسى للعلاقات اللغوية فى المحيط الإسلامى إبان القرن الرابع الهجرى

١٣ — اللغة العربية فى عهد السلجوقيين

(ص ٢٠٨ — ٢٢٩)

١٤ — عود على بدء

ملحق — مادة : ل ح ن ومشتقاتها

(ص ٢٣٥ — ٢٤٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم حضرة صاحب العزة الأستاذ الكبير « أحمد بك أمين »

اللغة نظام اجتماعى كالدين والحكومة ، خاضع لتأثير الزمان والمكان ؛ فكم من الفرق بين اللغة يتكلمها الأقدمون ، واللغة يتكلمها المعاصرون .

نعم إن الطبيعة عوّدتنا حتى فى المادّيات أن يكون الانتقال بطيئاً جداً ، ومتدرجا جداً . . . ألست فيما ترى تجد الانتقال من شمس إلى ظل . . . بل إنك تمر بفترة لاتدرى أهى ظل بحت ؟ أم شمس بحت ؟ ثم تتدرج إلى الظل الخالص ، أو الشمس الخالصة . . .

هذا فى المحسوسات ، فما بالك بالمعانى ؟ فإنك مثلا لاتدرك فرقا كبيراً بين اللغة أمس ، وبين اللغة اليوم ؛ ولكن إذا باعدت بين الزمانين أدركت الفرق واضحا . فكم من الفرق بين ماروُى لنا من خطب أبى بكر وعمر رضى الله عنهما من جُمل صبّت صباً كأنها حِكم لاتصل بين جملتين منها صلة ، بل يعتمد فى الاتصال بينهما على الإدراك الذهنى ؛ وبين كلام عبد الحميد الكاتب ، وابن المقفّع ، فى التفصيل ، وربط الجمل ، واتضاح المعنى وتحديده .. بل ما أكبر الفرق فى عصرنا هذا بين الأساليب فى أول عهدنا بالنهضة العلمية ، والأساليب اليوم : كانت الأساليب الأولى ترمى إلى السجع وتحسين اللفظ وتزويقه ، ولا تأبه للمعنى كثيراً ؛ ثم رأينا الأساليب ترسل إرسالا ، ويقصد فيها إلى المعنى أكثر من اللفظ ، ورأينا المدرسة القديمة تندثر شيئاً فشيئاً فى تدرج وبطء ، ويموت أعلامها شيئاً فشيئاً فى تدرج وبطء أيضاً ؛ وتحيا المدرسة الحديثة فى تدرج وبطء كذلك ؛ حتى لو أننا قارنّا بين المدرستين لأخذنا العجب كل العجب كيف يفعل باللغة الزمان ..؟

وذلك بفضل أن اللغة كانت تستق فى مدرستها الأولى من منابع الأدب العربى القديم ؛ وعمادها فى ذلك عبد الحميد ، وابن المقفع ، والجاحظ ؛ ثم الصاحب بن عباد وابن العميد ، ثم القاضى الفاضل والعماد الأصفهانى ، وأمثالهم ؛ على حين أن المدرسة الجديدة تستق من الأدب الغربى معانيه ، وأساليبه ، وتفننه ؛ ولم تستق من الأدب العربى إلا ألفاظه وبعض أساليبه أيضاً .

هذا بالنسبة إلى عامل الزمان ؛ وكذلك عامل المكان ؛ فكل سكان الأقطار العربية من سوريين ، ومصريين ، وعراقيين ، يتكلمون اللغة العربية ويكتبونها ؛ ولكن ما أشد الفروق بينهم ؛ فقد عملت بيئة كل قطر عملا خاصاً فى حناجرهم ، وفى ألفاظهم التى استقوها من العرب الذين نزلوا بهم ، وطريقة أدائهم لهذه الألفاظ ، وغير ذلك من العوامل المكانية .

كل هذا من اختلاف عوامل الزمان والمكان يحتاج إلى دراسة دقيقة جداً ... وقد تنبه المحدثون إلى أهمية هذه العوامل ، فأنشأوا معاهد للأبحاث اللغوية ، بعضها يسجل اختلاف اللهجات ، وبعضها يتجه إلى رسم خرائط تبين كيف تعبر كل بلدة عن المعنى الواحد بألفاظ مختلفة ، وحتى إن اتحدت فى الألفاظ فكيف تعبر عنها مع اختلاف النطق بها ، ونحو ذلك .

ويأتى علماء الاجتماع بعد ، فيستنتجون ، من دلائل هذه الاتفاقات والاختلافات ، القوانينَ على اتحاد الأصول إن اتحدت ، واختلافها إذا اختلفت ، وهكذا .

كما عُنى بعض المستشرقين بدراسة بعض اللهجات العربية ، فاتجهوا مثلا إلى قبيلة هذيل ، ودرسوا أشعار الهذليين ؛ بما يمتازون بألفاظهم وبعض معانيهم عن القبائل الأخرى .

فما كان أحوجنا إلى بحث دقيق ، يبين لنا تطور الأساليب فى اللغة العربية واللهجات فى الأزمنة المختلفة ، والأمكنة المختلفة ؛ والعوامل التى عملت فى هذا التطور من بيئات طبيعية ، أو بيئات اجتماعية . فهذا يفيدنا ، من ناحية فى وقوفنا على هذا التغير ، ومن ناحية على العوامل التى تعمل فيه حتى نضع أيدينا عليها ، فنقويها أو نضعفها .

ولم نعرف كتابا من قبل عالج هذا الموضوع معالجة مستقلة ، بل نعرف نتفا فى الكتب هنا وهناك ، ومسائل صغيرة بها . فوقف الأستاذ : يوهان فك (Johann Fück) نفسه على هذا البحث المضنى العميق . فكم فتش فى ثنايا الكتب عما يدله على بحثه ، ووفق فى الجزئيات الصغيرة أن يستنتج منها نتائج كبيرة .

ويُشهد الله أنا كنا نمر عليها ونفهمها ، ولكنا لا نستنتج منها النتائج التى وصل إليها . . . وقد عُرف الألمان بدقة البحث والصبر عليه ، والاستطاعة العجيبة فى أن يؤلفوا بين أجزائه المتنافرة ، وأن يصلوا منه إلى أدق النتائج وأعمقها . وهذا ما فعله الأستاذ المؤلف . فنحن ، إذا قرأنا الكتاب ، نرى أنه شرح لنا تدرج الألفاظ والأساليب من أول الهجرة العربية إلى القرن الرابع الهجرى .

نعم إن الكلمة التى ذكرها المؤلف ليست هى الكلمةَ الأخيرة فى الموضوع ؛ ولكنها الكلمة الأولى ؛ فهى تحتاج إلى كلمات أخرى تبسط المجمل ، وتوضح الغامض ، وتزيده بدءا إلى أول عهدنا باللغة العربية ، ونهايةً إلى عهدنا الحاضر . . . ولكنه على كل حال له فضل السبق ، وفتح الباب .

وإذا كان المؤلف يحتاج منا إلى ثناء عظيم على ما بذل من جهد ، وما وفق من نتائج ؛ فللمترجم : « الأستاذ النجار » فضل نقله إلى العربية ، لينتفع به أهل العربية الذين ألف الكتاب لهم وللغتهم ، فهم أجدر بالاستفادة منه ، والجرى على منواله .

والحق أن الترجمة جاءت دقيقة واضحة ، مع صعوبة أصلها ، وملئها بالجمل المعترضة ، التى تُدخلها عادة فى باب الغموض ؛ فاستطاع الأستاذ المترجم ، مع دقة الأصل ، ومع هذه التراكيب الملتوية بعض الالتواء ، أن يكشف غامضها ، ويُذهب التواءها ، ويَعرضها فى ثوب واضح .

وإذا كان هذا العمل فاتحة عمل المترجم فإنه يحق لنا أن ننتظر منه كثيراً من الأعمال الجيدة ؛ وهل بعد الإرهاص إلا الإعجاز ؟ أو هل بعد الإزهار إلا الإثمار ؟ والله يوفقه .

أحمد أمين

تقديم

بقلم الدكتور محمد يوسف موسى

الأستاذ المساعد بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول

اتصال الغرب بالشرق أمر معروف منذ زمن طويل قبل الميلاد . كان ذلك فى مصر حين وفد إليها غير قليل من فلاسفة اليونان ومفكريها للافادة من علماء مصر وكهنتها ؛ وكان فى فارس بسبب الحروب وما يتصل بها ؛ وكان فى الإسكندرية التى أنشأها الإسكندر الأكبر لتكون ملتقى حضارة الإنسانية جميعاً : الشرق والغرب .

ثم جاء الإسلام ، وانتشر فى الشرق والغرب انتشاره المعروف ، واستيلاؤه على بعض البقاع فى أوروبا : الأندلس ، فرنسا ، إيطاليا ؛ فكان لكل هذا نتيجته الحتمية من اتصال الغرب والشرق اتصالا علمياً قريباً ، وأخذ الغرب كثيراً من الشرق فى نواح عديدة من نواحى العلوم والمعارف . وأخيراً تقلص الإسلام وجلا عن أوربا ، إلا أن بعض العلماء الغربيين — وقد راعتهم قوة الإسلام ، وحضارته وانتشاره — رأوا العكوف على التراث الإسلامى بأوسع معانيه لتعرف أسباب تلك القوة ، ومقوِّمات هذه الحضارة ؛ ومن هنا كانت نشأة الحركة التى عرفت فيما بعد بحركة « الاستشراق » .

ولسنا بمعرض الحديث عن الاستشراق والمستشرقين ؛ ولكنا نريد أن نشير إلى أن المستشرقين عالجوا كل ما يتصل بالشرق من دين ، وحضارة ، وثقافة . وكان هذا بأسلوبهم الخاص ، ومنهجهم الغربى ؛ ولم يضنُّوا فى هذا بجهد أو مال . ولقد أنشأوا لذلك الجمعيات الأسيوية المعروفة ، بفرنسا ، وانجلترا ، وألمانيا ؛ واستخدمت كل جمعية من هذه الجمعيات أدوات النشر المعروفة : الكتاب ، والصحيفة الدورية ، والبحوث الفردية ، والجماعية ، يكشفون بسببها الغبار الذى تراكم على المكتبة العربية فى أنحاء المعمورة بهمة لا يحدها كلل أو ملل .

وكان من هذا أن عرف العالم علماء أعلاما ، امتازوا بالتوفر على دراسة الشرق عامة ، والإسلام بوجه خاص . وقد ظفرنا بثروة كبيرة من المؤلفات العربية التى نشرها هؤلاء العلماء نشراً علمياً حقاً ، فضلا عن البحوث العلمية العميقة التى قام بها أولئك الأعلام ، وانتفعنا ولا نزال ننتفع بها كثيراً فيما نكتب عن العربية وعن الإسلام .

ومن هذه البحوث القيمة ، هذا الكتاب ، الذى يسعدنى كثيراً أن أسهم فى تقديمه للقراء ، من نتاج الأستاذ المستشرق الألمانى : « يوهان فك » ؛ وهو دراسات فى اللغة العربية ، ولهجاتها ، وأساليبها ، وتطورها مع تطور الزمان ؛ دراسات عميقة تقوم على الملاحظة القوية لحياة هذه اللغة وتطورها وعوامل هـذا التطور ومظاهره ، فى أدوار التاريخ وفتراته المختلفة ، حتى هذا العصر الذى نعيش فيه .

***

أول ما لاحظه المؤلف بحق ، فى تمهيده للكتاب ، هو أن ظهور الإسلام كان أهم حـدث فى تاريخ اللغة العربية وتقرير مصيرها ؛ إذ جعل الإسلام من اللغة الفصحى نموذجا مفروضا ، ومثلا أعلى يقتفيه كل كاتب عربى .

على أن هذا لم يمنع أن تبدأ هذه اللغة فى التطور سريعاً ، أى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وابتـداء الفتوحات الإسلامية ، وما كان نتيجة حتمية لهذه الفتوحات من دخول عناصر غريبة من الأتبـاع والسرارى فى البيئة العربية ، ثم بسبب انتقال اللغة نفسها إلى مواطن أجنبية ، أثرت فيها وتأثرت بها بطبيعة الحال .

لـكن العرب ، وهم جِدّ حراص على لغتهم ، لم يُرضهم هذا الخلط الذى أصابها ، فنشأ فى عهد الأمويين مبدأ « تنقية اللغة العربية » ، وذلك عن طريق التربية والتعليم ، وكان فى هذا ما أوجد الدافع فى نهاية القرن الأول إلى دراسة قواعد اللغة ، ضمانا لسلامتها من هذا الخلط ، الذى كان يهددها فى أصولها ، وحركاتها ، وأصواتها .

ومضى العهد الأموى ، وجاء العهد العباسى ، فكان من أثر ذلك أن دخلت اللغة العربية فى مرحلة جديدة من مراحل حياتها ؛ وهذا بسبب بُعد العباسيين — وإن كانوا أصلاء فى عروبتهم — عن حياة البدو بعداً كبيراً ، وبسبب اصطناعهم لعناصر أجنبية لا تستطيع أن تستبطن اللغة العربية ، والحياة العربية الصحيحة . ومن السهل علينا أن نتبين ما أصاب اللغة من تطوّر وتغير فى نثر ابن المقفع وشعر بشار بن برد ، مع حرص كليهما على تقليد القدماء فى الحروف والأصوات ، والمادة اللغوية ، والأسلوب .

على أن الإحساس كان لا يزال قويا فى عهد العباسيين أيضا ، بوجوب المحافظة على اللغة وتنقيتها من الغريب عنها ، مادة وأسلوبا ؛ حتى كان اللحن معيباً جداً ؛ فهذا الكميت الشاعر يرفض أن يملى شعره على حماد ، لأنه خشى لحنه ، كما يقول ابن النديم : إن حماداً كان كثيراً ما يلحن (ص ٦٣) . وهذا عبد الله بن إدريس الأودى ، وكان يعيش فى أيام الرشيد ، ورفض أن يلى القضاء حين ندبه له ، كان إذا لحن الرجل عنده فى كلامه لم يحدثه ، كما كان يفض درسه إذا لحن واحد من مستمعيه ، كما يروى الخطيب فى تاريخ بغداد (ج ٩ ص ٤١٩) . وكان من الطبيعى لهذا أن تبدأ فى الظهور مصنفات فى لحن العامة ، بل وفى أوهام الخواص ، على ما هو معروف . وهذه المصنفات خدمت بلا ريب مبدأ « تنقية اللغة » ، وعاونت على احتذاء عربية البدو ، التى صارت تعدّ القدوة المثلى ؛ حتى لقد وصل الأمر إلى أن احتذاها المثقفون فى الكلام الشفوى ، والتحرير الكتابى جميعاً (ص ١٠٠) .

ومع ضرورة الحيطة التى اضطلع بها أصحاب مبدأ « تنقية اللغة » ، نرى اللغة — وهى فى سبيل انتشارها وتطوّرها — تدخل عليها تجديدات كان سدنتها يحسّون عدم جوازها ، وذلك فى القرن الثالث ؛ وقد ضرب المؤلف لذلك بضعة أمثلة (فى ص ١٢٢ — ١٢٣) . ونعتقد أن هذا الأمر جد طبيعى ، ما دامت اللغة كائناً حياً يتأثر بما يحيط به تأثراً لا معدَى عنه بحال .

ومهما يكن من أمر ، فقد نالت هذه التجديدات من المستوى العام

للثقافة اللغوية ، فكان من نتائج ذلك ظهور كتاب مثل أدب الكاتب لابن قتيبة ، لعلاج النقص الذى لم يسلم منه بعض كتاب الدولة ووزرائها . ومن الطبيعى ، وهذا شأن اللغة الفصحى ، أن يكون حال اللغة الدارجة أسوأ من ذلك بكثير ؛ ولا سيما — كما يقول المؤلف ص ١٣٧ — « وقد كان عوام الأتراك هم أصحاب الكلمة فى القصر » .

ونشأت من ذلك ظاهرة قد تعتبر غريبة ، وهى جدُّ طبيعية ما دامت قد وجدت أسبابها ؛ ذلك أن لغة الأعراب كانت تعتبر المثل الأعلى للمتكلم والكاتب ، وكانت لهجاتهم حتى أواسط القرن الثالث هى المعينَ الذى يستقى منه علماء اللغة ؛ ولكن لما قويت العربية المولدة ، شالت كفة اللغة الفصحى ، وصار يعدّ من التقعر احتذاء لغة البدو احتذاء تاماً ، وبخاصة والأعراب ، كما لاحظ ابن جِنِّى ، قد يقعون فى اللحن ؛ ولهذا تراه يخصص فى كتابه « الخصائص » باباً مستقلا لأغلاط الأعراب .

وكان انحلال الدولة العباسية نهائياً فى القرن الرابع إلى دويلات عديدة ، مما عاون بقوة على نشوء لهجات إقليمية يتميز بعضها عن بعض ؛ وتستطيع التأكد من هذا بالرجوع إلى كتاب مثل كتاب « أحسن التقاسيم » للمقدسى ، إذ حَرَص على أن يميز كل إقليم من الوجهة اللغوية بذكر التعبيرات المحلية الخاصة به . بيد أن وحدة الثقافة فى الدولة ، على اتساع رقعتها ، وانقسامها إلى دويلات عديدة ، ضمن للعربية الفصحى مقاماً ثابتاً لم ينل منه انحلال الدولة العباسية بحال . لكن يلاحظ المؤلف بحق أن اللغة الفصحى ، وقد كملت بقواعدها وعلومها ، لم يعد لها تأثير حىّ متبادل مع لهجة الأعراب ، وصار على المتعلم أن يتعلمها كما يتعلم لغة ماتت أو كادت (ص ١٦٨) .

هذا ، وقد خلق استيلاء السلجوقيين ومن والاهم وخلف بعدهم من أمثالهم على الحكم منافساً قوياً للعربية الفصحى ، نعنى اللغة الفارسية التى صارت اللغةَ الرسمية ، ولغة الأدب ، والشعر ، والعلم ، حتى لقد ألّف بها عدد غير قليل من العلماء ، مثل الوزير نظام الملك ، وحجة الإسلام الغزالى . وقد استتبع

هذا الأمر نتيجته الطبيعية ، نعنى أن طلاب العلم صاروا فى حاجة إلى شروح بين يدى النثر أو الشعر الفصيح ، ليتيسر لهم فهمه . وقد قام أبو زكريا التبريزى ، الذى عاش فى القرن الخامس بخدمات جُلى بما وضعه من شروح لغير قليل من دواوين العربية وعيون كتبها .

ومهما كانت هذه الجهود التى بذلها التبريزى ، ومعاصره الحريرى (بكتابه درة الغواص فى أوهام الخواص) وأضرابهما ، والتى أريد بها بعث العربية القديمة الفصيحة ، فقد كانت حيوية اللغة الشعبية الدارجة أقوى من ذلك كله ؛ ولقد كتب لها النصر والبقاء على أنقاض الأولى ، وساعد على هذه النتيجة ما كانت تعانيه الدولة الإسلامية من اضطراب وانحلال وحروب صليبية ، مما لم يكن يسمح بالعناية الكافية بالتراث الأدبى التليد .

وجاء السيل المغولى الذى اكتسح خلافة بغـداد عام ٦٥٦ هـ ، فكان الضربةَ القاضية ، إذ بلغت به مرحلة الانحلال اللغوى والقومى إلى آخر حلقاتها ، وصار على العربية بعد هذا أن تسلك أشد فترات حياتها سواداً وركوداً ؛ وهى فترة تمتد إلى آخر القرن التاسع عشر .

وأخيراً شهد فجر هذا القرن العشرين طلائع النهوض ، وبواكير الجهود ، لإقالة العربية من عثارها ، وإرجاعها إلى مكانتها الحريّة بها ؛ وكان لمصر ولا يزال ، فى هذا السبيل الفضل الأول ؛ وهذا ما أدى إلى « نشوء حركة التنقية اللغوية نشأة جديدة أخرى » (ص ٢٣١) .

وإنّ ما وصلت إليه اللغـة العربية فى مصر ، لعهدنا هذا ، من السلامة والفصاحة ، مادة وأساليب ، وبخاصة لدى المثقفين ثقافة عربية إسلامية ، ليجعلنا نقول مع المؤلف فى ختام كتابه بأنه « قد برهن جبروت التراث العربى التالد الخالد على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها إلى زحزحة العربية عن مقامها المسيطر . وإذا صدقت البوادر ، ولم تخطىء الدلائل ، فستحتفظ أيضاً بهذا المقام العتيد ، من حيث هى لغة المدنية الإسلامية ، ما بقيت هناك مدنية إسلامية » .

***

هذه نظرة تحليلية عابرة لهذا الكتاب النفيس ، الذى يسر « جماعة الأزهر للنشر والتأليف » أن عنيت بنشره ، كما يسرنى شخصياً أن أقدمه للقارىء العربى ؛ وهى نظرة قد تكشف عن بعض الجوانب ، مما زخر به الكتاب من معارف جمة ، وعرض واسع المدى ، واسترسال طويل النفس ، ثرىّ بالملاحظات الصائبة ، والتحليل الدقيق ، والدراسات المتنوعة الألوان ، فى قوة وعمق ، للغة العربية وتطورها فى مادتها ولهجاتها وأساليبها منذ ظهور الإسلام إلى العصر الحاضر .

وتزيد من نفاسة هذه الدراسات ، ويُعلى من قيمتها أنها نتيجة عمل دقيق ، أساسه الصبر الجليد ، والهمة القعساء ، قام به مستشرق من نوابغ مدرسة المستشرق الألمانى الباقى الذكر ، الخالد الاسم : أوجست فيشر August Fischer ؛ ومن مزايا المستشرقين الألمان بوجه عام ، والمدرسة المذكورة على الخصوص ، الدأب المتواصل ، والنشاط الحثيث فى كل ما يباشرون من عمل ، مع بناء آخرهم ، على الأسس التى وضعها أولهم ؛ وهكذا يتقدم العلم على أيديهم خطوات ظاهرة ملموسة فى كل ما يكتبون على تعاقب الأجيال .

وللأستاذ المؤلف : يوهان فك Johann Fück تاريخ حافل فى خدمة العربية ، وتجديد معالمها ؛ ومن آخر ما عرفنا توفره عليه ، ونبوغه فى دراسته وتحقيقه : كتاب الفهرست لابن النديم ؛ وقد ذكر له ذلك وأثنى عليه الأستاذ العالم المؤرخ ، ألدوميللى Aldo Mielli (انظر . Aldo Mielli, la science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondeale, Paragraph § 17, p. 98, 222

كما أن سلامة أحكامه ، وصحة نتائجه ومقدماته ، كما يعرضها فى هذا الكتاب الماثل بين أيدينا ، أصدقُ شاهد على تضلعه ، وتخصصه دهراً طويلا فى هذه الناحية من علوم الاستشراق .

أما ناقل الكتاب إلى العربية فهو صديقنا الفاضل الأستاذ الدكتور عبد الحليم النجار ، المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ؛ وهو من أسرة عرفت بحب العلم ، والدأب على الدرس والبحث ، والتوفر على العلوم

الإسلامية ؛ وهو نفسه من نوابغ العلماء الذين جمعوا كلتا الثقافتين : الشرقية والغربية ، إذ كان مبعوثا إلى جامعة برلين التى نال فيها الدكتوراه فى الدراسات الشرقية والإسلامية .

وتشهد له ترجمته لهذا الكتاب بعلو الكعب ، ورسوخ القدم فيما يعرض له من دراسة ؛ فإن هذه الترجمة فضلا عن أنها لا تكاد تجعل القارىء يلمس أثر النقل من لغة أجنبية ، إذ جاءت مطبوعة مصبوبة صبا ، كما لو كانت تأليفا لا ترجمة — تنم عن تخصص وإحاطة بالناحية التى عرض لها الكتاب ، بما قام به من تحقيق وتعليق ، ودرس للنصوص والنقول عميق .

والله نسأل أن ينفع بهذا الكتاب ، وأن يكتب ناقله إلى لغة الضاد فى سجل العلماء العاملين لخدمة الدراسات العربية والإسلامية ؛ والله ولى التوفيق .

محمد يوسف موسى

تمهيد

لم يحدث حدث فى تاريخ اللغة العربية أبعد أثراً فى تقرير مصيرها من ظهور الإسلام . ففى ذلك العهد — قبل أكثر من ١٣٠٠ عام — عند ما رتّل محمد صلى الله عليه وسلم القرآن على بنى وطنه بلسان عربى مبين ، تأكدت رابطة وثيقة بين لغته والدين الجديد ، كانت ذات دلالة عظيمة النتائج فى مستقبل هذه اللغة . ولا ينحصر هذا فى المقام الذى أخذته العربية منذ ذلك الوقت فى العالم الإسلامى كافة ، من حيث صارت لغة الدين والحضارة على الإطلاق ، بل يتجاوزه بمقدار أعظم إلى النتائج التى تركتها غزوات الفتح على أيدى عرب البوادى، تحت راية الإسلام فى لغتهم . وبذلك صارت العربية لغة الطبقات السائدة الموجِّهة فى دولة سرعان ما امتدت رقعتها — فى أوج اتساعها وانتشارها بعد سنة ٧٠٠ م — من أسبانيا غرباً ، إلى أواسط آسيا نحو المشرق . وقد زحفت العربية مع الفاتحين البداة فاستقرت فى بعض الأقاليم ، واضطرت إلى الانسحاب بأخرة من بعض آخر ؛ كما كانت هناك مناطق استعاض سكانها الأصليون من العربية إحياء ما بلى من لهجاتهم ، وأخيراً أخرى بقيت فيها العربية لغة العلم المعتمدة فحسب . ولم يقحم سقوط الدولة العربية (الأموية) سنة ٧٥٠ م لغة العرب معه فى الاضمحلال والانحلال ؛ بل لقد شهد عصر النور فى أوائل الدولة العباسية أقصى درجات العناية بالقواعد العربية ، ثم شهد ، على أثر ذلك مباشرة ، العصر الذهبى للأدب العربى ؛ كما أن انحلال الدولة العباسية إلى دويلات عديدة مستقلة ، ذلك الانحلال الذى أخذ نهايته فى سنة ٩٣٥ م ، لم يزعزع من مكانة العربية ، التى ربطت إذ ذاك جميع أقطار المدنية الإسلامية ، على أنها اللغة الأصيلة للعلم والأدب ، برباط جامع وثيق . حقاً لقد رفع العصر السلجوقى بالقطر الإسلامى الشرقى من شأن اللغة الفارسية

الحديثة ، فجعلها لسان سُدَّة المُلك ، ولغة السياسة الدولية (الديبلوماسية) ، وترجمان الثقافة العالية ، والأدب الرفيع ؛ على حين أنه اعترف بالعربية فقط من حيث هي لغة الدين والفلسفة الكلامية ؛ كما أن الأحداث السياسية قد دفعت مصر إلى أن تتبوأ مكانة الرياسة بين البلدان الناطقة بالضاد بعد الحروب الصليبية وهجوم المغول ؛ مكانة عرف وادى النيل كيف يحتفظ بها إلى هـذا اليوم ؛ بيد أن مقام العربية باعتبارها اللغة المعتمدة للعلم والأدب قد بقى حتى هذا العصر الحديث ثابت الأركان ، وطيد الدعائم ؛ ولم يجرؤ إلا بعض دعاة الإصلاح الإسلاميين على توجيه نقدهم اليوم — دون جدوى — إلى عقيدة اللغة العربية الفصحى .

هذه العقيدة التى جعلت من العربية الفصحى نموذجاً مفروضاً ، ومثلا أعلى يقتفيه كل كاتب عربى ، جعلت من العسير بمكان أن نحصل على صورة واضحة للنمو والتطور الذى أخذته العربية ، ككل لغة حية ، فى مدة تربو على ثلاثمائة وألف عام . ولقد تكفلت القواعد التى وضعها النحاة العرب فى جهد لا يعرف الكلل ، وتضحية جديرة بالإعجاب ، بعرض اللغة الفصحى وتصويرها فى جميع مظاهرها ، من ناحية الأصوات ، والصيغ ، وتركيب الجمل ، ومعانى المفردات على صورة محيطة شاملة ؛ حتى بلغت كتب القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال لا يسمح بزيادة لمستزيد . ولا تزال كتب القواعد الأساسية المذكورة تعد اللغة العربية لغـة متصرفة بمعنى الكلمة ، محافظة على علامات الأحوال والتصريفات المختلفة ، مثل الضمة فى حالة رفع الاسم والفعل ، والكسرة فى حالة خفض الاسم ، والفتحة فى حالة نصب الاسم والفعل الخ . ولما كانت علامات الإعراب هذه قد تلاشت منذ أجيال تفوق الحصر فى جميع العالم العربى ، سواء على لسان عامة الشعب ، فى القرى والمدن ، أم فى شتى أساليب الكلام الجارى على ألسنة الطبقات المثقفة ، بل فى لهجات البدو أنفسهم ، فقد صار التصرف بالإعراب هو الفارق الذى يميز عند المثقفين من العرب بين العربية الفصحى وجميع

القوالب والأساليب المولدة ، حتى اللهجات الدارجة ، واللغات العامية . بيد أن هذا الإعراب ، أى الطريقة الخاصة التى كان ينطق عرب البادية على مقتضاها ، هى فى ذاتها سطحية ، بحيث لاتكفى وحدها لتكون ميسما مميزاً للغة الفصحى . وليس من النادر أن نجد الإعراب مجرد حلية فارغة يقصد منها إلى إعارة نوع من التعبير ، فى قالب مخالف للفصحى فى جوهره ، مسحة زائفة من الفصحى . وإذاً فجوهر القالب اللغوى وحقيقته هو الذى يميز الطابع الصحيح للعربية الفصحى . ومن هنا يصح أن نقول : إن التحرر من الإعراب قرينة أكيدة على مخالفة الفصحى ، لا العكس ، أى أنه ليست مخالفة الفصحى منحصرة فى التحرر من الإعراب .

لقد احتفظت العربية الفصحى ، فى ظاهرة التصرف الإعرابى ، بِسِمَة من أقدم السمات اللغوية التى فقدتها جميع اللغات السامية — باستثناء البابلية القديمة — قبل عصر نموها وازدهارها الأدبى . وقد احتدم النزاع حول غاية بقاء هذا التصرف الإعرابى فى لغة التخاطب الحى . فأشعار عرب البادية — من قبل العهد الإسلامى ومن بعده — ترينا علامات الإعراب مطردة كاملة السلطان . كما أن الحقيقة الثابتة من أن النحويين واللغويين الإسلاميين كانوا — حتى القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى على الأقل — يختلفون إلى عرب البادية ليدرسوا لغتهم ، تدل على أن التصرف الإعرابى كان بالغاً أشده لذلك العهد . بل لا نزال حتى اليوم نجد فى بعض البقايا الجامدة من لهجات العرب البداة ظواهر الإعراب . أما أن أقدم أثر من آثار النثر العربى ، وهو القرآن ، قد حافظ أيضاً على غاية التصرف الإعرابى ، فهذا أمر ، وإن لم يكن من الوضوح والجلاء بدرجة الشعر ، الذى لا تترك أساليب العروض والقافية مجالا للشك فى إعراب كلماته ، إلا أن مواقع كلام القرآن الاختيارية لاتترك أثراً للشك فيه كذلك . انظر مثلا آية ٢٨ من سورة فاطر : « إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »

وآية ٣ من سورة التوبة : « أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ » .

وآية ١٢٤ من سورة البقرة : « وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ » .

وآية ٨ من سورة النساء : « وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ » .

فمثل مواقع الكلمات فى هذه الآيات (كالاستعمال اللاتينى matrem amat filia الامَّ تُحِبُّ الْبِنْتُ) لايمكن أن يكون إلا فى لغة لايزال الإعراب فيها حياً صحيحاً. يضاف إلى ذلك شهادة القرآن نفسه ، مثل آية ١٠٣ من سورة النحل : « وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ » . وصريح من هذا أنه لم يقم عند محمد ومعشره فرق هام بين لغة القرآن و بين لغة العرب ، أى قبائل البدو . ولا يمنع ذلك أنه كانت هناك فروق بين لهجة مكة ولهجات البادية ، و بين هذه الأخيرة بعضها مع بعض . فهاهى ذى قواعد رسم المصحف تدل على أن مكة قد تحررت من تحقيق الهمز، كما أن لغة القرآن تختلف اختلافاً غير يسير عن لغة الشعراء ، فهى تعرض ، من حيث هى أثر لغوىّ ، صورة فذّة لايدانيها أثر لغوى فى العربية على الإطلاق (١) . فى القرآن ، لأول مرة

(١) على أساس هذا الاختلاف بنى ك فلرز K. Vollers فى كتابه : Volkssprache und Schriftsprache im alten Arabien, Strassburg 1906 نظريته اللافتة للأنظار ، من أن القرآن كان فى بادىء الأمر بلسان محمد ، يعنى بلهجة مكة الخالية من ظواهر الإعراب ، وأنه يدين بأسلوبه الذى وصل إلينا ، إلى تنقيح خاضع للقواعد التى اعتمدت فى العربية على الأخص من حيث الإعراب . وهذه النظرية التى تناولها نولدكه Nöldeke بنقد يرفض التسليم بها فى كتابه : — Neue Beiträge zur semitischen Sprachwissen Schaft, Strassburg 1910, 1 - 5 أثار الكلام فيها من جديد ب . كاله P. Kahle فى كتابه : The Cairo Geniza, London 1947, p. 78 - 84 وإن كان فى قالب معتدل . وقد ساق كاله هنا ، وبتفصيل وبسط فى مقاله The Qur' an and the Arabiya المنشور فى الكتاب التذكارى لتكريم المستشرق « جولد تسيهر » ، ص ١٦٣ و ١٨٢ ، عدداً من النصوص والروايات التى تحث المسلمين على مراعاة الإعراب فى ترتيل القرآن . نعم لا تدل هذه الروايات على أن القرآن فى حيـــاة محمد قرىء فى أوساط المسلمين دون إعراب ، — وقد عرف النقاد المسلمون أنها موضوعة مزيفة ، وأبقوها بعيدة عن المصاحف المعتمدة — ، ولـكنها تدل على أن ترك الإعراب قد حصل فى وقت متأخر ، وأن النحاة رأوا من الضرورى أن يعملوا على محاربتها . وقد ساق كاله ، فى كتابه السالف الذكر ، نقلا عن الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، فى نص عربى يتضمن بعض هذه الروايات مع بيان لهذا النحوى الـكوفى الضليع فى موضوع إعجاز القرآن . وفى هذا يؤيد الفراء مذهب أهل السنة من أن القرآن نزل بأفصح اللغات ، ويرد على بعض علماء الشعر، ورواة الأخبار التاريخية عن عرب البادية ، الذين لا يريدون =

فى تاريخ اللغة العربية ، ينكشف الستار عن عالم فكرى ، تحت شعار التوحيد ، لاتعد لغة الكهنة والعرافين الفنية المسجوعة إلا نموذجاً واهياً له ، من حيث ظاهر وسائل الأسلوب ، ومسالك المجاز فى اللفظ والدلالة ، على حين أن هذا الأثر العظيم ، الذى وجد التعبير الموائم لحصول جديد برُمَّته ، إنما يصوِّر مجهودا لمحمد صلى الله عليه وسلم جدّ أصيل[١] ، لا ينقص من قيمته أن محمداً نفسه كان يرى أنه وحى إلهى ،

= أن يلتمسوا إعجاز القرآن فى قواليه اللغوية ، بل يرون كمال الفصاحة فى لغة عرب البادية ، ثم يختلفون (الكوفيون والبصريون والمدنيون والمكيون) حول أى القبائل أفصح ؟ حسب اختلاف جوار كل منهم لقبيل من العرب . فيذهب الفراء رداً على جميع هؤلاء إلى أن لغة القرآن أفصح أساليب العربية على الإطلاق . وممن ينكر عقيدة الإعجاز اللغوى فى القرآن أهل الاعتزال من علماء اللغة . وقد أخذ تفسير الإعجاز القرآنى عند المعتزلة مذاهب شتى (انظر :Goldziher, Muh-Studien 2, 401) كما أن آراء المعتزلة انتشرت انتشاراً بعيداً بين علماء اللغة من أواخر القرن الثانى ، بحيث لم يعد السنى الحافظ إبراهيم الحربي ، المتوفى ٢٨٥ هـ ، لعهده غير أربعة من نحاة البصريين الذين لا يتعلق الشك بثقتهم وصحة مذهبهم (انظر : الخطيب ، تاريخ ج ١٠ ص ٤١٨) . وكان الفراء نفسه يميل إلى الاعتزال ، ولكن ذلك لم يمنعه من موافقة مذهب أهل السنة فى موضوع إعجاز القرآن كما ذكر . وقد روى عنه أنه أنحى بشدة اللائمة على أبى عبيدة فى محاولته تفسير مجاز القرآن من الوجهة اللغوية (خطيب ، فى الموضع السابق ، ج ١٣ ص ٢٥٥) .

وقد عالج Kahle توضيحات القراء مرة أخرى فى مقاله : The arabic Readers of the Koran (Journal of Near Eastern Studies 8, 1947, p. 65-71).
وأراد أن يعتبر من منكرى إعجاز القرآن اللغوى ، قراء القرآن الأولين فى المدن الإسلامية الكبرى ، الذين رحلوا لمخالطة عرب البادية المخيمين فى جوارهم ، قصداً إلى دراسة رواياتهم عن شعراء البدو ، ووضع قواعد مستنبطة من لغة الشعر لقراءة النص القرآنى على مثالها ، وهو يفترض أن هذه الضرورات العملية هى التى أوجدت الباعث إلى جمع شعر الجاهلية وكتابته فى أوائل العصر الإسلامى . وعلى أساس هذه المادة التى تم جمعها ، وضعت لغة نموذجية ، كان الإعراب من مميزاتها ، ومن ثم أدخل الإعراب فى قراءة القرآن . اهـ كلامه .

(١) يفهم مما ذكر أن المؤلف لا يرضى ما رآه كل من Vollers و Kahle من أن القرآن كان عرضة للتغيير من الوجهة اللغوية . على أن Nöldeke قد تكفل من قبل ببيان ما وقع فيه Vollers من خطأ علمى ، وبناه على غير أساس . أما كلام Kahle فلا يخفى ما فيه من التخليط ؛ ذلك أن الخلاف فى موضوع إعجاز القرآن ، إنما هو بحث فى أمر من كماليات اللغة ، ومراتب ذروتها فى البلاغة ، وشتان بين هذا وبين التنزل إلى افتراض عامية القرآن أو خلوه من الإعراب ، وجريانه على الأساليب الدارجة ، فذلك ما لم يدر بخلد أحد من العلماء على الإطلاق .

تلقاه فى أوقات الاستغراق الدينى . والاستعمالات القرآنية الخاصة ، التى تحتوى هى أيضاً على مخالفات للقواعد العامة ، تعدّ فى مستوى مغاير للشذوذ المختلف المراتب ، بالنسبة للتصرف الإعرابى ، فى العربية الفصحى والعربية المولدة . وقد بدأ التطور إلى العربية المولدة حينما نقلت العربية بعد وفاة الرسول مباشرة بوساطة غزوات الفتح الإسلامى الكبرى في العهد الأول ، إلى خارج حدود الوطن العربى ، فى مواطن لغوية أجنبية[1] .

(١) هذا على ما يعتقده الغربيون من أن القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم . ولا تخفى مخالفة هذا لعقيدة الإسلام .

(١)

الروابط اللغوية فى عهد الدولة العربية (الأموية)

٦٣٢/١١ — ٧٥٠/١٣٢

كانت هجرة القبائل العربية ، عقب وفاة محمد (صلى الله عليه وسلم) سنة ٦٣٢/١١ ، إيذاناً بشروق عصر جديد للغة العربية . ففى مدة عشرات من السنين حملت قبائل البادية ، فى غزوات الفتح ، لهجاتها نحو الشمال إلى فلسطين وسورية وما بين النهرين حتى جبل طوروس وجبال أرمينية ، ونحو الشرق ، عبر العراق ، إلى إيران ، ونحو الغرب ، عبر شبه جزيرة سيناء ، إلى مصر وشمال أفريقية ، ولم تكد تمضى مائة عام على وفاة محمد (عليه السلام) حتى امتدت الدولة إلى سفوح البرانس فى المغرب ، وإلى أواسط آسيا على شواطئ نهر الهند فى المشرق ؛ وهذا النفوذ الذى بلغته اللغة العربية ، إلى مناطق كانت تستوطنها لغات أخرى ، لم يكن ليمر عليها دون تأثير أو تغيير ، مهما اختلفت نتائج هذه العلاقات الجديدة ، حسب اختلاف الأحوال ، فى مظاهرها وظواهرها . ولقد احتفظت كثير من القبائل البدوية أيضا فى البلدان التى استولت عليها ، بطريقة حياتها البدوية ؛ وحافظت بذلك على سلامة لهجاتها وخلوصها . ولهذا كان لايزال ممكناً فى أوائل العهد العباسى ، أن يلاقى المرء من جنوب البرتغال فى الغرب ، إلى خراسان فى الشرق ، قبائل عربية ، وأن يسمع من أفواهها عربية بدوية خالصة ، لا تشوبها هجنة ولا عجمة . ومن جانب آخر لقد أدّى عهد الفتح إلى بث روح من القوة فى صميم العربية ، وإلى توحيد لهجات البدويين أنفسهم . فعلى غرار البدويين من غير العرب ، كقبائل الترك مثلا ، لم تكن لهجات القبائل البدوية بالجزيرة العربية بعيدة الاختلاف من الوجهة اللغوية بحيث لايمكن التفاهم ، حتى بين القبائل المتباعدة بعضها عن بعض فى السكنى والجوار ؛

إذ أن أغلب الفروق — فيما يظهر — كانت ترجع إلى طبيعة اختلاف الأصوات ، والقوالب ، والمفردات ؛ أو على الأقل هـذه هى الفروق التى لفتت أنظار النحاة واللغويين الإسلاميين ، الذين نعتمد على أخبارهم وحدها فى معارفنا عن اللهجات البدوية[١] . ومن تلك الفروق — مثلا — : العنعنة ، أى إبدال العين من الهمزة ؛ والكسكسة ، وشبيهتها الكشكشة ، أى إبدال السين أو الشين من الكاف ؛ والتلتلة ، أى كسر حرف المضارعة ؛ [والعجعجة ، أى] قلب الياء المشددة جيما فى النسبة [مثلا] ؛ وأخيراً الأمثلة التى لاحصر لهـا من استعمال لفظ عند قبيلة ، فى صيغة تخالف صيغته عند أخرى ، أو بمعنى يختلف قليلا . فهذه الخصائص القبلية ، الراجعة إلى اللهجات المحلية ، قد صُقلت إلى حد بعيد فى عهـد الفتوحات التى وحّدت القادرين على حمل السلاح من مختلف القبائل فى سبيل التعاون فى الجهاد . يضاف إلى ذلك أن السياسة الواسعة الأفق التى امتاز بها الخليفة الثانى ، عمر العبقرى ، مؤسس الدولة العالمية الإسلامية (حكم ١٣/٦٣٥ — ٢٣/٦٤٤) قامت بقسط لايستهان به فى سبيل توحيد اللغة ، و إنشاء لسان مشترك بين قبائل البدو جميعاً ؛ كما حفظت العربية من الاضمحلال والانحلال . فلكى يحفظ عمر العرب من التلاشى فى جماهير الشعوب المغلوبة ، التى تفوقهم بكثرة العدد ، حرم عليهم أن يمتلكوا الضياع فى الأقاليم الجديدة ، أو أن يتخذوها لهم وطناً ومُقاماً ؛ كما جعلهم بمعزل عن المدن الكبيرة فى البلدان المفتوحة ، ماعدا سورية التى كانت استعربت إلى حد كبير قبل الإسلام بوساطة القبائل العربية التى هاجرت إليها[٢] ، فأسكنهم فى معسكرات من الخيام ، كانت نواة للمدن العظمى فى العالم الإسلامى ، التى نشأت فى بضع عشرات من السنين ، كالبصرة ، والكوفة ، والفسطاط ، وغيرها . و بينما كانت تقيم هنا مختلف القبائل والعشائر فى جوار قريب ، اكتسبت أيضا لهجاتهم قوة وفتوة ، ونشأت لغة

---

(١) يقدم كثيراً من النصوص : H. Kofier: WZKM (Wiener Zeitscchrift für Kunde des Morgenlandes) Band 47 - 49.

(٢) Wellhausen : a) Skizzen, 6, 51 ff. b) Reich 83

بدوية مشتركة ، وضعت الأساس لعربية القرون المتأخرة الفصحى .

حقاً لم يكن ممكناً أن يبقى حد فاصل ، بين الفاتحين العرب والمغلوبين على أمرهم من غير العرب ، قائماً على الدوام . لقد كانت توجد فى جميع الأقاليم مناطق زراعية ، لم يكن لأحد من السكان الأصليين عليها حق قانونى : الضياع الملكية للأسر المبعدة من الحكم ؛ الأملاك التى انقرض ملاكها ؛ التركات التى هرب أصحابها أو نفوا ؛ إلى غير ذلك . هذه الضياع والأملاك احتازها ولاة الأمر فى العهد الجديد على صورة إقطاعيات . وهذه الطبقة السائدة ، من الملاك العظام ، كانت على اتصال دائم بالسكان الوطنيين ، مهما كان هؤلاء — من حيث قلة العدد — أضعف من أن يؤثروا أثراً ظاهراً فى تكييف العلاقات اللغوية وتغييرها . بل لقد كانت أكثر من ذلك كثيراً تلك الطائفة التى تلتحق بكل جيش عربى من غير العرب ، من العبيد ، والخدم ، والتجار ، والطهاة ، الخ ، الذين كانوا يقدمون الخدمات المختلفة لسادتهم الجدد ، ويخلقون بذلك مشكلة لغوية غير هينة . ومن هنا نشأت بالضرورة لغة للتفاهم ، لا يمكن أن نصورها بسهولة كافية إذا ضربنا لها مثلا : lingua franca ، أو Pidgin - English ، أوغيرهما من اللغات المصطنعة لتقريب التفاهم عند الضرورة [١] وقد استعانت لغة التفاهم المذكورة بأبسط وسائل التعبير اللغوى ، فبسطت المحصول الصوتى، وصوغ القوالب اللغوية ، ونظام تركيب الجملة ، ومحيط المفردات ؛ وتنازلت عن التصرف الإعرابى ، واستغنت بذلك عن مراعاة أحوال الكلمة وتصريفها ، كما ضحت بالفرق بين الأجناس النحوية ، واكتفت ببعض القواعد القليلة ، الثابتة فى مواقع الكلام ، للتعبير عن علاقات التركيب . وفى أى صورة كانت تصدر هذه اللغة الجديدة ؟ هذا ما تشير إليه قصة تاجر

---

(١) lingua franca اصطلاح أوربى يقابله فى بلاد الشرق تعبير : اللغة الافرنجية ، وهى خليط من الكلمات الإيطالية والفرنسية واليونانية وغيرها ، يستعمله المشارقة فى التفاهم مع الأوربيين . و Pidgin - English اصطلاح على لهجة إنجليزية مبسطة محررة من القيود اللغوية ، يجرى التفاهم بها بين الإنجليز والأجانب . على الأخص فى بلاد الشرق الأقصى . و Pidgin كلمة محرفة عن : business الإنجليزية .

الدواب ، الذى باع جنود المسلمين دواب رديئة ، فاستنطقه الحجاج ، فأجابه : « شريكاتنا فى هوارها وشريكاتنا فى مداينها وكما تجىء تكون » ؛ أى أن هذه الدواب قد وصلت على ما هى عليه من رداءة من شركائه فى بلادهم بالأهواز والمدائن(١) . ولم تكن أقل من ذلك عدداً تلك الجماعات غير العربية ، التى وقعت فى الأسر فى أثناء حروب الفتح ، والتى دخلت معسكرات الفاتحين وبيوتهم عبيداً وإماء ، فوجدت نفسها فجأة متغلغلة فى جوّ لغة عربية مشتركة ، واضطرت إلى استعمال لسان السادة ولهجتهم . وفى هذا لقيت العربية على لسان غير العرب تغييرات هدّدت بالمسخ صورة وقعها وجَرْسها ، وطبيعة تكوينها وتركيبها فى الصميم . وتفاصيل هذا التطور غير معلومة لنا ، بسبب انعدام أخبار المعاصرين . بيد أن عالم التأليف المتأخر عن ذلك قد حفظ لنا مقداراً كبيراً من الأخبار عن الأخطاء اللغوية ، التى وإن كان كل منها على التفصيل ليس بذى قيمة خاصة ، إلا أنها فى مجموعها تؤكد نوعاً من الخصائص والسمات بصورة مستفيضة ، بحيث يجوز لنا أن نعتبرها طابعاً مميزاً لهذا التطور . وهكذا نجد أن غير العرب يستبدلون بأصوات عربية معينة ، أخرى أسهل عليهم ، بحيث كان العربى يدرك من ذلك التبديل ما إذا كان الناطق فارسياً أو نبطياً . وقبل كل شىء ، نجد التعارض مع قواعد النحو والتصريف العربى للأسماء والأفعال كثير الذكر فى الأخبار ، دليلا على أن ترك التصرف الإعرابى كان من أول السمات على الخطأ فى طريقة التعبير . هذا ، ولم تكن هناك لغة واحدة بين اللغات التى التقت بها العربية فى عهد الفتح ، كانت محتفظة بنظام تصريفها ؛ ولهذا كان من الشاق العسير على الأجانب الذين اضطروا إذ ذاك إلى استخدام العربية ، أن يتابعوا القواعد والنظم المعقدة للنحو العربى القديم ؛ فآثروا التصرف بوساطة أساليب التعبير التقريبية ، التى اعتادوها فى لغاتهم الأصلية ، وحذفوا حركات الإعراب الأخيرة . ومن المعلوم أن الروايات العربية تقرن أوائل النحو العربى

(١) الجاحظ : بيان ج ١ ص ٦٨ ؛ ابن قتيبة : عيون ج ٢ ص ١٦٠ .

بأبى الأسود الدؤلى (المتوفى ٦٨٩/٦٩) ، الذى يقال إنه وضع أسس هـذا العلم ، إما بدافع من نفسه ؛ أو بأمر من الوالى الأموىّ زياد بن أبيه ؛ أو بإرشاد من الخليفة علىّ نفسه ، لحفظ لغـة القرآن من الفساد ، على ألسنة الداخلين الحديثين فى الإسلام[١] . وعلى الرغم من أن هذه الروايات المتفرقة المتضاربة غير تاريخية بالمعنى الصحيح ، فإنها تحتوى على إدراك عميق لأن اتخاذ المسلمين الجدد لغة العرب لسانًا لهم كان هو الدافع الأول للملاحظات النحوية . وإلى أى حـد كانت صعوبات التصريف الإعرابى هى الموجِّهة لقواعد النحو الناشئة ؟ هذا ماتدل عليه الاصطلاحات التى ترتب الظواهر اللغوية ترتيبًا سطحيًا بحتًا بالنظر إلى حركات أواخر الكلمات ، بقطع النظر عن اختلاف تأثيرها النحوى فهاهو ذا الخليل بن أحمد (المتوفى ١٦٠ ، أو ١٧٠ هـ) ، أقدم علماء النحو ، الذى أنقذت مصادفة سعيدة[٢] اصطلاحاته ، يستعمل الرفع فى الاسم المضموم المنوّن ، وكذلك الخفض فى الاسم المجرور المنوّن ، والنصب فى الاسم المفتوح المنوّن ؛ على حين يسمى بقية الحركات العارية من التنوين فى الأحوال والصيغ المختلفة بأسماء الحركات العامة ، أى الضم والـكسر والفتح ، كما أنه يسمى بالجر حركة الـكسر التى تربط بين آخر الصيغة الفعلية وبين همزة الوصل[٣] . ولا يوجد عنده ما يدل على تأثير النظرية القائلة بأن اختلاف حركات الـكلمات المتصرفة متوقف على العـامل النحوى ، إلا فى التفرقة التى جعلها بين التوقيف ، أى عدم الحركة فى أواخر الحروف وما شاكلها ، والجزم ، أى سكون الفعل المجزوم . وعند تلميذه سيبويه نجد التقسيم الثنائى إلى متمكن وغير متمكن ضمن الاصطلاحات التى ساقها . وهو يتوسع فى إطلاق الرفع والجر والنصب على

(١) الجمحى : طبقات ص ٥ ؛ ياقوت : إرشاد ج ٤ ص ٢٨٠ ، ابن الأنبارى : نزهة ص ٣ — ١٣ ، ابن الأثير : المثل السائر (١٢٨٢ هـ) ص ٧ . وقد ساق ابن قتيبة فى عيون الأخبار كلمة منسوبة لأبى الأسود فى اللحن .

(٢) الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص ٣٠ وما بعدها .

(٣) عبارة مفاتيح العلوم (عن الخليل) : والجر ما وقع فى أعجاز الأفعال المجزومة عند استقبال ألف الوصل نحو لم يذهب الرجل اهـ .

حركات أواخر الكلمات غير المتصرفة [١] . ولكن لا تفرقة عنده ولا عند البصريين المتأخرين [٢] بين الاسم والفعل المرفوعين ، والمنصوبين ، فى تسمية الحركة ؛ والفعل الحالى يسمى المضارع ، أى المشابه للاسم فى تصرفه ؛ ولا توجد عنده اصطلاحات خاصة لأحوال الاسم ، وتغيرات الفعل ، بَلْهَ تصرف الاسم والفعل بوجه عام . وإذاً فالإعراب ، أى التعريب أو الاستعراب اللغوى ، بمعنى النطق على طريقة العرب الخلّص ، يتجلى فى الدقة التامة فى مراعاة دقائق التصرف الإعرابى .

هذا ، واتخاذ العبيد والجوارى لإدارة المنازل فى العهد الإسلامى المبكر ، يجد ما يشبهه فى الدور الذى لعبه الرقيق من الزنوج [٣] بوجه خاص فى الجاهلية . فالمَثَل الذى نجده فى شاعر المعلقات « عنترة » وغيره من أغربة العرب [٤] ، أى المنتمين إلى آباء من العرب وأمهات من زنوج أفريقية ، يدل على أن الزنوج سرعان ما يصبغون ألسنتهم بلغة ساداتهم . ولا بد من أن يكون اختلاف الألسنة فى المدن التجارية ، لكثرة سكانها الأخلاط ، كما فى مكة مثلا ، أقوى من ذلك كثيراً . وتحتوى آية ١٠٣ من سورة النحل ، فى الطور المكى الثالث ، على إشارة عابرة إلى اللغة الأجنبية : « لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ » أى الرجل الذى توهمه أعداء محمد معلماً له . ومن أول حوارِيّ الرسول يُعَدُّ بلال الحبشى ، أول مؤذن فى الإسلام . وهناك صحابى قديم آخر من صحابة الرسول : صُهَيب بن سنان ، وهو وإن كان عربى الأصل إلا أنه اختطفه البيزنطيون فى طفولته فربوه ، ولذلك كان ينطق العربية بلكنة بيزنطية [٥] . كما يروى عن معاصر ثالث للرسول : سُحَيم

(١) سيبويه س ٢ وما بعدها .

(٢) انظر أيضا مفاتيح العلوم س ٢٩ .

(٣) انظر فى هذا الموضوع : B. Moritz : Arabien 44

(٤) نقائض جرير والفرزدق س ٣٧٢ .

(٥) ابن حجر : إصابة (١٣٢٨ ﻫ) ج ٢ س ١٩٥ . ورواية الجاحظ (بيان ج ١ ص ٣٢) أن صهيباً كان يقول : إنك لهائن ، يريد إنك لخائن ، تشير فقط إلى أن العرب قد لفت نظرهم فى اللهجة الرومية إبدال الخاء هاء .

المشهور بعبد بنى الحَسْحاس ، الشاعر المشهور ، أنه كان يرتطن لـكنة أجنبية ، ولـكن نظراً إلى أنه صار فى عهد مبكر بطل رواية غرامية ، لم تعد التفاصيل التى تخبر عن لـكنته النوبية أو الحبشية جديرة بالثقة (١) . وعلى الرغم من ذلك فقد كان عدد أمثال هؤلاء الأجانب من القلة بحيث لم يكن لهم تأثير فى طابع العربية . ولـكن الأمر بالنسبة إلى أسرى الحروب فى العهد الأول للفتوحات الإسلامية كان على صورة أخرى . فقد كان عدد هؤلاء وفيرا ، وأخذ فى الازدياد ، إذ كانوا يتمتعون بحقوق النسب والمصاهرة ، وكان لهم أن يشتروا أنفسهم ، ويحرروا رقابهم ، كما كان يعد قربة إلى الله تحريرهم بالإعتاق . وقد تألفت من هؤلاء العَتْق أو الموالى ، بعد أجيال قليلة ، الطبقات الدنيا والوسطى من المجتمع الإسلامى ، وامتلـكت العناصر الطامحة من هذه الطبقات زمام اللغة التى تنطقها الطبقة العربية العليا ، على حين بقى السواد الأعظم عند أسـلوب لغوى دارج ، ظهرت فيه ، بوساطة ترك التصرف الإعرابى قبل كل شىء ، سمات من التطور إلى العربية المولدة . ومن هذه اللغة الدارجة فى القرن الأول ، التى أخذت — كما يبدو — بعض الخصائص المحلية فى المدن المختلفة ، نشأت اللهجات المتأخرة فى المدن الإسلامية .

استمرت ممارسة العربية للغات العالم المحيط بها بضعة قرون ، خرجت منها تدريجا بمحصولها الحالى . ففى بادئ الأمر ، قدمت العربية لأقاليم دولة الخلافة مجرد خيوط واهية فى شبكة تتألف خيوطها الأساسية من التعبيرات المتعارفة لدى السكان الأصليين . وقد كانت قوة تلك الخيوط العربية موقوفة على قوة الجيوش العربية ، والإمدادات اللاحقة بها ؛ كما كانت تتناقص بوجه عام كلما ازداد البعد عن الوطن

(١) الجاحظ (بيان ج ١ ص ٣٢) يروى مثلا لذلك قوله : سعرت ، بدلا من شعرت . أغانى ج ٢٠ س ٢ ، روى عنه : أهسنت بدلا من أحسنت . وعلى النقيض من ذلك روى عنه ابن قتيبة (الشعر والشعراء س ٢٤١ وابن جنى فى سر الصناعة كما فى خزانة الأدب ج ٢ ص ٢٥٧) أحسنك ، بدلا من أحسنت ، أى أنه يصوغ الضمير المتصل للمفرد المتكلم على مثال اللغة الحبشية . انظر فى هذا : Nöldeke, BSSW 21, Anm 2.

القديم . وقد هاجرت مع قبائل البدو ، الذين فتحت لهم غزوات الفتح مراعى جديدة لم تكن سعتها وعظمتها فى حسبان ، لهجاتهم ولحونهم حتى حدود الدولة . وإزاء هذا تمسك السكان الأصليون فى أول الأمر بلهجاتهم البالية . فقد كان الفلاحون ، الذين يسميهم الكتاب المسلمون بالأنباط[1] ، والذين كانوا يؤلفون فى المنطقة اللغوية الآرامية جمهور السكان الزراع ، ينطقون اللهجات الآرامية . وأمثال هؤلاء النبط كانوا يوجدون فى سورية ، على الرغم من أن هذا الإقليم كان قد شهد هجرة عربية قوية قبل الإسلام ؛ وفيما بين النهرين ، وفى الأرض الزراعية الخصيبة من سواد العراق . وكذلك فى المدن لم تتغير العلاقات اللغوية إلا بمقدار الزيادة التى أضافتها العربية الجديدة إلى ما فيها من تعدد الألسنة . وفى أى صورة من البطء أخذت العلاقات تتغير؟ يدل على ذلك الحقيقة الثابتة ، من أن اللغة اليونانية فى غربى الدولة ، والفارسية فى شرقيها ، ظلتا قرنا كاملاً لسان الحكم والإدارة ، وحتى فى المدن الناشئة فى مواضع المعسكرات العربية ، كالبصرة والكوفة ، كان سيل العناصر الإيرانية من القوة بحيث كانت اللغة الفارسية تحتل مكان التصدر فى القرن الأول . ففى البصرة كانت أسماء الأمكنة المنسوبة إلى الأشخاص تختتم عادة بمقطع : — آن[2] ؛ وهكذا كانت تسمى القطائع الكثيرة بأسماء أصحابها ، مثل : مهلبان ، أُمَيَّتان (نسبة إلى أبى أمية) ، جعفران (نسبة إلى أم جعفر) ، عبد الرحمانان ، عُبَيْدَ اللّان ويوجد بين أسماء القنوات الهامة بالبصرة صيغ ، مثل : خالدان ، طلحتان ؛ وأشهر الأمثلة من هذا النوع اسم : رباط عبّادان[3] . وفى الفرق العسكرية الساسانية التى انضمت إلى العرب ، بقيت الفارسية لغة الخدمة فى الجيش ، على حين كان

---

(١) Nöldeke, 25,124 ff.

(٢) Grundriss der iranisehen Philologie I 2,176, Nöldeke L A 12,183

(٣) أخذت هذه الأمثلة من الباب الخاص بتقسيم البصرة فى كتاب البلاذرى ص ٣٤٦ ، ٣٧٢ وفيه كثير غير ذلك . ومن هنا أيضاً أخذ ياقوت القائمة التى ذكرها فى معجم البلدان ج ١ ص ٦٤٥ ولا يمنع هذا من وجود تسميات عربية محضة مثل : المسمارية (بلاذرى ص ٣٦٤) .

بعضهم ، ولا سيما الزُّط ، والسَّيابجة ، والأَنْدغار ، يحملون أسماء قبائلهم الهندية ، التى انتظموا منها فى الجندية[١] . وكان الفارس منهم يحمل اللقب الفارسى لمرتبته ، وهو : أُسوار[٢] ، الذى جمعه العرب على أساورة ، ونسبوا إليـه : أُسوارى . وفى هذه الأوساط نشأ عبيد الله بن زياد (حوالى ٣٠ ـ ٦٧ هـ) الذى صار فيما بعد واليًا على العراق[٣] ، إذ كانت أمه مرجانة (مرجريت[٤]) — ويدل الاسم على أن أصلها غير عربى — قد تزوجت الفارس شيرويه[٥] : Shëroë ، وسمح لها أبوه ، زياد بن أبيه ، أن تحتفظ بطفلها معها ، ونشأ من ذلك أن عبيد الله كان ينطق عربية غير فصيحة[٦] ، فيقال إنه كان ينطق الهاء بدلا من الحاء ، والكاف بدلا من القاف — كما روى عن مولى لأبيه أيضاً ، وهو : « فِيل » الغنى ، أنه كان ينطق الهاء بدل الحاء ، والهمز بدل العين[٧] — وأنه (عبيد الله) قال عن الأرض : است الأرض ، وأمر الجنود يوماً فقال لهم : افتحوا (أى سُلُّوا) سيوفكم ؛ مما دعا ابن مفرغ الشاعر أن يسخر منه بقوله :

---

(١) البلاذرى ص ٣٧٥ وانظر أيضاً : G. Ferrand EI (Enzykl. des Jslam) IV, 214 & 1326

(٢) فى البهلوية : asvâr وفى الفارسية الحديثة سفار وفى القواميس : أسفار . انظر : P.Horn Grundriss der neupersischen Etymologie 165 Nr 749

(٣) انظر : Zetterstéen EI IV 1066

(٤) يرجع لفظ مرجان بوساطة اللغة الآرامية (مرجانيتا) إلى اللغة اليونانية . انظر : Sachau على المعرب للجواليقى ص ٦٥ .

(٥) Sheroë شيرويه بالعربية أحد الأسماء الكثيرة التى عالجها بالتفصيل Nöldeke فى : Persische Studien I (SWA 16, 1) 4 ff. . ومما يدل على معرفة العرب بأن لفظ : شير معناه الأسد ، قول ابن مناذر فى رجل اسمه شيرويه : وسمى الليوث فى الفارسية . (أغانى ج ١٧ ص ٢٧) . وكان القصر الذى بناه شيرويه المذكور لمرجانة ، يسمى بالفارسية : هزاردار أى ذو الألف باب (بلاذرى ٣٥٩) .

(٦) الجاحظ : بيان ج ١ ص ٣٢ ، وج ٢ ص ٢ ؛ ابن قتيبة : معارف (طبع ١٣٠٠ هـ) ص ١١٨ ؛ المبرد : كامل ص ٣٦٦ .

(٧) الجاحظ : بيان ج ١ ص ٣٣ ؛ ابن قتيبة : عيون ج ٢ ص ١٥٩ .

ويوم فتحتَ سيفَكَ من بعيد أضعتَ وكل أمرك للضياع[١]

ويروى أن معاوية أوصى زياداً ، الذى كان خطيباً مفوّهاً[٢] ، أن يصالح من لسان ابنه ؛ وإن كان روى أيضاً أنه عندما ذكر لمعاوية لحن عبيد الله (مع أنه ظريف) ، أجاب بأنه يجد لحنه (على التورية) أظرف[٣] :

وحياة ابن مفرغ[٤] الآنف الذكر تقدم دليلا آخر على الدور الذى لعبته اللغة الفارسية بالبصرة . ذلك الرجل الذى عدّ نفسه — دون حق — من الحميريين ، والذى نسبت إليه تبعة أسطورة « تُبّع[٥] » ، صحب سنة ٥٦ هـ[٦] عبّاد بن زياد إلى خراسان ، ولـكنه وقع معه فى خصومة ، فأخذ يحقر أسرة زياد منذ ذلك الوقت فى أبشع صورة ، وكانت البصرة جمعاء تتغنى بهجائه . وبعد عناء طويل استطاع عبيد الله بن زياد أن يضع عليه يده . وكما تجمع الروايات[٧] ، أمر هذا بجر ذلك الأثيم عقاباً له فى ثياب مهلهلة ، مشدوداً إلى هرّة وخنزيرة فى قرَن ، ليسير فى طرق المدينة (البصرة) على هذا النحو . وقد ذُكر أيضاً أنه كان من الضرورى أن صبيان الأزقة تجمعوا خلفه ، ساخرين من حالتـه المزرية ، وهم يسألونه بالفارسـية :

---

(١) الجاحظ : بيان ج ٢ ص ٢ ؛ ابن قتيبة : ج ١ ص ١٦٥ ويرى صاحب الأغانى أن الشعر قيل فى أخيه عباد بن زياد وفى أبيها .

(٢) كانت لخطبته التى افتتح بها ولايته على البصرة شهرة واسعة ، انظر : Wellhausen : Das arab. Reich S. FF . وقد ذكر الرواة بعد ذلك اسمه مقترناً بأوائل النحو العربى ، (ابن الأنبارى : نزهة ص ١٢ ؛ ياقوت : إرشاد ج ٤ ص ٢٨٠) ، كما رويت أخبار جمة عن دقة إحساسه فى الأمور اللغوية (الجاحظ : بيان ج ٢ ص ٥ و ج ١ ص ٢٦ ؛ ابن قتيبة : عيون ج ٢ ص ١٥٩ ؛ القلقشندى ج ١ ص ١٦٩ ؛ الجهشيارى : الوزراء (BAHGI) ص ٢٢ ، وإن كانت مثل هذه الأخبار مروية أيضاً عن الحسن البصرى .

(٣) القالى : أمالى ج ١ ص ٥ ؛ ابن دريد : ملاحن ص ٦ ؛ ابن الأنبارى : الأضداد (القاهرة ١٣٢٥) ص ٢٠٨ ؛ عبد القادر : خزانة ج ٣ ص ١٤ الخ .

(٤) انظر : A. Ebermann : Die Perser unter den arabischen Dichtern der Umaiyadeuzeit OLF 30, 1149

(٥) أغانى ج ١٧ ص ٥٢ .

(٦) Zambaur, Manuel de généalogie 4 F

(٧) أغانى ج ١٧ ص ٥٦ ؛ ابن قتيبة الشعر والشعراء ص ٢١٠ ؛ الطبرى : تاريخ ج ٢ ص ١٩٢

إين جيست : ما هذا ؟ وأنه أجابهم بالفارسية أيضاً : آبْ أسْت ، نبيذ أست ، عُصَارةِ زبيب أَست ، سُمَيَّةُ رُوسْبي[١] أَست ؛ أى هذا ماء ، ونبيذ ، وعصارة زبيب ، وسمية البَغِيِّ (يعنى بها الخنزيرة) .

وكما يشهد البلاذرى[٢] ، كانت توجد فى البصرة جالية أصبهانية يرجع أولها إلى صدر العصر الإسلامى . وزيادة على هذا جمع عبيد الله بن زياد سنة ٥٤ ﻫ فرقة من الرماة مكونة من ألفى رجل من بخارى ، وجعل البصرة مقراً لهم[٣] .

ولم يختلف عن ذلك كثيراً أمر العلاقات اللغوية بالكوفة . فقد قامت هذه المدينة فى منطقة كانت تتلاقى فيها اللغات الآرامية ، والفارسية ، والعربية من قديم . كما أن الحيرة الواقعة على مقربة منها ، والتى كانت بها — فى نظر العرب — سُدَّة إمارة اللخميين ، كانت قبل الإسلام مصدر انتشار مسيحية الآراميين ، وثقافة الساسانيين ، بين قبائل البدو فى السهول السورية العربية المجاورة . وقد أخذت الكوفة المؤسسة حديثاً سُنَّة الحيرة ، فسارت على منوالها القديم ، وازدهرت وشيكا ، على حين تراجعت الحيرة إلى الوراء . وكما كان للبصرة أساورتها ، فقد كانت فى الكوفة بقايا الجيوش الساسانية التى انضمت إلى العرب ، وأخذت تجاهد تحت راية الرسول (صلى الله عليه وسلم) . وبناء على خبر[٤] للمؤرخ الكوفى « مسعر بن كدام[٥] » عقد أربعة آلاف فارس من جند شاهنشاه الذين قاتلوا تحت قيادة رستم فى القادسية ، أماناً مع سعد بن أبى وقاص ، يخوّلهم حق النزول حيث أحبوا ، ومحالفة من أحبوا من العرب ، ويفرض لهم فى العطاء . وقد اختاروا الكوفة

(١) روسبي : رويت فى الخزانة ، على حين يذكر فى الروايات الأخرى : روسفيد (بيضاء الوجه) انظر فى هذا : Nöldeke : Das iranische Nationalepos S. 91 Anm. 2

(٢) ص ٣٦٦ .

(٣) ساق أدلة على تكوين هذه الفرقة : De goeje BGA V, XVI · وانظر ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٥٢٢ ، وابن قتيبة : عيون ج ١ ص ١٣٢ .

(٤) بلاذرى ص ٢٨٠ .

(٥) توفى ١٥٢ ﻫ انظر ابن قتيبة : معارف (طبع ١٣٠٠ ﻫ) ص ١٦٥ .

مقرأهم ، وسموا[١] ، باسم نقيبهم « ديلم » : حمراء ديلم . أما فى سورية ، حيث ساق زياد جماعة منهم بأمر معاوية ، فكانوا يسمون الفرس فقط ، كما أن زياداً نقل آخرين منهم إلى البصرة ، ونظمهم فى صفوف الأساورة .

وكما حصل فى البصرة ، كان يرد على الكوفة أيضاً سيل من التجار والصناع وغيرهم ، سرعان ما كوّنوا مع أسارى الحرب ، الكثيرى العدد ، ذوى الأصل الفارسى ، أغلبية السكان ، فصارت لغة التفاهم السائدة هى الفارسية . وقد كشف الجاحظ النقاب عن مدى تأثير هذه اللغة فى الجيوش العربية ، بما أورده من ألفاظ معرّبة فى لهجة الكوفة[٢] . فهو يذكر أن الكوفيين يقولون : خيار ، بدلا من قِثّاء ، باذروج ، بدلا من الحوك (البقلة الحمقاء ، الرجلة) ، وِيذِى[٣] ، بدلا من مجذوم . وإذا كانت كل سوق بالكوفة تسمى : وازار ، فإن هذا النطق المطابق للفارسية القديمة (على عكس : بازار فى الفارسية الحديثة) يدل على التاريخ البعيد القدم لاستعمال الألفاظ الفارسية . وفى الكوفة أيضاً يعبّر عن المِسْحاة بلفظ : بالْ . وهى فى الفارسية الحديثة : بِلْ[٤] . وكان الناس فى الكوفة يفهمون من كلمة : جِهَارْسُوك — وهى بالفارسية الحديثة : جَهارْسُو — سوقاً على مقطع طريقين (وتسمى فى البصرة : مُرَبَّعَة) .

---

(١) كانت هذه التسمية سبباً فى الالتباس ببلاد الديلم ، فقد ذكر بعضهم (البلاذرى ص ٢٨٠) أن أساورة الكوفة كانوا يرابطون على حدود الديلم ، وبعد الاستيلاء على قزوين (أى فى سنة ٢٤ هـ) انضموا إلى صفوف المسلمين كما انضم إليهم أساورة البصرة فى مثل هذه الأحوال . أما المدائنى فيرى (البلاذرى أيضاً فى الموضع المذكور) أن جيش رستم الذى انضم إلى سعد بن أبى وقاص ودخل فى الإسلام فى حروب المدائن بعد ما استولى على جلولاء ، واستوطن الكوفة ، كان مكوناً من أعقاب أربعة آلاف أسير استرقهم برويز فى حروبه مع الديلم . ونقل البلاذرى عن أحد العلماء أن معنى الحمراء هو « العجم » .

(٢) البيان ج ١ ص ١٠ ، وانظر أيضاً ياقوت فى معجم البلدان ج٣ ص ٣٣٨ .

(٣) فى القواميس الفارسية : فيدى .

(٤) يرى Horn فى : Grundriss der neupersischen Philologie أن بِل bel نشأ من : بال bal الموجود فى بعض اللهجات ، بطريق الإمالة ، على حين يذكر فى : Grundriss der iranischen Philologie أن كلا اللفظين مثال للتبادل بين à ، é فى الفارسية الحديثة . وقد فسر لفظ : معبدة فى شرح أشعار الهذليين ص ١٢٥ بلفظ : بال .

ولم يقتصر نفوذ اللغة الفارسية على العراق ، حيث برز بطبيعة الحال فى أقوى مظهر ؛ ولكنه كان لافتاً للأنظار أيضا فى الوطن العربى القديم . فقد كانت تسير منذ قديم قوافل التجارة الفارسية بين مدن الثغور فى الجزيرة العربية ، كما جاء فى غزوات الفتح عدد كبير من أسرى الحرب الإيرانيين إلى الحجاز بوجه خاص. والجاحظ أيضاً هو الذى لاحظ [١] التأثير اللغوى للجالية الفارسية القديمة فى المدينة وما حولها من البلدان العربية . وطبقا لما ذكره كان المدنيون يستعملون كلمة : خَرْبُوز الفارسية (المعربة إلى خِربِز) بدلا من : بطيخ ، ورُوذَق ، بمعنى منتوف الوبرة ، بدلاً من سَمِيط ، و : أَشْتَرَنْج ، بدلا من : شَطْرَنْج ، و: مَمْزُوز ، بدلا من : ممصوص ؛ أى هزيل . والأول من هذه الأمثلة اصطلاح تجارى ، على حين يتصل الثانى بالمطبخ ؛ إذ يقول صاحب برهان قاطع [٢] : إن رود أو رُوده كاللفظ العربى : سميط [٣] ، كلها بمعنى حيوان (حمل أو طائر) ينتف وبره أو ريشه قبل قليه ، وبعد أن يسلق فى ماء حار لهذا الغرض . واللفظ الثالث : أَشْتَرَنْج (دون شكل عند الجاحظ) ، يدل على أنهم فى المدينة لم يعبّروا عن اللعب المعروف بكلمة : شَطْرَنْج [٤] المعربة عن شترنج الفارسية — رجعت الصيغة العربية : شَطْرَنْج ، إلى فارسية الكتابة الحديثة ، وغلبت تقريبا على كلمة : شَتْرَنْج الفارسية — بل تمسك المدنيون فى هذا المعنى بالنطق السائد عند الدوائر الفارسية بالمدينة : أَشْـتَرَنْج . أما أنهم اتخذوا طريقة التعبير الفارسى هنا وهناك ، حتى فى الألفاظ العربية الفصيحة ، فهذا مايتضح من المثال الرابع : ممزوز ، بدلا من ممصوص ، حيث يستعاض عن الصاد الصعبة النطق على اللسان الفارسى ، بالزاى [٥] مع قليل من الإدغام فى الميم . وأخبار الجاحظ هذه عن

(١) بيان ج ١ ص ١٠ .

(٢) انظر فى مادة : رود : Vullers Lexicon Persico - Latinum وفصل : رودان بمعنى : نتف ، لم يزل باقياً فى الفارسية — اليهودية ، انظر : Horn, Grundriss S. 258 Nr. 628

(٣) انظر : سميط فى قاموس Lane .

(٤) يضبطه المترمتون فى اللغة : شطرنج على وزن فعلل ؛ انظر الحريرى : درة الغواص ١٣١ .

(٥) انظر : H. Schuchardt - Brevier S. 57. F .

العناصر الفارسية فى اللهجة العربية للمدينة ، تنطبق على القرن الأول للهجرة ، إذ أنه فى ذلك الوقت وردت كلمة : روذق ، الآنفة — وإن لم يكن فى المدينة — فى البيت التالى لجرير (المتوفى سنة ١١٠ هـ) وهو فى نقائض جرير والفرزدق ص ٨٤٥ س ١٠ :

لاخير فى غضب الفرزدق بعد ما سلخوا مجانك سلخ جلد الرَّوذَقِ[١]

ويصدق هذا أيضا على الشطرنج واصطلاحاته الفارسية على طول الخط ، فقد صاغ العرب مفرداً لكلمة : بياذق ، التى أخذوها على أنها جمع حسب شعورهم ، فقالوا : بيذق ، تماما على نمطهم فى صوغ مفرد : فردوس ، لفراديس الذى حسبوه جمعاً . وقد استعمل الفرزدق كلمة بيذق فى معناها ، وكان يعرف قاعدة اللعب ، من أن البيذق يتقدم إلى الرقعة الأخيرة فيتحول إلى وزير : نقائض جرير والفرزدق صفحة ٧٨٧ سطر ٦ :

ونحن إذا عدت تميم قديمها مكان النواصى من وجوه السوابق
منعتك ميراث الملوك وتاجهم وأنت لدرعى بيذق فى البياذق[٢]

وكذلك استعمل جرير نفس اللفظ للدلالة على شىء تافه القيمة ، وذلك فى بيت يرمى فيه جِعْثِن ، أخت الفرزدق — مع الإشارة إلى مهر المثل — بأنها لم تأخذ مهراً معينا فى عقد النكاح : نقائض ص ٨٤٥ س ١٥ :

سبعون والوصفاء مهر بناتنا إذ مهر جِعْثِنَ مثل حُرّ البيذقِ

كما أن استعمال كلمة : بيدق ، أيضاً ، بمعنى رجل قصير القامة[٣] ، يرجع إلى

---

(١) فسر لفظ : روذق فى الشرح مرة بالحمل ثم بالجلد المسلوخ . ولما كان المعنى الثانى غير ظاهر من السياق رجح Bevan الأول ، وصواب التفسير هو : حمل منتوف الوبرة بعد سلقه. وانظر أمثلة أخرى للألفاظ والجمل الفارسية ذكرها Bevan فى النقائض : Glossar S. 612

(٢) انظر : Gildemeister, L D M 628 (1844) 693

(٣) أغانى ج ١٢ س ٢٠ وعبارته ... قال حدثنى محمد الراوية المعروف بالبيدق (بالدال لا بالذال) وكان قصيراً فلقب بالبيدق لقصره وكان ينشد هارون أشعار المحدثين وكان أحسن خلق الله إنساناً اهـ بقى أن يعرف هل هو البيدق الذى زار يزيد بن عبد الملك ؟ ربما كان غيره وإلا فإن هذا عاش فى القرن الثانى . وقد سمى بالبيدق أيضاً أبو بكر بن على الصنهاجى الذى ذكر حديثه عن أستاذه المهدى فى : Lévy-Provençal, Documents inédits d'histoire =

القرن الأول ؛ فقد كان هذا اللفظ يطلق لقبا على مغنٍّ وقارىء مدني، زار[1] فى أواخر حياته الخليفة يزيد بن عبد الملك (حكم ١٠١ — ١٠٥ هـ). وهذا الكشف — عن قدم استعمال لفظ: شطرنج ومتعلقاته حتى القرن الأول — يتفق تماماً — كما يلاحظ بهذه المناسبة — مع قول الفقهاء الإسلاميين إن مسألة تحليل لعب الشطرنج فى الشريعة كانت موضع البحث لأول مرة فى عهد الطبقة الثانية، بعد محمد [صلى الله عليه وسلم]، أى طبقة التابعين. نعم هناك عدد من الأحاديث المروية عن الرسول فى تحريم[2] اللعب (المذكور)، ولكن النقاد المسلمين تبينوا عدم صحتها، ولم يؤخذ واحد منها ضمن المجاميع[3] المعتمدة.

وفى مصر، كانت القبطية هى اللغة التى اصطدمت بها العربية. وقد بقيت لغة الفاتحين هنا أيضاً كما فى العراق — مقصورة بادىء ذى بدء على المعسكرات كالفسطاط قبل كل شىء، وعلى المناطق التى اختارتها القبائل العربية، لتكون مراعى لسوامهم. وكان للحقيقة الثابتة، من أن أغلب المهاجرين العرب قد تجمعوا من قبائل يمنية الأصل، أثر حاسم فى التطور اللغوى بهذا الإقليم. وقد بقيت اللغة اليونانية بادىء الرأى هى اللغة الرسمية. ولم تدخل العربية فى دوائر الإدارة إلا فى سنة ٨٧ هـ. بيد أنها لم تستو على سوقها إلا فى أوائل القرن الثانى. وقد ظل الجمهور الأعظم من السكان متمسكا بالقبطية، كما أن النسبة المئوية للأقباط في المدن كانت جِدَّ كبيرة. ولكن بينما أثرت الفارسية فى عربية العراق تأثيراً بعيد المدى، وكثرت فى اللغة العربية الفصحى الألفاظ الفارسية المعربة بصورة ملحوظة،

= Almohade p. 50 - 133 كما ذكر ياقوت أيضاً فى معجم البلدان مكاناً اسمه: «شاهيدق» فى بيت من الشعر لعبد الله بن أبى عوف الخزاعى (معجم البلدان ج ٣ ص ٣٤٤).

(١) أغانى ج ١٣ ص ١٦٣.

(٢) انظر ابن قتيبة عيون ج ١ ص ٣٢٣.

(٣) انظر المتقى: كنز العمال ج ٧ ص ٣٣٢ ؛ ابن حجر: إصابة (القاهرة ١٣٤٧) ج ١ ص ٣٨٩ ؛ لسان الميزان ج ٢ ص ١٦٦ ؛ ابن الديبع: تمييز الطيب (القاهرة ١٣٤٧) ص ١٦٨. وانظر النووى فى ابن الديبع فى الموضع السابق.

كان أثر القبطية في اللهجة العربية جد ضئيل[١] . وقد أراد بعض العلماء أن يعزو أسباب ذلك إلى الطابع القبطي القومي[٢] ؛ ولكن بقي علينا أن ننظر فيما إذا كان تعذّر كشف أثر اللغة القبطية في عربية التفاهم في أثناء القرنين الأولين راجعاً إلى طبيعة مصادرنا . فلو أن مصر مُنيت بكاتب مثل الجاحظ الذي أولع بتصوير مستوى الطبقات الدنيا والوسطى بين سكان المدن في القرن الثاني ، ربما كان أفادنا أن العلاقات اللغوية في الفسطاط القديمة لم تختلف كثيراً عنها في البصرة والكوفة . حقاً لقد تم تعريب مصر (احتلال العرب لها) بصورة أسرع وأعمق من العراق ؛ ففي القرن الثاني كانت قبائل عرب الشمال قد هاجرت إليها وفق نظام مرسوم ، كما يبدو أن تكاثر الدخول في الإسلام قد ازداد بقوة في نفس الوقت ، بعد أن كان لا يتقدم في القرن الأول إلا في حدود معتدلة ، بحيث رجحت كفة العربية في القرن الثالث ، على حين تراجعت القبطية إلى سهول الريف حتى تلاشت[٣] تماماً في القرن السادس .

والهوّة الواسعة التي كانت تفصل بين الطبقة العربية الحاكمة ، وبين الجماهير الغفيرة من رعاياها حتى سقوط الدولة العربية سنة ١٣٢/٧٥٠ ، لم يكن أبعد أثراً في اقتحامها والتغلب عليها من التسري واقتناء السادة العرب للسراري والجواري ، فإن النظرية التي ترجع إلى عهد الوثنية العربية ، والتي تبيح لمالك الأمة أن يعاشرها معاشرة الأزواج ، قد احتفظ بها الإسلام ، فصار سنة متبعة ، أن يجد الأسارى من النساء مدخلاً إلى حرم ساداتهن ، وهكذا سرعان ما نشأ ، حتى في بيوت السادة العظام من العرب ، جيل بين أمهاته كثيرات من غير العربيات . وكان لابد أن يترك ذلك أثرا بعيد المدى في العلاقات اللغوية ، فإذا كانت الأجنبيات اعتدن الدخول إلى

(١) انظر : K Vollers, ZDMG50 - 653-6 Littmann ebd, 56, 681 - 4, Spiegelberg Zf Sem. 4, 61 f, El II 1046 f.

(٢) Vollers a, a, O,

(٣) انظر : G, Wiet, El, Qibt, J. Simon, ZDMG, 90, 44, f

حرم الدوائر العليا ، وإذا كانت هذه الدوائر العليا تعتمد على غير العرب أيضا فى خدمتها ورعاية شئونها الدنيا ، فلا جرم أن تأخذ الشبيبة الناشئة — تحت تأثير هذه العلاقات — شتى الظواهر اللغوية من لغة التفاهم الدارجة التى كانت غريبة عن العربية . ولقد كان النسل الناتج من غير الحرائر موسوما فى نظر المجتمع بميسم عدم الكفاءة فى المولد ، ولكن القانون الإسلامى يعدهم أحراراً ، ويسوّى بينهم وبين إخوتهم من الحرائر فى الملك والميراث . أما أن هؤلاء الأبناء ، غير الأكفاء فى المولد ، قد سموا إلى مراتب رفيعة ، على الرغم من تأخر رتبتهم بحسب المولد ، لمناقبهم الشخصية ، أو لمواتاة الفرص والأسباب ، فهذا ما يؤيده مثال أبناء سُمَيَّة ، فقد كانت أُمُّهُم جارية فارسية[١] أو بيزنطية[٢] الأصل — كما جاء فى الروايات — أهديت إلى سيدها الحارث بن كلدة الطبيب . وعند ما حاصر محمد (صلى الله عليه وسلم) الطائف فى السنة الثامنة للهجرة ، ووعد[٣] كل من ينضم إليه مَن أهلها ، سواء كان حراً أم عبداً ، الحرية ، صمم أحد أبنائها ، وهو أبو بكرة[٤] نُفَيع ، أن ينحاز إلى الرسول ، فصار معدوداً من مواليه منذ ذلك الوقت . أما أخوه نافع[٥] فقد ركن إلى الحارث بن كلدة وبقى عنده ، فأعلن الحارث حريته وبنوته ، كما اعترف أيضا بنسب أَزْدَة[٦] بنت سمية . وأزدة هذه تزوجها عتبة بن غَزْوان مؤسس البصرة . هذا الزواج فتح لإخوتها — كان هناك ثالث لأبى بكرة ونافع ، هو زياد المولود سنة ٨ هـ — طريقا إلى المجتمع الراقى ، فقد تبعوا أختهم إلى البصرة ، وامتلكوا ضياعاً عظيمة ، ولعبوا دوراً هاماً[٧] بعد ذلك بقليل فى المجتمع . وكما هو معلوم ، رقى

(١) ابن قتيبة : معارف ٩٧ ؛ ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٩٥٢ (عن ابن الكلبى) ؛ انظر أيضاً شعر ابن مفرغ (أغانى ج ١٧ ص ٦٥) .

(٢) عوانة (كما ذكره ابن حجر : إصابة ج ٤ ص ٣٤٠) .

(٣) ابن هشام ص ٨٧٤ ؛ واقدى ص ٣٧١ (Wellhausen) ؛ سهيلى : الروض ج ٢ ص ٣٠٤ .

(٤) ابن سعد ج ٧ قسم ١ ص ٨ وما بعدها .

(٥) ابن سعد ج ٧ قسم ١ ص ٤٩ ؛ البلاذرى ص ٣٥٠ ، يحيى بن آدم (طبع ١٣٤٧ هـ) ص ٧٨ .

(٦) ابن قتيبة : معارف ص ٩٧ .

(٧) البلاذرى ص ٣٤٣ Wellhauseu, Das arab. Reich S, 75 f.

زياد أعلى المناصب . وأخيراً اعترف به الخليفة معاوية بن أبي سفيان أخا له من أبيه . ولم يكن معاوية ليقدم على ذلك لو لم تكن أبوة أبي سفيان له — على الأقل — أمراً ظاهراً . أما أن سمية كانت عاهراً ، فهذا أمر قد تقرر — على أقل تقدير — في أبيات ابن مفرغ (١) ، التي كانت تفقد مغزاها لو أن الإخوة الثلاثة نسلوا من نكاح صحيح .

كذلك يحتاط الغموض أصل أسرة أخرى من العهد الأموي : أسرة المهالبة . ويريد أبو عبيدة (٢) الذي كان يتتبع بحرارة جمع كل المثالب عن المجتمع العربي ، أن يعلم أن أبا المهلب كان نساجاً (٣) فارسيا ، وهاجر من جزيرة خارَك Harak في الخليج الفارسي إلى عُمان ، وهناك انتقل من المجوسية إلى الإسلام (٤) ، مغيراً اسمه (٥) إلى أبي صُفْرَة ، وصار سائس خيل عثمان بن أبي العاص الثقفي ، الذي هاجر معه أخيراً إلى البصرة . وليكن باقيا بعدُ بيان مبلغ هذه الأخبار من الصحة ، فحسبنا نحن فيما يتعلق بوجهة نظرنا ، أن دعوى أن المهالبة يجرى في عروقهم دم فارسي قد لقيت تصويباً وتأكيداً في الأبيات التي هجا بها كعب بن الأشقر (٦) يزيد بن

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٢١٣ ؛ أغاني ج ١٧ ص ٦٠ ؛ ابن خلكان : وفيات ج ٣ ص ٣٢٣ ؛ خزانة الأدب ج ٢ ص ٥١٦ ، وانظر : Nöldeke im Jslam 14.132

(٢) ابن رسته (BGA VII 205) ؛ ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣٨٧ .

(٣) يسم العرب النساجين وكل ذوى صناعة يدوية بميسم الضعة (G, Jacob, Altarab, Beduinen leben S, 150 f) ، وافد غالى بعضهم فروى من الأحاديث ما يؤكد ذلك ، ولكنه لم يرو في الجاميع المعتمدة (انظر ابن حجر : لسان الميزان ج ١ ص ٤٤٢ ، ج ٣ ص ١٤٤ ، ج ٤ ص ١٣١ ، ص ٣٤٩) .

(٤) سماه أبو عبيدة : بسخرة بن بهبوذان . وكلا الاسمين موجودان في شعر كعب بن الأشقر كما ذكره ياقوت في معجم البلدان ج ٢ ص ٣٨٧ على حين يذكر في الأغاني (ج ١٣ ص ٦٤) في نفس البيت : مرداذاه وفسخراه . ويذكر التعليق في الصحيفة المذكورة أن هذين الاسمين لأبي أبي صفرة وجده . انظر أيضاً : Marquart, Festschrift, E, Sachau .

(٥) مثل هذا التغيير تجده في : Goldziher, Muh Studien I, 133Anm 2 وفي الخطيب : تاريخ بغداد ج ٨ ص ٤٨٢ .

(٦) أغاني ج ١٣ ص ٦٤ (أربعة أبيات) ؛ ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣٨٧ (البيتان الثاني والثالث) مع تغيير كثير . ويوجد البيت الأول أيضاً في ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٩٣٣ مع تغيير كثير أيضا ، وفي البلاذري ص ٤٢٦ .

المهلب . ولا تستطيع تغطية ذلك شجرةُ[١] النسب الفاخرة ، التى عُنيت الأسرة بتأليفها بعد ذلك .

وفى المدينة برز أبناء الإماء فى النصف الثانى من القرن الأول . فقد كان علىّ زين العابدين (٣٦ — ٩٤ هـ) من حفدة علىّ ، والقاسم بن محمد من حفدة أبى بكر ، وأخيراً الفقيه الضليع سالم بن محمد (المتوفى ١٠٦ هـ) من حفدة عمر ، كان هؤلاء جميعاً غير أكفاء من جهة الولادة ، بيد أنهم لعبوا دوراً رئيسا فى المجتمع . وكما يرى الأصمعى ، أسهموا بقسط عظيم — بوساطة مناقبهم الشخصية — فى تغيير[٢] رأى المجتمع فى أبنـاء الجوارى . بل لقد أمكن فى ذلك الوقت ، حتى فى أسرة عريقة فى الوثنية ، كأسرة « أبى لهب » الملعون فى القرآن ، أن يفخر[٣] أحد أعقابها من غير الأكفاء : الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب — وكانت جدته حبشية[٤] بانتسابه إلى عبد مناف . وقد ظل بيت الخلافة الأموية أحرص البيوت ، وأطولها أمداً — بصورة نسبية — فى الاحتفـاظ بمثل الجاهلية الأعلى من نقاء الدماء . وها هو ذا مسلمة بن عبد الملك (٦٣ — ١٢٠ هـ) بقى[٥] مبعداً عن عرش الخلافة لأنه من أولاد الجوارى . نعم لقد ولى الخلافة يزيد الثالث ، وهو ابن جارية صُغدية[٦] من الأسرى ، سنة ١٢٦ هـ ؛ ولـكن الفضل فى هذا راجع إلى ثورة تشبت ، كما أنه حصل قبل سقوط الدولة العربية (الأموية) نهائياً بسنوات قليلة .

(١) ابن سعد (VII, I, 71) أغانى ج ١٨ ص ٨ ؛ المسعودى (تنبيه BGA VIII) ص ٣٢٠ ؛ ابن حجر : إصابة ج ٤ ص ١٠٨ ؛ ابن عبد البر : الاستيعاب (على هامش ابن حجر) ج ٤ ص ١٠٩ .

(٢) ابن قتيبة : عيون ج ٤ ص ٨ .

(٣) أغانى ج ١٤ ص ١٧٨ يضاف إلى هذا : Vollers Centenario Michele Amari 1,88 وقد رجع هذا إلى : الفضل : الفاخر ص ٤٣ ، ابن حجر : فتح البارى ج ١١ ص ٦٢ وغير ذلك .

(٤) أغانى ج ١٥ ص ٢ .

(٥) El, 3, 454 .

(٦) Weilhausén Das arab. Reich 226

بل كذلك طبيعة الحياة البدوية لم تبق بعيدة غير متأثرة بالمؤثرات اللغوية الأجنبية . وهذا هو الحجاج يهدى جريراً ، لأول زيارة له بالعراق ، جارية[١] من الرى ، ولدت للشاعر كثيراً من الأولاد ، كما تغنى بها فى أشعاره . وفى وسعنا أن نثق بالرواية التى تحدثنا عن عيوب فى تعبيرها ، مهما تكن الجملة التى قيلت على لسانها مخترعة[٢] . وهذا ابن ميّادة يقدم لنا مثالا آخر فى الجيل التالى لذلك ؛ ويعدّه بعض النّقدة آخر من يحتج به من شعراء البادية . وقد أهداه الخليفة الوليد بن يزيد (١٢٥ — ١٢٦ هـ) جارية من طبرستان ، كانت كاملة من جميع الوجوه ، ماعدا لهجتها العربية ، فقال ابن ميادة فيها :

بأهلى ما ألذّك عند نفسى لو أنك بالكلام تعرّبينا
كأنك ظبية مضغت أراكا بوادى الجزع حين تبغّمينا[٣]

وفى الثلث الأخير من القرن الأول ، كان قد أخذ نمو العربية المولّدة ، التى تكونت من العوائد اللغوية الراجعة إلى اللهجة الدارجة فى مناطق العربية القديمة ، حدًّا لم تتوقف فيه الأخطاء اللغوية عن الظهور ، حتى فى الدوائر الأولى من المجتمع العربى . لقد صار منذ زمن طويل غير مفهوم بطبيعة الحال أن يتعلم أولاد هذه الدوائر الأولى، من المحيط الذى هم فيه ، عربية جيّدة . وقد كانت هذه التجديدات تعدّ عند العرب الذين كانوا ذوى إحساس دقيق منذ القدم ، بجمال لغتهم، خطأً لغويا (لحنا[٤]). ولهذا قامت بينهم حركة رجعية ضد فساد اللغة ، ونشأ من ذلك فى أواخر القرن الأول (السابع الميلادى) مبدأ «تنقية اللغة العربية» الذى حمل راية المحافظة على خلوص اللغة . وهنا أيضاً برهن الأمويون على أنهم حماة المبادىء العربية القديمة . فقد روى أن عبد الملك (حكم ٦٥ — ٨٦ هـ) كان يحذّر أبناءه من اللّحن ؛ فإن اللّحن

(١) المبرد ص ٣٠١ .
(٢) الجاحظ : بيان ج ١ ص ٣٣ ، ج ٢ ص ٣ .
(٣) الأغانى ج ٢ ص ١١٢ .
(٤) انظر الملحق فى خاتمة الكتاب .

غوية في منطق الشريف أقبح من آثار الجدريّ في الوجه ، وأقبح من الشق في ثوب نفيس[١] . ويروى أن هذا الخليفة لم يكن يستعمل[٢] صيغاً ملحونة حتى في المزاح ؛ وأنه كان يقدر الدقائق اللغوية حق قدرها ؛ فحينما غيّر الشاعر الخارجي أبو المنهال على عتبان بن وُصَيلة بيته :

« ومنا أميرُ المؤمنين شبيب » إلى : « ومنا أميرَ المؤمنين شبيب » ، نال على هذا التغيير في الجواب استحسان الخليفة حتى أطلق سراحه[٣] . وعلى الرغم من ذلك فقد روى أنه أهمل[٤] تأديب ابنه الوليد (حكم ٨٦ — ٩٦ هـ) ، ولذلك رويت في أخطائه اللغوية شتى الروايات اللاذعة[٥] . وعلى النقيض منه تأدّب سليمان ابن عبد الملك (حكم ٩٦ — ٩٩ هـ) أدبا رفيعا ؛ وكان يحسن[٦] الإشادة بقيمة الجمال اللغوي ؛ كما روى عنه أنه قال في المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث ، أحد أشراف قريش ، ساخراً منه : « المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث يفخّم اللّحن كما يفخّم نافع بن جبير الإعراب » . وكذلك كان أخوه مسلمة رفيع الثقافة ؛ وكان يكره عمرو بن مسلم ، أخا قتيبة بن مسلم ، لأنه كان يلحن[٧] في كلامه ؛ كما روى أنه كان يمقت السائلين الذين يلحنون[٨] في لغتهم . وكان عمر الثاني (ابن عبد العزيز)

---

(١) البلاذري (آلورد) ص ٢٦٠ ؛ الجاحظ : بيان ج ٢ ص ٤ ؛ ابن قتيبة : عيون ج ٢ ص ١٥٣ .

(٢) الزجاجي : أمالي (طبع ١٣٤٢ هـ) ص ١٤ فما بعدها .

(٣) ابن خلكان (١٢٩٩ هـ) ج ١ ص ٣٩٩ ؛ الدميري (١٣٤٨ هـ) ج ٢ ص ٢٦١ وكثيراً ما تساق أبيات هذا الشعر دون تسمية قائله ؛ ابن قتيبة : عيون ٢ ص ١٥٥ ؛ ياقوت : إرشاد ج ١ ص ٢٥ ؛ البيهقي : محاسن ص ١٤١ الخ .

(٤) المرزباني : موشح ص ٢١٧ .

(٥) البلاذري ٢٣٥ (آلورد) ؛ الجاحظ : محاسن (١٣٢٤ هـ) ص ٦ ؛ قدامة : نقد النثر ص ١٢٣ ؛ البيهقي : محاسن ص ٤٥٤ ؛ المبرد : كامل ص ١٩٠ ، وانظر القلقشندي ج ١ ص ١٦٨ .

(٦) ياقوت : إرشاد ج ١ ص ٢٤ ؛ الميمني : ذيل الأمالي ص ٦٦ .

(٧) الجاحظ : بيان ج ٢ ص ٤ ؛ وفي المغيرة انظر : ابن سعد ج ٧ ص ١٥٥ ؛ أغاني ج ١٥ ص ٤٨ ؛ وفي نافع انظر : ابن حجر : تهذيب ج ١٠ ص ٤٠٥ .

(٨) الخفاجي : طراز المجالس (١٢٨٤ هـ) ص ٦٧ .

(حكم ٩٩ — ١٠١ هـ) دقيق الإحساس فى شئون اللغة بوجه خاص ؛ وكان لا يطيق أن يسمع فى محيطه خطأً لغويا أيًّا كان ؛ وكان يصلح ما يعترضه من الأخطاء[١] ؛ وكان يحب الواضح السهل من العربية حتى فى الشعر .

وكان بعض معاصرى الأمويين — كذلك — يقدّسون آراء مثل آرائهم . فقد كان الحجاج والى المشرق لا ينطق عربية ناصعة فحسب[٢] ، بل كان يقيم أيضاً وزناً لأن يعبّر محيطه تعبيراً صحيحاً . ويزعم بعضهم أن كثير بن أبى كثير البصرى ، الذى أراد الحجاج إكراهه على عمل يتولاه ، تخلّص منه بأن أساء إلى أذن الحجاج بلحن فظيع فى القواعد[٣] . حقاً لقد حمل الكره خصومه السياسيين أن يقولوا عنه إنه ارتكب أخطاء حتى فى القرآن ؛ ولكن هذا حصل فى آية قرأها وهو ساه ، حيث قرأ لفظ : أحب ، فى آية ٢٤ من سورة التوبة بالرفع بدل النصب : « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا » . وقد أوقعه فى السهو مجىء[٤] خبر كان بعدها باثنتى عشرة كلمة . وقرأ مرة أخرى فى الآية ١١ من سورة العاديات بدل : إنّ ، بكسر الهمزة فى : « إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ » ، أَنَّ

---

(١) ياقوت : إرشاد ج ١ ص ٢٥ ؛ الجاحظ : ج ٢ ص ٢ ، و ص ١٢٠ ؛ الجاحظ : محاسن (١٣٢٤ هـ) ص ٦ .

(٢) انظر الجاحظ : بيان ج ١ ص ٦٨ ، ج ٢ ص ٤ ؛ الزجاجى : أمالى ص ١٤ ، وقد قرن الزجاجى فى الموضع المذكور ، بالحجاج الخطيب المشهور : ابن القرية . (انظر هذا فى المعارف لابن قتيبة وابن خلكان ج ١ ص ١٤٥) على أن كلا من عوانة (أغانى ج ٢ ص ٩ — طبع دار الكتب —) ، والأصمعى (أغانى ج ٢ ص ٣ — الطبعة نفسها —) قد أنكرا وجوده التاريخى .

(٣) ياقوت : إرشاد ج ١ ص ٢٥ .

(٤) الجمحى : طبقات ص٦ ؛ ابن الأنبارى : نزهة ص ١٩ ؛ ياقوت : إرشاد ج ٧ ص٢٩٦ ؛ ابن خلكان ج ٣ ص ١٩٣ . Nöldecke, Geschichte des Qurans, 111, 124

بالفتح ، متخلصاً من الغلط بحذف[١] ، لام القسم من الخبر . وكذلك كان سهواً منه حين قرأ[٢] فى آية ٢٢ من سورة السّجدة : « إِنَّا مِنَ الْمجرِمِينَ لَمُنْتَقِمُون » بدلاً من : « إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُون » . ولم يقلّ عن الحجاج فى تعظيم العربية أيضاً عمر بن هبيرة ، الذى كان والياً على العراق (سنة ١٠١ — ١٠٥) ؛ وكان يرى أن من يحسن العربية أعلى من غيره مقاماً فى الجنة[٣] .

ومثل ذلك التعظيم للعربية الخالصة ، نجده لذلك الوقت فى الشعر أيضاً ، فهاهوذا رؤبة (المتوفى سنة ١٤٥ هـ) يرى من الضرورى أن يُبْرِزَ فى أرجوزته التى مدح بها بلال بن أبى بردة قاضى البصرة ، أن الممدوح يصحح الإعراب ولا يقع فى الخطأ :

* فُزْتَ بِقِدْحَى مُعْرِب لم يلحن[٤] *

ورؤبة نفسه كان يحب أن يتمدّح بمقدرته اللغوية ؛ فهو يبرز (XXVI ٣٥) ذكر العناية الدقيقة (التنطّس) التى يبذلها فى نظم كلامه . وهو يشعر بتفوّقه على خصمه ، أيًّا كان ، فى الدراية وتعاطى الوحشى الغريب من مادة اللغة (عُقْمِى) ؛ وهو يفخر (XXXVI ٤٥) بأنه ترك بعض من عارضه من الشعراء وراءه مثل الألثغ الذى ينطق لـكنة أعجمية ، ولا يعرف فرق الصحيح من الزائف فى العربية :

* أعجم لايعرف زيغ الزَّيَّغ * وفى أرجوزته التى امتدح بها القاسم ابن محمد بن القاسم ، ابن فاتح السند ، أكّد (XXII ١٣٧) أن نحويا ضليعاً فى العلم يفهم مداخل الـكلام (داهى العلم والتعبّر) ، ليس له بعد نظره فى اللغة ، مهما أشاح بوجهه غضباً من ذلك :

كيف ترانى أنتحى فى دفترى   على قضيب الذاهبات الشبر

---

(١) ابن قتيبة : عيون ج ٢ س ١٦٠ ، ابن خالويه : مختصر س ١٧٨ .
(٢) الجاحظ : بيان ج ٢ س ٤ .
(٣) ياقوت : إرشاد ج ١ س ٢٢ .
(٤) رقم ٥٧ ، بيت ١٥٤ (آلورد) .

لاينظر النحويُّ فيها نظرى وإن لوى لَحْييه بالتحقر
وهو دهيٌّ العلم والتعبر (١)

وفى مدحه لآخر والٍ أمويّ على خراسان : نصر بن سيّار ، يقول رؤبة (XIX ١٩) إنه اختار لمديح نصر ألفاظا متنخلة ، يتعب النحو فى فهم غرضه منها :

وأنا فى تخيرى وجـــدى إذا تنخلت جيـــاد النـد
يلتمس النحوى فيها قصدى مجَّــدت نصراً وهوأهل المجـد

وعلى النقيض من ذلك يحقر يحيى بن نوفل الحميرى خالدَ بن عبد الله القسرى ، والى العراق ، (١٠٥ — ١٢٠ ﻫ) فى البيت :

وألحنُ الناس كلِّ الناس قاطبةً وكان يولَعُ بالتشديق فى الخطب (٢)

وهذا يرجع إلى أن خالداً الضعيف القلب ، فزع فزعا شديداً ، وطلب جرعة ماء وهو متلجلج ، حينما تلقى سنة ١١٩ ﻫ ، وهو يخطب ، نبأ قيام الشيعى المغيرة (٣) ابن سعيد بثورة فى الـكوفة . وقد غالى خصومه فى انتهاز هذا الحدث . ويرى المدائنى (٤) أن خالداً كان حقيقة لُحَنَةً بوجه عام ، وأنه كان يستعين فى خطبه

(١) يحتاج تأريخ هذه القصيدة إلى شىء من الاستقصاء . فهي — كما يؤخذ من البيت ١٤٩ — موجهة إلى القاسم ، والمقصود به كما ذكر فى العنوان : القاسم بن محمد بن القاسم . ويرى فيه كل من آلورد ص ١١ وكرنـكو EI III 1159 القاسم بن محمد الثقفى الذى فتح الهند فى سنة ٩٤ ﻫ كما جاء فى الطبرى ج ٢ ص ١٢٥٦ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٢٢٣ وعلى ماجاء فى الشعر وعنوانه تـكون صحة تسمية فاتح الهند : محمد بن القاسم الثقفى ، وهذا ما ذكره مثلا إلياس برشينايا فى تاريخه على أنه فاتح الهند فى السنة المذكورة (F.Baethgen, Fragemente syr.u. arab, Historiker S, 42) ، وقد كان سن هذا عند شروعه فى غزو الهند ١٧ سنة بشهادة أبى اليقظان (المتوفى ١٩٠ ﻫ) كما ذكره ابن قتيبة : عيون ج ١ ص ٢٢٩ ، (وكما فى الأبيات التى استشهد بها فى البلاذرى ص ١٤١ ، وفى ابن الأثير ج ٤ ص ٢٢٤ ، وهى من قول حمزة بن بيض) . ولما كان فاتح السند المذكور قد قتل سنة ٩٥ ﻫ ولا بد أن يكون ميلاد ابنه الممدوح حوالى سنة ٩٠ (إذ كان عمر أبيه عند فتح الهند ١٧ سنة كما ذكرنا) فلا يعقل أن يمدحه رؤبة إلا حوالى ١١٠ ﻫ على الأقل .

(٢) الجاحظ : بيان ج ١ ص ٥٢ ، ج ٢ ص ٤ ؛ وذكره المبرد (كامل ص ٢٠) لشاعر آخر

(٣) انظر الطبرى ج ٢ ص ١٦١٩ ؛ الأشعرى : مقالات : فهرست ؛ النوبختى : فرق الشيعة : فهرست ؛ الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ١٩١ ؛ ابن حجر : لسان الميزان ج ٦ ص ٧٥ — ، Wellhausen, dasarab. Reich' 204 .

(٤) أغانى ج ١٩ ص ٦٢ .

برجل يلقنه Soufleur ، كما يرميه بالتصنع ، إذ قال ذات يوم : إن كنتم رجبيون (كذا فى البيان والتبيين) ، فإنا رمضانيون [١] ، ويعدّه الجاحظ من اللحّانين البلغاء [٢] ولكن خالداً كان فى حقيقة الأمر خطيبا ممتازاً ؛ وكان إذا انقطع عليه خيط الكلام يعرف كيف يحسن [٣] الخروج من المأزق . وبيت ابن نوفل إنما يدل على أنه منذ بداءة القرن الثانى الهجرى لم تعد سلامة التعبير من اللحن أمراً طبيعياً ، حتى عند ذوى المناصب الرفيعة .

ومما كان ذا مقام حاسم فى مستقبل العربية ، أن المجتمع العربى فى عهد الأمويين لم يكن هو وحده الذى يعترف بالعربية على أنها القدوة الرفيعة ، والمثل الأعلى ؛ بل كذلك الدوائر الإسلامية غير العربية ، (من طبقة الموالى) ، الملحّة فى التسامى والتعالى ، كانت ، فى سبيل طموحها إلى محاكاة الطبقة السائدة فيما تفعل ، تجارى هذه أيضاً فى الناحية اللغوية ، وتحتضن حركة تنقية اللغة العربية ، بما فى ذلك من إعلاء شأن اللغة البدوية الخالصة . وكلما أخذت سلامة اللغة تصير أمراً من أمور التربية والتعليم ، قويت آمال غير العرب أن يستبدلوا — بالصبر والاجتهاد — عربية فصحى من عربية اللهجة الدارجة فى محيطهم . وقديماً ما تملك الحسن البصرى (المتوفى ١١٠ هـ) ، وهو ابن لأحد أسارى الحرب من مدينة مَيْسان ، أزمّة العربية ، بحيث كان رجال ضليعون ، كأبى عمرو بن العلاء ورؤبة ، لا يجدون غضاضة فى أن يضعوه [٤] إلى جانب الحجاج . وكان تلاميذه المجتهدون يكتبون عبارات أستاذهم ، لا لما تحتويه من علم فحسب [٥] ، بل لصياغتها اللغوية كذلك . وكثيرة هى الأخبار [٦] والروايات التى تطنب فى وصف دقة إحساسه تجاه الأخطاء اللغوية .

---

(١) الجاحظ : بيان جـ ٢ ص ٤ .
(٢) الجاحظ : بيان جـ ٢ ص ٥ .
(٣) القالى : أمالى (الطبعة الثانية) جـ ١ ص ١١١ ؛ ابن قتيبة عيون جـ ٢ ص ٢٥٧ .
(٤) الجاحظ : بيان جـ ١ ص ٦٨ ، جـ ٢ ص ٤ .
(٥) تجد مثالا لذلك فى أخبار النحويين البصريين للسيرافى ص ٨٠ ؛ وانظر أيضاً الكامل للمبرد ص ١٢٠ .
(٦) الجاحظ : بيان جـ ٢ ص ٥ ؛ ياقوت : إرشاد جـ ١ ص ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٤ ، القالى : أمالى جـ ٢ ص ١٤١ ، والبكرى عليه ص ٦٦ .

حقاً لا تعرب قراءته للقرآن عن ذلك الصقل والانسجام الذى تتطلبه حركة « تنقية اللغة العربية » عند نحاة العصر العباسى الأول ؛ فقد كان يقرأ مثلا . « الحَمْدِ لِلّهِ » بكسر الدال بدلا من ضمها ، وبشهادة النحوى المصرى : النحّاس (المتوفى ٣٣٨ هـ) ، كانت صيغة الحمد لة على هذا النحو خاصة بلهجة تميم[1] ؛ وقد اجتهد الكوفيون فى تأييد هذه القراءة وأختها : « الحَمْدُ لُلّهِ » « بضم لام لُلّهِ » ، بسَوْق أمثلة أخرى لتناسب الحركات والإتباع ؛ وعلى النقيض من ذلك البصريون الذين عابوا هذه القراءة — التى هى فضلا عن ذلك قراءة زيد بن على المتوفى ١٢٢ هـ ، ورؤبة — بحجة أنها سقطت من الاستعمال تماما ، وأنها مخالفة للقواعد ، ومصطدمة بالإعراب[2] .

ويصف الجاحظ قراءتين للحسن بأنهما خطأ صراح ، إحداهما : « وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطُونَ » بدل « الشَّيَاطِينُ » فى آية ٢١٠ من سورة الشعراء (ألا يقال ذلك أيضاً فى آية ٢٢١ من نفس السورة ، وفى آية ١٠٢ من سورة البقرة ، وفى آية ٧١ من سورة الأنعام) ، والأخرى : صَادِى ، بدل : صَادْ[3] (آية ١ من سورة ص) .

وفى الأولى نرى صيغة جديدة : شياطون ، وقد نشأت من توهم أن نون جمع التكسير هى نون جمع التصحيح (المذكر السالم) . أما أن هذه الصيغة الجديدة وردت حقيقة فى الاستعمال اللغوى للقرن الأول ، فهذا ما تؤكده شهادة ثقات قدماء آخرين ، مثل سعيد بن جبير (المتوفى ٩٥ هـ) وطاووس (المتوفى ١٠٦ هـ) ؛ بل كذلك الأعمش نفسه (المتوفى ١٤٨ هـ) . بيد أن شياطون ، ككثير من الصيغ المخالفة للقواعد ، التى وردت فى القراءات الشاذّة ، لم تلق قبولا عند النحاة ، بل عيبت[4] من غالبيتهم وعدوها خطأ صريحاً . وليس كذلك أمر القراءة الثانية :

---

(١) ابن الأنبارى : نزهة ص ٣٦٤ .

(٢) انظر الأنبارى : الإنصاف ص ٥٧ س ٧ ، ص ٣١٠ س ١٠ ، ص ٣١١ س ١٦ ، ص ٣١٥ س ٩ ؛ وانظر المحتسب لابن جنى فى سورة الفاتحة ؛ وانظر المختصر لابن خالويه ، (Bibl. Jsl. VII) .

(٣) الجاحظ : بيان جـ ٢ ص ٤ .

(٤) ابن جنى : المحتسب فى سورة الشعراء ، ابن خالويه : المختصر ص ١٠٨ ، الكشاف : ص ١٠١١ ، تاج العروس جـ ٥ ص ١٧٢ .

صادى ، التى تدين فى نشأتها إلى نظر تفسيرى محض ، حيث فهمت على أنها أمر من مصدر المادة الثلاثية : ص د ى ، ومن هنا لا تتعارض فى صيغتها مع قواعد[1] النحو.

وقد كان ممكن الوقوع أن يحيط غير عربى بمعرفة العربية معرفة راسخة ، بيد أن خصائصه فى التعبير تنمّ على أنه أجنبى . وهكذا نمّت لهجة الفقيه السورى الكبير : مكحول (المتوفى ١١٧ هـ) ، على أن نسبه يمتّ إلى أحد الأسرى من « كابل » ؛ فقد كان يستعيض[2] من الحاء بالهاء ، ومن القاف بالكاف ، كما أعرب المحدّث الثقة الكبير : نافع (المتوفى ١١٧ هـ) ، أستاذ « مالك » — يضع البخارىّ سلسلة : مالك عن نافع عن ابن عمر فوق كل إسناد — عن أصله الديلمى[3] ، بسبب تعبيره .

بل حتى فى أكثر النواحى اختصاصاً أصيلا بالعرب ، وهو فنّ الشعر ، كان على العرب أيضاً أن يرضوا بمنافسة الأجانب . وقديماً ، فى النصف الثانى من القرن الأول ، نال رجل غير عربى : زياد الأعجم (المتوفى ١٠٠ هـ) من حيث هو شاعر فى سدّة المهلب بن أبى صفرة (المتوفى ٨٢هـ) فى خراسان ، مجداً وعلوًّا كبيرا . لقد كان فارسى الأصل ؛ ويرجع لقبه : « الأعجم » إلى لكنته الفارسية ، وضعفه فى مخارج الحروف . ويصفه أحد خصومه ، وهو المغيرة بن حبناء ، بأنه « علج أعجم » ، وأنه أعجمى اللسان وأنه « ابن زَرْوان[4] » ، والأقوال التى رويت على لسانه[5] تدل على أنه كان يستعيض من العين بالهمز ، ومن الحاء بالهاء ، ومن حروف الإطباق بحروف أخفّ منها ، مقاربة لها . وهذه الظواهر فى نطق العربية من السّمات الخاصة بالألسنة الفارسية ، مما يحملنا على الركون إلى هذه الروايات الواردة

(١) ابن جنى : المحتسب فى سورة ص ؛ ابن خالويه : مختصر ص ١٢٩ .
(٢) ابن قتيبة : معارف ص ٢٣٠ ؛ ابن خلكان (١٢٩٩ هـ) جـ ٢ ص ٥٨٥ ؛ الذهبى : تذكرة جـ ١ ص ١٠٢ .
(٣) الذهبى : تذكرة جـ ١ ص ٩٤ ؛ ابن حجر : تهذيب جـ ١٠ ص ٤١٤ .
(٤) أغانى جـ ١١ ص ١٦٦ ، ١٦٧
(٥) أغانى جـ ١٤ ص ١٠٣ ؛ الجاحظ : بيان جـ ١ ص ٣٢ ؛ المبرد : كامل ص٣٦٦

فى هذه النقطة على الأقل وإن كانت أهم هذه الروايات [١] قد حكيت [٢] أيضا عن زياد ، أخى حسان بن أبى حسان النبطى [٣] الذى اشتهر بأعمال السَّقى والرىّ فى العراق على عهد الوليد وهشام . ولكيلا يتأثر حسن الجَرْسِ فى أبيات زياد الأعجم بسوء تعبيره ، أهدى إليه المهلّب غلاما يجيد [٤] الإلقاء . وما كان ليفعل ذلك لو لم تكن أبيات الشاعر سليمة من حيث النحو والقواعد . وفى الحق إن تركة [٥] زياد الشعرية لتدل على أنه كان متمكنا من العربيــة تمكنا كاملا ؛ ومرثيته للمغيرة ابن المهلب (المتوفى ٨٢ هـ [٦]) من أشهر المراثى فى الشعر العربى [٧] . نعم لقد أخطأ فى قوله (فى مكان آخر) :

إذا قلت قد أقبلت أدبرت ‏ ‏ ‏ ‏ كمن ليس غاد ولا رائح

إذ كان يجب أن يقول : كمن ليس غاديا ولا رائحا . بيد أنه من قبيل التعميم ، الذى لا وجه له من الحق ، أن يقول فيه ابن قتيبة [٨] بسبب ذلك : إنه كان كثير اللحن . بل ربما كان أبو الفرج الأصبهانى مصيبا حين يصف [٩] عبارته اللغوية بالسلامة من الخطأ : « فصيح الألفاظ » .

وقد وجد مثال زياد الأعجم تكرارا ، بعده بنصف قرن ، فى شخص أبى عطاء السندى ، الذى يأخذ مجرى حياته مَهْيَعاً مطابقاً لمجرى حياة الشاعر القديم بصورة لافتة للأنظار . لقد كان أبو أبى عطاء [١٠] عبدا من السند ، لا يكاد ينطق العربية .

(١) أغانى جـ ١٤ ص ١٠٢ ، وانظر عبد القادر : خزانة الأدب جـ ٤ ص ١٩٣

(٢) الجاحظ بيان جـ ٢ ص ٣ ؛ المحاسن والأضداد (القاهرة ١٣٢٤ هـ) ص ٧

(٣) انظر فى هذا Wellhausen, das arab. Reich' s.157

(٤) الأغانى جـ ١٤ ص ١٠٢

(٥) حفظ الأغانى كثيراً من شعره ، كما توجــد طائفة من أشعاره فى كتب التراجم والتاريخ والأدب .

(٦) القالى جـ ٣ ص ٨ — ١١ ؛ وشرح البكرى فى الموضع نفسه ؛ ويضاف إلى المصادر المذكورة فيه ، ياقوت : إرشاد جـ ٤ ص ٢٢٢

(٧) أغانى جـ ١٤ ص ١٠٢

(٨) الشعر والشعراء ص ٢٥٩ Syntax s. 97, Reckendorf وقد أخذ سهواً بحكم ابن قتيبة دون تمحيص .

(٩) أغانى جـ ١٤ ص ١٠٢ .

(١٠) أغانى جـ ١٦ ص ٨١ — ٨٧

وعنه أخذ ابنه ، الذى نشأ بالكوفة ، تعبيره السقيم ، كما يفعله كثير من الهنود إلى هذا اليوم . كان يبدل الحاء هاء ، والجيم زايا ، والشين سينا[١] ؛ لكنه كان ذا ملكة فى الشعر لا يستهان بها ؛ حيث حصل وشيكا بمدائحه دراة إعجاب معاصريه . وكان أشهر من احتضنه وشد من أزره والى خراسان لبنى أمية : نصر بن سيَّار (حكم ١٢٠ — ١٣١ هـ) ، الذى كان هو أيضاً على عرق فى الشعر ، وكان يقيم الشعر وزناً ومقاما . ولما كانت لهجة « السندى » لا تسمح له أن يلقى الشعر ، فقد استوهب أَحَدَ ممدوحيه ، وهو سليمان بن سُلَيْم بن كيسان الكلبى[٢] ، عبدا حبشيا للإلقاء . وقد بقى لنا الشعر[٣] الذى استوهب سليمانَ به هذا العبد :

أعوزتْنى الرواة يا بن سُليم ⁂ وأبى أن يقيم شعرى لسانى
وغَلَى بالذى أجمجم صدرى ⁂ وشكانى لعجمتى شيطانى[٤]
وازدرتنِى العيون إذ كان لونى ⁂ حالكا مجتوى من الألوان[٥]
فضربتَ الأمور ظهراً لبطن ⁂ كيْف أحْتال حيلة للسانى
وتمنيْتُ أننى كنت بالشعـ ⁂ ـر فصيحاً ، وبان بعض بنانى[٦]
ثم أصبحت قد أنخت ركابى ⁂ عند رحب الفِناء والأعطان
فَاكْفنى ما يضيق عنه رُواتى ⁂ بفصيح من صالحى الغلمان
يُفْهم الناس ما أقول من الشعـ ⁂ ـر فإن البيان قد أعيانى

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص٤٨٢ ؛ الأغانى جـ١٦ ص٨١ ، ٨٢ ؛ ٨٧ ؛ التبريزى شرح الحماسة ص٢٦ ؛ عبدالقادر : خزانة جـ ٤ ص١٧٠ ؛ ابن خلكان (١٢٩٩هـ) جـ ٢ ص٥٨٥

(٢) كان على رأس القوات السورية فى العراق التى رابطت فى الحيرة تحت ولاية يوسف بن عمر (١٢٠ — ١٢٦ هـ) واشتركت فى قتال زيد بن على (انظر الطبرى جـ ٢ ص ١٧٠٨)

(٣) أغانى جـ ١٦ ص ٨٢

(٤) وروى : وجفانى لعجمتى سلطانى . والظاهر أنه تحريف : انظر : Gold ziher Abhandl. Z. arab . Philolagie 1, 13

(٥) روى : وعدتنى العيون .

(٦) يؤثر المؤلف : وبان بعض بيانى ، ولا داعى إليه . وربما كان فى البيت قبله : كيف أحتال حيلة لبيانى ، تفاديا للايطاء مع البيت الأول .

فاعتمدنى بالشكر يا بن سُليم   فى بلادى وسائر البلدان

ستوافيهم قصائد غرٌّ   فيك سبّاقة بكل لسان

فقديماً جعلت شكرى جزاء   كل[1] ذى نعمة بما أولانى

لم تزل تشترى المحامد قدما   بالربيح الغالى من الأثمان

على أن الأمر لم يكن مقتصرا على الفرس والهند فحسب ، بل لقد كان ، حتى بين المحقّرين من الزنوج — حوالى أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى — رجال تمكنوا من ناصية العربية تمكنا تاما ، بحيث سجّلوا لأنفسهم ذكرا ومكانة فى الشعر . فحينما حقّر جرير[2] — عرضا من شأن الزنج ، فى قصيدة ، تهكّم فيها بالأخطل ، انبرى زنجى للرد عليه بقصيدة تغنّى فيها بمدح بنى جلدته ، وعدَّ أبطالهم وشعرائهم . وقد أثارت قصيدته إذ ذاك دهشة عظيمة ، وإن طُرحت بعد ذلك فى زوايا النسيان ، فلم يصلنا منها إلا بضعة أبيات[3] . وحتى اسم صاحبها لم يرد فى صورة ثابتة ؛ فعلى قول المبرد[4] ، يسمى : رياح بن سُنَيْح ، ويقول آخرون إن اسمه — على عكس ذلك — : سُنَيْحُ بن رياح ، (أو صُبَيْحُ بن رَباح[5]) ؛ ويذكر المبرد أنه : فصيح ؛ كما أن أبياته الباقية تدل على أنه كان يفهم كيف يتعاطى فنّ الشعر العربى ولغته ، ويحسن أساليبه . ولكى يحقّر جريرا ، مدح فى قصيدته خصمه بكلمات المدح التالية :

إن الفرزدق صخرة عادية   طالت ، فليس تنالها الأوعالا[6]

---

(١) انتصب لفظ : كل ، على أنه مفعول للمصدر وهو : جزاء .

(٢) نقائض جرير والأخطل ؛ نشرها الصلحاني : بيروت ١٩٢٢

(٣) ذكر الجاحظ ١٤ بيتاً منها فى رسالة تفضيل السودان على البيضان (ثلاث رسائل للجاحظ طبع فان فلوتن) . وانظر أمالى ابن الشجرى ج ١ ص ١٩٤ طبع كرنكو ، ونقائض جرير والأخطل السالف الذكر .

(٤) كامل ص ٤١٥ ، ويوجد فى بعض النسخ كما فى بعض النسخ الخطية رباح بن صبيح .

(٥) كذا فى الجاحظ فى الموضع السالف الذكر . وقرأه فان فلوتن : شبخ بن رباح ، وهى قراءة رديئة . وقرأه الصلحانى فى النقائض : سنيح بن رياح ، وذكر فى التعليق بعض الاختلافات . وقرأه كرنكو — غلطاً — سفيح بن رباح .

(٦) مرتضى : أمالى ج ٤ ص ١٣٠ ؛ شنتمرى على سيبويه ج ٢ ص ٣٥٦ ؛ ابن رشيق : عمدة ج ١ ص ١٧٤ ؛ تاج العروس ج ٧ ص ٤٢٣

وهذا هو البيت الفرد الذى يكثر سوقه من أبيات القصيدة ، وإن كان دون تسمية قائله . وهو يشتمل على تأليف للكلام لافت للنظر ، بل معيب عند بعض النقاد . وكان التأليف الطبيعى يقتضى : طالت الْأَوْعَالَ فَلَيْسَ تنالُهَا . بيد أن من شعراء البادية من سمح لنفسه بحرية أجرأ من هذه ، فلا يجوز لأحد أن يرجع هذه الظاهرة إلى أصل الشاعر غير العربى . وقد اشتهر برداءة التأليف مثلا — بيت الفرزدق التالى ، من قصيدة يمدح بها ابراهيم بن هشام بن اسماعيل ، خال الخليفة هشام بن عبد الملك لأمه :

وما مثله فى الناس إلا مملكا　　أبو أمه حى أبوه يقاربه[1]

كذلك يبدو فساد التأليف فى بيت الفرزدق التالى ، من قصيدة يمدح بها الوليد بن عبد الملك :

إلى ملك ما أمه من محارب　　أبوه ولا كانت كليب تصاهره[2]

وقصائد الفرزدق بوجه خاص ، تقدم سلسلة من الأبيات كثيراً ماسببت[3] لشارحها عناء كثيراً ، لما يرد فيها من التداخل عن صنعة واختيار .

بل لقد ظهر كذلك فى أواخر القرن الأول فتور فى الإحساس اللغوى القديم عند الشعراء من أصل عربى . حقاً لقد كان الطراز الرفيع من الشعر يجرى على السنن المرسوم ، والنظام المتبع ، ليس فقط من حيث الموضوع واختيار المقام والمقال ، بل كذلك فى ظواهره من حيث القوالب والصيغ ، ومادة الألفاظ ، ومناهج الأساليب . بيد أنه على الرغم من ذلك ، كان فى الأول ، يصدر عن طبع صادق ، ونبع أصيل ، أما فى ذلك العهد فقد انتشرت الصنعة والتقليد عند المولدين أيّما انتشار .

وها هو ذا ديوان الشاعر : « الطِّرِمّاح » ، حافل بالعبارات المنتقاة ، والألفاظ المبهمة . لقد نشأ فى سواد الكوفة ، ويقال عنه : إنه كان يكتب ألفاظ النبيط ،

(١) سقط البيت فى الديوان . وقد أضافه الصاوى فى ص ١٠٨ نقلا عن الأخبار والروايات
(٢) عينى جـ ١ ص ٥٥٥ الخ ؛ وفى الديوان ٣١٢ وردت الرواية : أبوها وهى أخف تعقيداً
(٣) يحتوى الأغانى جـ ١٩ ص ١٥ فما بعدها على أمثلة كثيرة من ذلك .

فيعربها ، ويدخلها فى شعره[١] . ويعدّ الأصمعى — وحكمه راجح الوزن — الطرمّاح والكميت من الشعراء المولّدين الذين لا يحتج باستعمالهم اللغوى ؛ ويزعم أنهما استعملا عبارات أغارا عليها من أقوال غيرهما ، دون أن يفهماها فهماً صحيحاً[٢] . وهو يقصد « من أقوال غيرهما » رؤبة الراجز ، الذى حكى أنه ، وهو فى فارس عند ممدوحه أبان ابن الوليد البجلى[٣] ، سأله الطرماح والكميت عن شىء من الغريب ؛ فلما كان بعدُ رآه فى شعرهما[٤] ولقد كان رؤبة فى مثل هذه البيانات — بطبيعة الحال — أبا عُذرتها ، الذى يسمو فى فهم أسرار اللغة ودقائقها على المستفسرَين بكثير ؛ وحتى لو كانت أقواله مغالى فيها ، أو كاذبة كما شك[٥] فيها بعضهم على غير أساس ؛ فإن حكم الأصمعى جِدّ صحيح ، ويؤيده ديوان الشاعر كل التأييد، كما ستبينه الأمثلة التالية التى يمكن زيادتها بسهولة : فإذا وصف الطرماح (ص ٩٠ س ٣) ثوراً وحشياً فى ليلة ممطرة ، تلفه سحابة مثقلة بالماء (سارية وطفاء) ، وهَيْفٌ مُبْرِد ، فإنه لا يكاد

(١) المرزبانى موشح ص ٢٠٨

(٢) الموضع السالف ص ٢٠٨ ، ٢٠٩

(٣) كان أبان عاملا لخالد بن عبد الله القسرى بين ١٠٥ و١٢٠ هـ (أغانى ج ١٩ ص ٢٠) وانظر فى سعيه لتخليص خالد من الحبس (طبرى ج ٢ ص ١٦٥١ — ١٦٥٤) ووقوعه هو فى الحبس (أغانى ج ١٥ ص ١٢٩) ، وكان مقصوداً من الشعراء يجزل لهم العطاء (انظر فهرست الأغانى) . وقد قال فيه رؤبة القصائد رقم ١٥ ، ٢٣ ، ٢٥ فى ديوانه ، (انظر مقدمة آلورد فى الديوان المذكور Sammlungen alter arabischer Dichter III S. XLVII) ولا يلتبس بأبان بن الوليد المشهور بانتصاره على البيزنطيين سنة ٧٥ هـ ، فهذا ابن الوليد بن عقبة الذى ولى الكوفة (٢٦ — ٣٠ هـ) انظر : wellhawsen Skizzeu VI S. ١١٥ – ١١٧ .

(٤) المرزبانى : موشح ص ٢٩٢ ؛ ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٣٧٢ ؛ الأغانى ج ١٠ ص ١٥٦

(٥) انظر : krenkow the poems of tufail and Trimmah (GMSXXV) S. XXVj EI, IV 860)

وقد حدد كرنكو ميلاد رؤبة فى دائرة المعارف الإسلامية بسنة ٦٥ هـ . على ذلك فلا يمكن أن يكون فى عهد انحلال الدولة العربية شاباً فتياً a very young man ، بل أصغر قليلا من الكميت (المولود سنة ٦٠ هـ) الذى لم يكن تجاوز بعد قمة إنتاجه الأدبى . كذلك لم يقم بين رؤبة والطرماح فارق بعيد من جهة السن . ولا علاقة بين مرتبة رؤبة فى الشعر وعلو مكانته فى شئون اللغة ، فهو هنا من حيث هو بدوى أصيل نسيج وحده .

يفهم من اللفظين الأخيرين إلا ريح باردة . ولكن لفظ هَيْفٌ ، معناه ريح الجنوب[1] اللافحة الحرارة . ورواية : هَيْفٌ ، المذكورة عند المرزوقى[2] وحده . وهو يعلق على ذلك بأن الشاعر قد خالف طريقة استعمال غالب البدو . وفى الديوان : هِفٌّ مُبْرِد . وربما جاز لنا أن نرى فى هذه الرواية تغييراً مقصوداً للفظ الأصلى ؛ على أنها كذلك لا تدل على معنى مقنع ؛ إذ أن لفظ : هِفّ ، ومعناه فارغ ، يدل على : سحابة خالية من المطر ، وهذا المعنى لا يتناسب أيضاً — مثل ريح الجنوب — مع سياق الكلام . وإذا كان التعليق يفسره (لفظ: هِفّ) بالريح الباردة ، فهو — فيما يظهر — مصيب .

ونسوق — مثالا ثانياً — البيت التالى (ص ١٩٠ بيت ١٢) من قصيدة يمدح بها يزيد بن المهلب (المتوفى ١٠٢ ﻫ) :

لَأم تَحِنُّ به مزا ميرِ الأجانب والأشامل

وهنا صاغ الشاعر للفظ : شَمْل ، وهى صيغة ثانية إلى جانب شمأل ، أو صاغ — بعبارة أخرى — لجمع شَمْل ، وهو : أشْمُل ، جمعاً جديداً على أشَامِل ، وجعله مجاريًا للفظ : أجَانِب ، بحيث نشأ من ذلك ازدواج لفظى غريب . وقد عمد إلى ما هو أعنف من ذلك فى بيت آخر (ص ١٠٠ بيت ٢١) اختصر فيه لفظ : تلاميذ إلى : تلام ، بسبب القافية . نعم قد ترد مثل هذه التغييرات اللفظية المتعمدة عند شعراء آخرين أيضاً ، بيد أنها تعدّ — بحق — عند النقدة الفنيين العرب من قبيل الخطأ[3] .

ولمثل هذه الظواهر كان من المرغوب عنه تماماً اعتماد أشعار الطرماح فى قاموس اللغة العربية ، على الأخص بالنظر إلى المفردات التى ينفرد باستعمالها . ولفظ كِرَاض الوارد فى القصيدة رقم ٢ (ص ٨٠ بيت ١٠) — أيد المبرد[4] مطابقته لمعنى تعبير

---

(١) انظر ديوان ذى الرمة ج ١ ص ٤٤ ؛ (والقواميس العربية : اللسان ؛ التاج ؛ الأساس)
Dozys supplément; J.J. hess , Jslamica 2, 587

(٢) كتاب الأزمنة والأمكنة (حيدر آباد ١٣٣٢ ﻫ) ج ٢ ص ٧٨

(٣) انظر مثلا قدامة : نقد الشعر ص ٨٦ فما بعدها .

(٤) كامل ص ٩٥

يونانى — فسره[1] بعضهم ، مراعاة للسياق ، بالرحم ، أو ما يلفظ الرحم من ماء ، أو ماء الفحل . فأى هذه المعانى ينطبق هنا ؟ وهل هو لفظ فى لهجة بعينها ، أو لفظ قديم بطل استعماله ، أو وضع جديد ، أو ناشىء عن سوء فهم ؟ هذا ما يعسر بيانه بالتحديد .

ويضع الأصمعى مع الطرماح — كما ذكرنا — الكميت بن زيد الشاعر (حوالى ٦٠ — ١٢٦ هـ) فى مرتبة واحدة[2] . ولد الكميت بالكوفة ، وينسب إلى بنى أسد . حقاً لا تدل شجرة نسبه الفاخرة[3] على خلوص نسبته العربية . ولما كانت دعوى[4] الأصمعى ، أنه جَرْمَقَانِىٌّ من الموصل ، لا تكاد تكون هواء أو مبنية على غير أساس ، فلا بد من فسح المجال لاحتمال أن أبا أمه كان من السكان الذين نزلوا بمنطقة الموصل وأقاموا فيها . وأيًّا ما كان ، فقد بقى بعيداً عن البداوة ، وصار من أهل المدن . نعم لا تزال تجرى أشعاره على السنن القديم تماماً ، كما أنها تحمل طابع التقليد المصطنع على جبينها . وهذا ينطبق — قبل كل شىء — على أوصافه التى لا لون لها ، والتى لا تقول شيئا ، والتى قال فيها ذو الرمة : ما يقدر إنسان أن يقول إنها صواب أو خطأ . وإذا كان الكميت لم يعارض هذه الحقيقة الثابتة ؛ بل لاحظ عليها موضحا — مبيناً للفرق بينه وبين ناقده — أنه يصف شيئاً لم يره بعينه ، فإن محاولته الدفاع عن نفسه على هذا النحو تدل على أنه رفع[5] التقليد لذاته إلى مرتبة الحذق الفنى . ومع هذا ، فإنه لم يتقيد بمُثُلِهِ ونماذجه تقيد العبودية ؛ فقد حُبِّبَ إليه مثلا أن يعطى النسيب تحولا سلبياً ، حينما يبرز فى صورة التأكيد

---

(١) انظر : تاج العروس ج ٥ ص ٨٢

(٢) المرزبانى : موشح ص ٢٠٨ ، ٢٠٩

(٣) أغانى ج ١٥ ص ١١٣ ، وعلى ما ذكره هناك كانت جدتاه من البدو .

(٤) القالى : أمالى ج ١ ص ٩٦ ؛ انظر ابن دريد : الاشتقاق ص ٢٦٥ (طبع فستنفلد) . وفى « الجرامقة » انظر الهمدانى (BGAV) ص ٣٥ ؛ تاج العروس ج ٦ ص ٣٠٥ EI,1,588 تحت لفظ : Badjarma .

(٥) أغانى ج ١٥ ص ١٢٥ ؛ مرزبانى : موشح ص ١٩٥ .

أن قلبه ليس ملكا للغوانى ، ولا يطمح إلى حب النساء ، وأن طربه لا يرجع[1] إلى شوق أو غرام . وهذا يتيح له الفرصة ، حتى فى قصائد الرثاء التى يجب بالبداهة أن تكون بمعزل عن التشبيب والغزل ، أن يتفنن فى صوغ التعبيرات التقليدية المألوفة فى النسيب ؛ وهذا خروج على الأساليب عابه[2] عليه — بحق — نقاد الفن من العرب . وفى مرة أخرى اختار الكميت للنسيب ، فى قصيدة يمدح بها عبد الرحمن[3] ابن عنبسة ، قالب الاستفهام التوبيخى :

أأبكاك بالعرف المنزل ... وما أنت والطلل المحول[4]
وما أنت وَيْك ورسم الديا ... ر وسنُّك قد قاربت تكمل

كذلك كان لا يبالى أن يقتبس من القرآن — إلى جانب الأشعار القديمة — لأغراضه ، بحيث استطاع العالم الكوفى : ابن كناسه (١٢٣ — ٢٠٧/٩ هـ) ، الذى اشتغل كثيراً بأشعار الكميت ، أن يضع كتابا[5] كاملا فى مآخذه (سرقات الكميت من القرآن وغيره) . ولكنه هناك ، حيث لا يعتمد على مأخذ ، يبدو تعبيره فقيراً رثًا ، عارياً من كل جمال شعرى . وكثير من شعره يبدو فى صورة نثر منظوم ، تبرز بين أثناء فقره وإقفاره ، التعبيرات الرفيعة من لغة الشعراء ، المقحمة هنا وهناك ، كأنها رقاع جديدة فى ثوب بال ، تشُده الأبصار ، وتدهش الأنظار . ويتسق مع هذا اتساقاً تاما أن الكميت كان يعدّ أمية بن أبى الصلت أشعر الشعراء (أغانى ج ٤ ص ١٢٢) . فهذا التنقل بين السطحية المقفرة ، والصيغة المتنخلة ، قد أسهم كثيراً فى طبع أسلوب الكميت القلق المضطرب بطابع عام غير مرص .

(١) انظر — قبل كل شىء — الهاشميات .
(٢) ابن رشيق : العمدة (١٣٤٤ هـ) ج ٢ ص ١٢٢
(٣) انظر : Wüstenfeld,gen. Tabellen U24 .
(٤) أغانى ج ١٨ ص ١٩٣ ؛ خزانة الأدب ج ١ ص ٥٥٨ ؛ ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٦٤٧ . وهذا مذهب آخر غير مذهب تحقير الأطلال ورسوم الديار الذى ظهر فى شعر المحدثين (Goldziher, muh. studien I 32 Anm. 1)
(٥) انظر الفهرست ص ١٠٥

وترجح فى هذا الأسلوب كفّة المنصر النثرى بصورة حاسمة ، وحتى الحرية التى يتخذها الكميت — عرضا — فى الأمور اللغوية ، هى أيضاً ذات ميسم نثرى : فهو يستعمل مثلا للفظ : « ذو » الذى يقتصر وروده عادة على التركيب الإضافى ، جمع مذكر سالما : « الذوين » بمعنى أشراف اليمن[1] ؛ وهو يصوغ لفظ « عُشَار » بمعنى لكلّ عشرة ، على الرغم من أن صيغة « فُعال » تستعمل[2] عادة فى ألفاظ التقسيم من واحد إلى أربعة فقط (أُحاد ، ثُناء ، ثُلاث ، رُباع) ؛ وهو يستعمل اسم الموصول : « الذى » ، دون صلة ، بمعنى اسم الإشارة :

فَإن أَدَعِ اللَّواتى من أناسٍ أضاعوهنّ ، لا أَدَع الَّذِينا[3]

ولم يأخذ الناقدون عليه استعماله للألفاظ المهجورة تماماً ، كما هو الحال عند الطرماح ، وإنما انصبّ النقد على تسامحه فى تعاطى اللغة الدارجة . فمثلا يُخَطِّئه الأصمعى فى البيت الذى قاله فى هجاء يزيد بن خالد بن عبد الله القسرى :

أبرق وأرعِد يا يزيـ ـدُ فما وعيدك لى بضائر

لاستعماله صيغة الرباعى المهموز من : برق ورعد ، مع أن الاستعمال الفصيح لا يعرف إلا صيغة الثلاثى[4] : مجازاً فى التهديد والوعيد . وأخيراً ، أساء الكميت

---

(١) سيبويه ج ٢ ص ٣٩ (Derenbourg) ؛ خزانة الأدب ج١ ص ٦٧ ؛ ٨٦ وغير ذلك

(٢) انظر الأغانى ج ١٣ ص ١٤٥ ؛ ابن قتيبة : أدب الكاتب(نشر Grünert) ص ٥٩١ وشرح البطليوسى عليه ص ٤٦٧ والجوالبقى ص ٣٩٣ ؛ الحريرى : درة الغواص ص ١٤٨ (نشر Thorbecke) .

(٣) خزانة الأدب ج ٢ ص ٥٦٠ ومثل هذا الاستعمال يوجد فى العبارة المشهورة : بعد اللتيا والتى . انظر : الميدانى (١٣٤٢ هـ) ج ١ ص ٨٢ .

(٤) شواهد الفعل الثلاثى فى المعنى المجازى مستفيضة ؛ انظر ابن قتيبة : أدب الكاتب ص ٤٠٠ ؛ ديوان المتلمس (Vollers VI 15) أما الفعل الرباعى بهذا المعنى فقد جاء فى بيت للمهلهل عده الأصمعى مزوراً (أغانى ج ٤ ص ١٤٩ ؛ المبرد : كامل ص ٦٢٥ ، المرزبانى : موشح ص ١٩٦) وكما فى البيت المنسوب إلى عبدالله بن الحارث السهمى (ابن هشام ص٢١٦ × ٢١٦) والذى روى أنه سمى : المبرق بسببه ؛ وفى بيت للزفيان (انظر ديوانه : آلورد VIII 4) ، وللعديل ابن الفرخ العجلى معاصر الحجاج (الحماسة ص ٣٤٨) . ونظراً لهذه الشواهد المختلفة يعد كل من أبى عبيدة وأبي عمرو (انظر : اصلاح المنطق ج ٢ ص ٥٨) وأبى زيد (انظر القالى : أمالى ج ١ ص ٩٦) صيغة الرباعى ، كصيغة الثلاثى فصيحة .

التي فهم بعض التعبيرات فى لغة البدويين — عرضا — لقلة بصره بشئونهم ؛ فهو مثلا يقول : نار أبى حُباحب[1] ، فأخطأ فى فهم العبارة المشهورة : « نار الحُباحب[2] » ، وظن أن لفظ حُباحب ، الذى معناه : اللهب أو دويبّة حمراء تشبه اللهب ، اسم رجل عربى بخيل ؛ كما أخطأ فى ذلك أيضا من تابعه من اللغويين[3] .

على أنه ، حتى عند آخر من يحتج بشعره من الشعراء البدويين : ذى الرمّة ، المتوفى ١١٧ هـ توجد هنا وهناك صيغ مولّدة . حقاً لقد كانت علاقته بالشعر القديم ، إذ كان بدويا ، تختلف اختلافا تاما عن علاقة الكميت ؛ كما صانته خبرته ودرايته العميقة باللغة والطبيعة العربية من الوقوع فى أخطاء صريحة . بيد أنه — على الرغم من ذلك — قد ظهر أثر العصر الجديد فى لغته أيضاً ؛ فهو مثلا يستعمل[4] فى القصيدة ٨٧ بيت ٢٩ ، لفظ : زوجة ، بدلاً من اللفظ القديم : زوج ؛ وهي صيغة جديدة وردت عند الفرزدق من قبل ، ص ٦٠٥ س ٥ ؛ ولكنها مرفوضة من الأصمعى[5] ، رعاية لاستعمال القرآن اللغوى فيما يظهر . ويخطىء الأصمعى أيضاً استعمال ذى الرمة قصيدة رقم ١٧ بيت ١٠ ، ٢٢ بيت ١٣ ، لفظ : أُدمانة ، بمعنى بيضاء اللون (ظبية) ، بحجة أن لفظ الجمع وهو : أُدْمان (جمع آدم) لا يصح أن يأخذ علامة تأنيث ، ولا يصح غير : أدماء[6] . وإذا كان علماء آخرون يشيرون إلى أن الوصف

---

(١) العينى : شرح الشواهد الكبرى ج ٤ س ٣٦١ ؛ تاج العروس ج ١ س ٢٠٠ ؛ خزانة الأدب ج ٣ س ٢١٣ (نار أبى الحباحب)

(٢) النابغة : قصيدة ١ بيت ٢١ ؛ حاجز : أغانى ج ١٢ س ٥٢ ؛ القطامى قصيدة ١٥ بيت ٤٠ ؛ أبوحية (رواه الجاحظ فى الحيوان ج ٤ س ١٥٥ ؛ الميدانى : ج ١ س ٢٣٢ ؛ الدميرى (١٤٧/٣ هـ) ج ١ س ٣٣٤ ؛ ابن الشجرى : أمالى ج ٢ س ٥٨ ؛ وانظر أيضا : A. Fischer Der koran des abu l'Ala' al-ma'arri, Leipzig 1942 s. 58-63

(٣) انظر : Nöldeke Beiträge zur semitischen sprachwissenschaft 118,10

(٤) أخذت الشواهد المتعلقة بذى الرمة من : The Diwan of Ghailan b. uqbah known as Dhu'r-Rummah ed. by C.H.H. Macartny, Cambridge 1919.

(٥) المرزبانى : موشح س ١٨٠ ؛ تاج العروس ج ٢ س ٥٤ .

(٦) ابن دريد : الاشتقاق س ٤٤ (وأدمانة غلط) ؛ تاج العروس ج ٨ س ١٨١

على فُعلان بالمعنى الإفرادى يصح أن يأخذ علامة التأنيث (مثل : خُمصان[١] وخُمصانة بمعنى : أهيف وهيفاء) ، فلا ينطبق ذلك على ما نحن فيه ؛ لأن أُدمان — كما ذكر — ليس بمفرد . وحقيقة يبدو أن لفظ : أُدمانة لم يرد فى الشعر القديم ؛ وهذا البيت الذى يساق كثيرا[٢] :

إنسانة الحى أم أُدمانة السَّمُرُ بالنَّهى رقَّصها لحن من الوتر

والذى ينم[٣] فيه أيضاً لفظ : إنسانة ، مؤنث إنسان ، على أنه متأخر ، إنما قيل فى القرن الخامس . وقائله رجل من زعماء بدو المنتفق اسمه : كامل ، كان فى خدمة الوزير السلجوقى : كُنْدُرى ، سنة ٤٥٠ ﻫ بالبصرة . وقد سمع منه القصيدة التى يقول فى مطلعها[٤] هذا البيت ، الباخرزى ، حاجب كندرى . وكذلك ، فى دائرة التركيب النحوى ، تظهر فى لغة ذى الرمة ، بين حين وآخر ، سمات من غير الفصحي ، مثل حشوه : « إلا » الزائدة فى البيت ١٧ من القصيدة ٢٤ :

حراجيج ما تنفك إلا مُناخـــة على الخَسف أو نرمى بها بلدا قفرا

ويظهر أنه قصد من ذلك إلى إبراز معنى الحصر فى وضوح[٥] . كما أن وضعه لفظ : «لا» جواباً على ترديد السؤال ، بدلاً من « بل» فى البيت ٣٠ من القصيدة ٨٧ ، من الاستعمال المولّد[٦] . وأيًا مّا كان الأمر فإن هذه الظواهر عنده من النُّدرة

---

(١) ورد هذا اللفظ فى شعر ذى الرمة ، قصيدة ١ بيت ١٣ ؛ وأبى وجزة فى تاج العروس ج ١٠ ص ٢٦٩

(٢) انظر تخريج هذا البيت فى فهارس الشواهد : Fischer u . Bräunlich Schawahid - Jndices 102 p11

(٣) ورد لفظ : إنسانة لأول مرة فى شعر المتنبى ؛ انظر تاج العروس ج ٤ ص ٩٩

(٤) انظر الباخرزى : دمية القصر (١٣٤٩ ﻫ) ص ٢٧ — ٢٩ .

(٥) المرزبانى : موشح ص ١٨٢ ؛ ١٨٤ وانظر فى تخريج ذلك على مختلف الوجوه ، ابن الأنبارى : الانصاف ص ٧١ فما بعدها ؛ خزانة الأدب ج ٤ ص ٤٩ فما بعدها ؛ على أن عبارة : ما ينفك إلا ، قد وردت عند بعض المدققين مثل الحريرى (انظر ياقوت : ١ إرشاد ج ٦ ص ١٧٢)

(٦) هكذا يقرر المؤلف محيلا على المبرد : كامل ص ٢٦٠ ، بيد أن الأخلق أن يجعل اللحن فى السؤال بلفظ : أم ، التى يطلب بهـا تعيين أحد الأمرين مع الإيقان بحصول أحدهما . وظاهر الكلام فى البيت المشار إليه أن السؤال عن التصديق بأحد الأمرين أى أن السائلة تجهل حصول =

بحيث لا يمكن أن تغض من مكانة ذى الرمة ، من حيث إنه من الشعراء المحتج بهم .

وها هو ذا الأصمعى الذى عُنى[١] كثيراً بهذا الشاعر ملقيا[٢] نظره بصورة خاصة على الظواهر المولّدة ، ينتهي إلى تقرير أن ذا الرمة حجة فى شئون اللغة ، لأنه بدوى ؛ على الرغم من أن شعره ، ما عدا الدالية XVII ، لا يشبه شعر العرب[٣] . وهذه السّمات المولّدة ناشئة من إقامة ذى الرمة فى أرض « السواد » الخصيبة ، أو كما يقول الأصمعى فى عرض تصويرى[٤] : « إن ذا الرمة قد أكل البقل والمملوح فى حوانيت البقالين حتى بَشِم » .

وبينما كان شعر « البلاط » والأحزاب السياسية فى الدولة العربية يتصرف فى الحدود المتعارفة لأشعار البدويين ، ويجعل قدوته ومثاله فصحاء الجاهلية الأولين ، بدى شعر الغزل ، الذى ازدهر بالحجاز فى أوائل العصر الأموى ، صورة بعيدة عن البداوة من الوجهة اللغوية أيضا . وممثلو هذا الشعر الغزلى كانوا فى الأعم الأغلب من بيت الملك ، أو من رجال آخرين من ذوى النسب الرفيع ، من الشبيبة الذهبية فى الدولة : jeunesse dorée ، التى لم تكن مشبعة بمطمح سياسى أيّاً كان ، بل تفضّل أن تقضى عيشها ، فى وطن الأسرة القديم ، مستغرقة فى جميع صنوف الملاذّ ، التى كان المجتمع الحجازى المرح الخالى من الهموم يبالغ[٥] فى عرضها وتقديمها . وأشعارهم السهلة السائغة انبعثت عن تجارب الحب الخاصة ، والمغامرات التى تحدوها الرقة والظرف .

= واحد منهما ، فكان المقام للفظ : أو ، بدلا من : أم . وعلى هذا فالجواب بلفظ : لا صحيح نظراً إلى قصد السائل لا إلى لفظ السؤال ، لأن لا : مثل : بل ، يجاب بها فى التصديق لا فى التعيين . انظر رغبة الآمل ج ٤ ص ١٨٣

(١) كثيراً ما اعتمد صاحب الخزانة (انظر ج ١ ص ٢٨٤ الخ) على شرحه لديوان ذى الرمة .

(٢) مما يدخل فى المولد استعماله لفظ : إيه ، فالأصمعى يرى وجوب تنوينه (انظر ياقوت : إرشاد ج ٣ ص ١٤ ؛ خزانة ج ٤ ص ٢٣٨) ؛ كما اعترض الأصمعى على لفظ دوم بالمعنى المراد فى البيت ٩٥ من قصيدة ١ ، إذ أن دوم معناه الدوران في الهواء . انظر الديوان .

(٣) انظر الأصمعى : فحولة الشعراء (نشر C. Torry فى مجلة الجمعية الشرقية : ZDMG 65,503,17) ؛ المرزباني : موشح ص ١٧٠

(٤) المرزبانى : موشح ص ١٨٠ ، انظر أيضاً السهيلى : الروض الأنف ج ١ ص ٢١٠

(٥) انظر Wellhausn Das arab,Reich, 101 .

وأعظمهم خطرا عمر[1] بن أبي ربيعة (٢٣/٦٤٤ — ٩٣/٧١٢) الذى يمتاز تعبيره المصقول الطبيعى ، المتأثر تأثرا خفيفا بلغة الحوار فى أرق المجتمعات العربية ، امتيازا واضحا — من حيث مادته اللغوية قبل كل شيء — عن عربية البداوة ، الشديدة الأسْر ، المفعمة بالقوة .

ويبدو أن نفس دوائر المجتمع الحجازى هذه ، هى التى ظهر فيها لون فنى آخر من شعر الغرام فى أوائل العصر الإسلامى . تلك القصص الغرامية العاطفية التى لعبت دورها بين البدو فى السهول والهضاب ، مثل قصة ليلى والمجنون وغيرهما من أزواج القصص والروايات . ولم يكن مجهولا لدى بعض[2] علماء اللغة من العرب أن هذا « المجنون » شخصية غير تاريخية . ونحن مدينون لابن الكلبى بهذا الخبر ، من أن شاباً أمويا وقع فى عشق ابنة عم له ، فاختار قصة ليلى والمجنون لتكون إطاراً لشعره فى التشبيب ؛ ولكيلا يشيع اسم حبيبته بين الناس . وكذلك تلك القصص المؤثرة ، عن بنى عذرة[3] ، الذين يموتون إذا أحبوا[4] ، تعتبر من مبالغات شعر العاطفة عند البدو (Beduinenromantik) التى لعبت فى المجتمع الإسلامى دورا كبيرا .

هذا ، فتشدد الطبقة العليا من العرب فى المحافظة على العربية ، التى كانت معرضة دائما ، من حيث هى لغة البداوة ، لخطر الفساد والانحلال فى المدن بما تحتوى عليه من سكان أخلاط ؛ وظهور « حركة التنقية اللغوية » ، التى كانت تلحّ باطراد فى تطهير اللغة وتخليصها ؛ وطموح المسلمين الجدد البعيدى الهمة إلى امتلاك ناصية العربية بجميع دقائقها وأسرارها ، كل ذلك قد أوجد الدافع — فى نهاية القرن الأول — إلى دراسة القواعد ، التى كانت تجعل نصب عينها فى أغلب الظن

---

(١) انظر Kratschkowsky, EI III 1057 f
(٢) أغانى ج ٢ ص ٢ (طبع دار الكتب).
(٣) انظر Levi Della Vida, EI IV 1071 f
(٤) الجمحى ص ٦ (نشر : Hell) .

— كما هى الغاية العملية — تحديد الاستعمال اللغوى الصحيح بصورة أساسية ، والتى لم تستطع الابتعاد — بسبب طابعها القياسى — من الأثر الشخصى ، والاشتغال بالتوافه ، كالمماحكات اللفظية وماشابهها . وقديما روى عن ابن أبى إسحاق الحضرمى القارئ (حوالى ٢٩ — ١١٧ هـ) أنه وجّه [١] إلى الفرزدق نقدا واهيا . وقد حملته دراسته للقرآن على الاشتغال بأمور اللغة . ويقال إنه توسع توسعا كبيرا فى استعمال القياس اللغوى ، كما أنه كان يلاحظ اللهجات الخاصة [٢] ، وكان — فوق ذلك — مولعا ، لكونه من الموالى ، بالعثور على شىء فى لغة البدويين يتناوله بالنقد والتصحيح . ولما وقع الفرزدق فى « الإقواء » الذى لم تسلم منه أحيانا لغة الجاهليين أنفسهم [٣] ، حيث ضم القافية بدلا من كسرها فى البيت :

على عمائمنا تُلقى وأرحلنا على زواحف تُزجى مخُّها رِيرُ

أى ذائب ، تعامى ابن أبى إسحاق — عمداً — عن هذا الإقواء ، ورواه كما لو أن الفرزدق قال : رِيرِ بالكسر ، وأنه خالف بذلك قواعد العربية . ولهذا غير الفرزدق قافية البيت إلى : على زواحف نزجيها محاسيرِ [٤] . وقد روى البيت على هذه الصورة السليمة من العيب ؛ فى الديوان [٥] . وقد ثأر الفرزدق لنفسه من ناقده بالبيت المشهور :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكنّ عبد الله مولى مواليا

---

(١) الجمحى : طبقات س ٦

(٢) تجد أمثلة لذلك فى الجمحى : طبقات س ٦ ؛ فهرست س ٦٢ ؛ ابن جنى : المحتسب فى سورة البقرة آية ٣٥

(٣) انظر ديوان النابغة ، قصيدة ٧ ؛ وانظر الأغانى ج ٩ س ١٦٤ ، وديوان امرىء القيس (طبع السندوبى) س ١٣٦ ، ١٣٧ ؛ س ١٤٦ س ٧ وديوان الفرزدق (طبع الصاوى) س ١٧٢ س ٧ ؛ س ١٨٢ س ٧،٤ س ١٨٤ س ٣ س ١٩٣ س ٦ الخ .

(٤) الجمحى : طبقات س ٧ ؛ وفى الرواية المساوقة عند المرزبانى : الموشح س ١٠٠ وابن قتيبة : الشعر والشعراء س ٢٥ أن ابن أبى اسحاق أخذ على الفرزدق الاقواء فحسب ، وفى رواية أخرى أن الذى عاب الاقواء على الفرزدق هو عنبسة بن معدان ، انظر المرزبانى فى الموضع المذكور .

(٥) طبع الصاوى (القاهرة ١٣٥٤ هـ) س ٢٦٣

بيد أنه سرعان ما أرشد[١] الفرزدق إلى أن الصواب يتعين أن يكون مولى موال وكذلك لم تقف شهوة التمحيص عند ابن أبي اسحاق أمام الشعراء والأولين. فقد رأى في بيت النابغة (آلوَرْد XVII ، ١١) :

فبتّ كأنى ساورتنى ضئيلة   من الرُّقش فى أنيابها السمّ ناقع

أنه يجب أن يكون فى غير الضرورة[٢] : ناقعاً . وعلى عكس ذلك بلغت سخرية خصومه منه أن أخذوا عليه أنه ، مع كل نقده لتحقيق الصواب ، لم تكن لغته على ما ينبغى[٣] .

وقد أخذت مثل هذه الاعتراضات تفقد ، فى أثناء ذلك باطراد ، طابع النظرية الاختيارية ، والرأى العارض ، كلما تقدمت العناية باللغة ، فصارت طريقة خاصة للنظر فى القواعد . وقد فسح القارىء اللغوى ، المشهور أيضاً ، أبو عمرو بن العلاء (حوالى ٧٠ — ١٥٤ هـ) ، مجالا فى نقده للنظر فى القواعد ، ولم يتورع حتى عن تصحيح متن القرآن ؛ فقد غيّر فى[٤] آية ٦٣ من سورة طه : إنْ (أوْ إنَّ) هذان ، إلى : إنَّ هذين[٥] ورتب ترتيبا نحويا سليما[٦] فى تغييره آية ١٠ من سورة المنافقين : وأكن ، بالجزم ، إلى : وأكون بالفتح ، بل حتى الظاهرة الصوتية المحضة ، كالانتقال من الواو المضمومة إلى الهمزة المضمومة ، لم يرد أن يعتدّها ، فقرأ : وُقِّتَتْ ، بدلا من : أُقِّتَتْ[٧] . وإذا كان يجترئ على مثل هذا التغيير

---

(١) الجمحى : طبقات ص ٧ ؛ سيبويه ج ٢ ص ٥٣ ، ويوجد مثل ذلك فى شعر عنترة ص ٣٦ (نشر آلورد) وفى بيت ٣٧ من مرثية مالك بن الريب (القالى : ذيل الأمالى ص ١٣٧) وغير ذلك

(٢) انظر سيبويه ج ٢ ص ٢٢٣ والمواضع التى ذكرها فيشر فى فهارس الشواهد ص ١٤٠

(٣) ياقوت : إرشاد ج ٢ ص ٣٧١ ؛ ابن الجزرى : غاية النهاية ج ١ ص ٤١٠ .

(٤) لم يغير أبو عمرو ، وإنما هى قراءة رواها عن الثقات وكذلك فيما نسب إليه بعد ؛ وإذا كان قد روى عن بعض القراء تخطئته ، فلتعارض الروايات وترجيح بعض القراء لبعضها دون الآخر . وانظر كتب القراءات والتفسير فى ذلك .

(٥) عالج ابن يعيش هذا الموضوع بتفصيل فى شرح المفصل ص ٤٤٧

(٦) انظر : Fleischer, Beiträge Zur arab. sprachkunde VII 82

(٧) الدانى : المقنع ص ١٢٢ ، وفيه أيضاً بعض ما اختص به أبو عمرو من القراءات ، على أنه لم يسلم من الاعتراض ، وقد لحن المبرد قراءتين له (نزهة الألباء ص ٣٦٤) ، إحداهما : عاد الولى

فى صلب الكتاب الكريم ، فهو أجدر ألّا يتراجع نقده بالضرورة ، إزاء نصوص الشعر ؛ فقد أخذ على الشاعر : ابن قيس الرقيّات (حوالى ٨٥ هـ) أنه ألحق بضمير المفرد المتكلم الهاء ، فصار : يَه ، بدلا من : ىِ (فى قصيدته رقم ٤٠ . Rohd) للقافية على الرغم من ورود ذلك فى القرآن[١] أيضا . كما أن تلميذاً لأبى عمرو ، هو يونس بن حبيب الفارسى (حوالى ٩٠ — ١٨٢ هـ) ، اعترض على هذا الشاعر أيضا بأنه استعمل لفظ : يالَغَانِ ، وهو لهجة خاصة فى : يَوْلَغَانِ ، مع أن الجائز هو الثانى فقط[٢] . وقد أدى هذا الاعتراض إلى تغيير النص إلى : يَوْلغان ويُولَغان ، على المعلوم والمجهول ، وأبعد بذلك كل اعتراض . ورواية المجهول للتخفيف غلبت على الرواية الأصلية فى نسخ الديوان المتناقلة ، وسادت هـذه الرواية فى القرن الثالث حتى إن ثعلباً (المتوفى سنة ٢٩١ هـ) ساق البيت على هذا التغيير ، شاهداً على : يُولَغ مبنياً للمجهول بمعنى : أولغه صاحبه ، أى حمله على أن يلغ[٣] ، وإن لم يسم الشاعر . وهذا المثال يبين مدى ذلك الدور الذى كان يلعبه تصحيح النحاة فى تاريخ رواية الأشعار العربية القديمة ، وإن كان فى أحوال أخرى — وهى أغلب الأحوال — لم يكتب للنقد شىء من الانتصار . كما أخذ على « كُثيّر » أنه استعمل[٤] فى بيت[٥] ، بدلا من : ترأم بالهمز ، وهى الصيغة الفصيحة : ترَمِ ، بالتسهيل ، وهى لهجة الحجاز ؛ بيد أن الصيغة المنتقدة هى التى غلبت ، لتحصنها بالقافية .

= بالادغام بدلا من : عادا الأولى ؛ والأخرى : يؤده (آية ٧٥ من سورة آل عمران) بتسكين الهاء (انظر الدانى : تيسير فى الآية المذكورة) . ولا وجه للمبرد فى التخطئة ، لما ذكرنا من صحة الرواية عند أبى عمرو ، والمبرد إنما يحكم قواعد النحو التى صحت عنده . ولا شك أن العربية أوسع من نحو المبرد .

(١) انظر : Rhodokanakis فى مقدمته للديوان ، ص ٦١ ؛ المرزبانى : موشح ص ١٨٧ ؛ نولدكه : تاريخ القرآن ج ٣ ص ١٩٩

(٢) الأغانى ج ٥ ص ٨٧

(٣) فصيح ثعلب ص ٣ وملاحظات Barth عليه .

(٤) المرزبانى : موشح ص ١٤٦

(٥) انظر الديوان (نشر : Pérès) .

عربية الدولة ، ولغة الشعب فى أوائل العصر العباسى

١٣٢/٧٥٠ — ١٧٠/٧٨٦

لم تهو العربية فى هوّة السقوط الذى حاق بالدولة العربية ، على الرغم من أن جزيرة العرب وسورية بالذات ، أى الإقليمين الوحيدين اللذين لم يكن اللسان العربى فيهما قلة تجاه ألسنة أصيلة الديار ، هما اللتان أصابهما هذا الانقلاب السياسى بشدة وطأته فى الصميم . ولماذا لم تنزل عن المسرح ، مع طبقة السادة العرب الذين كانوا ، حتى ذلك الوقت ، لا يزالون ممسكين بزمام القيادة والتوجيه ، لغتهم كذلك ؟ ربما كان سبب ذلك هو أن لغة القرآن قد صارت فى شعور كل مسلم ، أيًا كانت لغته الأصلية ، جزءاً لا ينفصل من حقيقة الإسلام ، حتى إن الفرس الذين باشروا الحكم إذ ذاك ، لم يكونوا يستطيعون التفكير فى رفع إحدى اللهجات الإيرانية لتكون لغة الدولة . بل حتى فى فارس ، كان يجب أن يمضى قرن بعدُ لتحتفل اللغة الحديثة للأدب الفارسى ببعث حياتها . وقد انضم إلى هذا أن الأسرة الجديدة أخذت تبرز الطابع الدينى لسلطانها بوجه خاص ، وصارت تعلن أنها وريثة السلطان الإلهى الذى أسسه محمد [صلى الله عليه وسلم] . بيد أنه كان من العوامل الحاسمة أن الطبقات المتميزة فى المجتمع الإسلامى الأوسط ، إنما أحرزت رقيها الاجتماعى منذ أجيال بمجاراتها للطبقة السائدة العليا من الوجهة اللغوية ، إذ أخذت عنها مثلها الأعلى فى الثقافة العربية لا لغاية قصيرة الأمد ، بل تمسكت بها أيضاً ، بعد أن حقق لها سقوط الدولة الأموية المساواة الكاملة للعنصر العربى . بل حتى الشعوبيون الذين ادعوا تفوق الشعوب غير العربية ، لم يستطيعوا أن ينقصوا شيئاً من مكانة العربية وقيامها مثلا أعلى . وهكذا شهد العصر العباسى الأول ، فى مدارس النحاة بالبصرة والكوفة ، الباكورة الأولى للعلم العربى ، كما رأى فى نحو الفارسى « سيبويه » (المتوفى حوالى ١٨٠/٧٩٦) أول وضع شامل لقواعد العربية ، لم تغير الأجيال المتأخرة شيئاً من أسسه

وقواعده ، وإن وسعته توسيعاً مختلف النواحى ، أو غيرت من صوره وقوالبه . وكتاب سيبويه يرينا كيف أن القواعد العربية اعتمدت على الاستعمال اللغوى عند عرب البادية دون استثناء . فهو يرجع دائماً فى شئون الاستعمال اللغوى إلى «العرب» ولا يحيد فى ذلك عن ترجيح كفة اللسان الحجازى[١] ، بأنه « الأول والأقدم » ، وغالباً يكتفى فى ذلك بعبارات عامة ، مثل : « العرب الذين ترضى عربيتهم[٢] » أو : « العرب الموثوق بعربيتهم[٣] » أو : « عربى أثق بعربيته[٤] » وهى عبارة حملها بعض المتأخرين غلطاً على أبى زيد الأنصارى (المتوفى ٢١٥ هـ[٥]) ، أو ببساطة : «العرب الموثوق بهم[٦] » ؛ أو أخيراً : « فصحاء العرب[٧] » . كذلك لا يسوق فى شواهده شاعراً محدثاً قط ، على الرغم من أنه لم يكن يقيس — بحال — لغة الشعراء بمقياس أصحاب « حركة التنقية » المترددين المتخوفين ؛ فهو يستشهد بعدىّ بن زيد وأبى داود ، اللذين لم يروعرب البادية أشعارهما ، بشهادة الأصمعى ، لانحراف لهجتهما عن لغة نجد[٨] . وهو يستشهد — على النقيض من أكثر علماء اللغة[٩] — بأمية بن أبى الصلت وغيره من بنى حنيفة ، وهو يعتمد — خلافاً للأصمعى[١٠] — الكميت والطرماح فى الاحتجاج بشعرهما . وهو يستشهد بزياد

---

(١) سيبويه (١٣١٦ هـ) ج ٢ ص ٤١ ، وانظر ج ٢ ص ٤٢٤ .
(٢) سيبويه ج ٢ ص ٤٢٣ ، وانظر ج ١ ص ٩٣ .
(٣) سيبويه ج ١ ص ١٥٣ ، وانظر ج ١ ص ٤٥١ ، ج ٢ ص ٢٦٤ .
(٤) مثل ج ٢ ص ٥٩ س ١٢ .
(٥) ابن قتيبة : معارف (فستنفلد) ص ٢٧٠ .
(٦) ج ١ ص ١٩٨ س ٥ ؛ ص ٢١٠ س ١٠ ؛ ص ٢٢٢ س ١ ؛ ص ٣٨١ س ١٥ — ج ٢ ص ٢٩٠ س ٤ ؛ وانظر : ج ١ ص ٣٣١ س ١٣ ؛ ج ٢ ص ١١٠ س ١٠ ؛ ص ١٦٧ س ١٢ الخ .
(٧) ج ١ ص ٤٧٧ س ٧ ؛ ج ٢ ص ٢٠ س ٢٠ ؛ ص ١٤٧ س ٤ ؛ ١٨ ؛ وانظر ج ٢ ص ٥٢ س ٤ .
(٨) المرزبانى : الموشح ص ٧٣ س ١٩ .
(٩) انظر ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٢٧٩ س ١٠ .
(١٠) المرزبانى : الموشح ص ١٩١ .

الأعجم وأبى عطاء السندى ، كما يترك مجال القول أحياناً لمعاصرين قدماء ، مثل : رؤبة وأبى نخيلة ؛ لكن لا لشاعر محدث البتّة . ذلك أنه إذا كان قد استشهد مرة[١] ببيت زوّره — فيما يقال — أبو يحيى اللاحق (يظهر أنه : أبان بن عبدالحميد) أو ابن المقفع ، بقصد التعمية على النحوى العظيم[٢] ، فلا يعدو الأمر — مهما يكن نصيب هذه الرواية من الصحة ، أن يكون من قبيل السهو . وفى بيت آخر ، يوجد حقاً فى متن الكتاب بأيدينا : « لرجل من بنى سلول مولّد[٣] » . ولكن هذه الجملة من وضع مُخْرِج الكتاب ؛ فقد ثبت لدينا بصورة أكيدة أن سيبويه ساق جميع شواهده دون تسمية الشعراء[٤] ، وذلك الرأى يجد تأييداً له فيما أضيف إلى الجملة السابقة وهو : « ويقال : وضعه النحويون[٥] » ، فصريح أن هذه الزيادة لا يمكن أن تكون من قول المؤلف . وأخيراً تريد إحدى الروايات أن تعرف أن سيبويه اعتبر شعر بشار حجة خوفاً من سلاطة لسانه . ولكن الكتاب نفسه يدحض هذه الرواية ، حيث نبحث عبثاً عن اسم بشار فلا نجد له ذكراً ؛ وفوق هذا فإن رواية أخرى — مساوقة لهذه — تضع اسم « الأخفش » النحوى بدلا من « سيبويه[٦] » .

كان البدو يعدُّون حجة لا يعتورها الشك فى جميع مسائل اللغة . وكم خلاف بين علماء اللغة حول التفسير الصائب لبيت من الشعر ، أو حول صحة تعبير من التعبيرات ، رفعه حكم بدوى حاضر عرضا . وحسبنا أن نذكر الحوار الخلاف ، الذى دار بين سيبويه والكسائى ، فى مجلس الوزير « يحيى بن خالد البرمكى » فى مسألة : « كنت أظن العقرب أشد لسعة من الزنبور » هل يقال بعد ذلك : « فإذا هو هى »

(١) ج ١ ص ٥٨ .
(٢) عبد القادر : خزانة الأدب ج ٣ ص ٤٥٦ .
(٣) ج ١ ص ٤١٦ س ٦ .
(٤) خزانة الأدب ج ١ ص ١٧٨ س ٢٦ .
(٥) ج ١ ص ٤٣٤ .
(٦) أغانى ج ٣ ص ٢١٠ .

أو : « فإذا هو إياها[١] » . وفى ذلك الوقت كان البدو يجدون مدخلا إلى بيوت السادة ، من حيث هم حجج اللغة . ولا تزال بأيدينا أسماء « فصحاء الأعراب » الذين دفعتهم الضرورة — تحت إهمال العباسيين — من أوطانهم اللاهثة المتوجعة ، ليقدموا معارفهم اللغوية إلى السادة الجدد[٢] . وقد كان أبلغ آيات التقريظ التى توسم بها لغة أحد المثقفين ، أنه ينطق كما ينطق البدوى ، وتلك الطريقة الكلامية الخالية من كل تفكير ، والتى يتحرر فيها المتكلم من علامات الإعراب ، وتصاريف القواعد ، جريا على السليقة ، بحيث يستطيع السامع أن يفهم غرضه دون لبس ، لم تكن بعد — فى القرن الثانى — أمراً طبيعياً (على النقيض من التعبير الرفيع المكتسب بالدرْبة والتلق) ؛ بل كانت تعد تهاونا وإهمالا[٣] . وقد كانت مثل هذه السلامة اللغوية تؤثر مثلا عن أبى سعيد المعلم (المتوفى سنة ١٦٩ هـ) الذى جعله[٤] المنصور مؤدبا للخليفة اللاحق « المهدى » ، والذى جعله[٥] المهدى بعد ذلك معلماً لابنه وخلفه « الهادى » ، وكانت تؤثر[٦] أيضا عن اللغوى المشهور « أبى زيد الأنصارى » (المتوفى سنة ٢١٥ هـ) . كذلك الراويان البصريان : خالد بن الحارث (١٢٠ — ١٨٦ هـ)[٧] ، وبشر ابن المفضل (المتوفى ٧—١٨٦ هـ)[٨] ، روى أنهما كانا ينطقان لهجة سليمة لاشية

---

(١) انظر : A. Fischer فى الكتاب التذكارى لتكريم E. G. Browne (A Volume of oriental Studies) ص ١٥٠ — ١٥٦ : تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١٠٥

(٢) فهرست ص ٤٣ س ٢٧ .

(٣) انظر تفسير كلة السليقة عن الليث معجم Lane ص ١٤١١ ؛ وانظر الجمحى : طبقات ص ٥ س ١٦ .

(٤) تاريخ بغداد ج ٣ ص ٣٥٣ ؛ ابن قتيبة : معارف (طبع ١٣٠٠ هـ) ص ١٨٥ ومابعدها .

(٥) ابن سعد ج ٧ ص ٢ .

(٦) الجاحظ : بيان ج ٢ ص ٥ س ١٤ ؛ وانظر أيضاً ج ١ ص ٦٨ س ٢٩ . وهو ينقل فى المكان الثانى عن « أبى العاص ... ويريد به — فيما يظهر — ابن عبد الوهاب الثقفى المتوفى ١٩٤ هـ ، الذى اشتهر بكتابة رسالة فى البخل (الجاحظ : بيان : طبع Van Vloten ص ١٦٢ — ١٨٢) . وللوقوف على أخبار أسرته ، انظر الأغانى ج ١٧ ص ١٢ . هذا وقد كان الملاحظات النظرية مقام لا يستهان به فى لغة أبى زيد ، فقد كان يراعى « القياس » والإجماع وما أشبه ذلك . انظر : نوادر أبى زيد ص ٦٧ فما بعدها .

(٧) الذهبى : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٢٨٤ ؛ ابن حجر : تهذيب ج ٣ ص ٨٢ .

(٨) ابن حجر : تهذيب ج ١ ص ٤٥٨ فما بعدها .

فيها[1] ، كما يروى عن جرير بن حزم (٨٥ — ١٧٠ هـ) فى مبالغة بليغة ، أنه كان ينطق عربية أفصح من عربيــة « معد » [2] . أما أنّ هؤلاء الرجال ، باستثناء أبى سعيد المعلم وحده ، كانوا يعيشون بالبصرة ، فلم يأت ذلك مصادفة ولا اعتباطا ، فإن البصريين الذين كانوا يفاخرون[3] بمدرستهم النحوية ، وينافرون بكتاب « سيبويه » ومعجم « الخليل » ، كانوا يبرزون بحق — فى عصبيتهم المحلية طبعاً — وهم مفعمون بالفخر ، أسماء أمثال أصحابهم هؤلاء الذين امتازوا بفصاحة خاصة فى اللغة .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد بدأت أيضا مرحلة جديدة فى تاريخ اللغة العربية مع خلافة العباسيين ببغداد سنة ١٣٢ — ٧٥٠ . لقد كانت الأسرة القديمة جدّ قريبة إلى أهــل البادية ، بحيث كانت تجد مدخلا مباشراً إلى عالم تفكيرهم ؛ وكانت تنطق بلسانهــم ، وتحسن فهم أشعارهم . حقا لقد كان العباسيون أيضاً يتمدحون بأصلهم العربى ، ويرفعون نسب سلالتهم إلى العباس ، عم الرسول ، بيد أنهم بعدوا عن حياة البدو بُعداً كبيراً ، كما لم يفعل أموى أيًّا كان . وكانت الدوائر الإسلامية الجديدة ، غير العربية الأصــل ، التى وصلت إلى الحــكم فى ذلك العهد ، تشعر أقل من ذلك بالصلة النفسية الداخلية بحياة العرب وطبيعتهم ، فهم لم يُنَشَّئُوا فى الخيام ، ولم يذوقوا طعماً لتلك الخشونة والحاجة التى تعرفها حياة البداوة وطبيعة الارتياد والانتجاع ، كما لم ينفذوا إلى عالم البدو الثرى الغنى بكنوزه وقيمه الخلقية والعادية والفنية ، على الرغم من كل ضيق فى وجهة النظر ، ومرمى الفكر . بل لقد عمرت الدوائر الإسلامية الجديدة تلك المدن العظيمة السريعة الازدهار ، فى دولة عالمية ؛ وأسهموا فى إقامة صرح حضارة ، نشأت تحت شعار الإسلام فى أرض الشرق الأوسط المحررة من السلطان الروحى للقساوســة ، ومن النظام الإقطاعى الذى كان سائداً بها من قبــل ، فهم لم يكونوا يستطيعون — حتى ولو

(١) الجاحظ : بيان ج ٢ ص ٥ س ١٣ .

(٢) ابن حجر : تهذيب ج ٢ ص ٧٠ س ١٦ .

(٣) انظر مثلا : تاريخ بغداد ج ٢ ص ١٧٧ س ٥ .

استخدموا العربية — أن ينطقوا كما كان البدو ينطقون ؛ بل صبُّوا أفكاراً حديثة فى قوالب اللغة القديمة ، وملأوها على هذا النحو بمادة جديدة . وما كان اعتباطا أن يأتى فى طليعة الأدب العربى لذلك العهد ، عصر المحدثين فى أول الدولة العباسية اثنان من الفرس : ابن المُقفع ، وبشار بن برد . وعلى الرغم من قوة نزوعهما إلى الشعوبية ، لم يفكر واحد منهما فى استخدام لغته الأصلية ، وإقامة وزن لها من الوجهة الأدبية ، بل اعتمدا على اللغة العربية .

وقد أخذ ابن المقفع « الفصاحة » فى البصرة عن أبى الجاموس[(١)] ، بدوى كان فى خدمة والى البصرة فيما بعد (١٣٣ — ١٣٧) سليمان بن على أحد أعمام الخليفة . ولقد استحوذ ابن المقفع على لوذعية وأستاذية فى تعاطى العربية ، بحيث استطاع أن يترجم كتباً عدة من الأدب البهلوى ترجمة مثالية . وتراجمه لأخبار الملوك : « خُدَاى نامه »[(٢)] وكتاب أنظمة الملك : « أيين نامه »[(٣)] وقصة مزدك[(٤)] ، وحياة بُرْزُويه[(٥)] ورسالة تَنْسَر[(٦)] ، قربت للمثقفين فى جميع الأقطار الإسلامية أشخاص أساطير البطولة الإيرانية وتاريخ الساسانيين ، كما جعلتهم على بصيرة بروح فارس وطبيعة حياتها قبل الإسلام . وكذلك الترجمة التى عملها بعنوان : « كليلة ودمنة » لخرافات الحيوان التى ألفها بَيْدَبَا (بِدْبَى Bidbai) ، جعلت هذه التحفة الأدبية العالمية التى يرجع أصلها إلى « مرآة لأمراء الهند » سهلة سائغة فى عالم الناطقين بالضاد ، كما بلغت مرتبة حاسمة ، نظراً لانتشارها فى المشرق والمغرب بوساطة ترجمتها وتهذيبها وتناولها كل متناول باطراد ، فى العربية ، والفارسية ، والسريانية ، والعبرية واليونانية . وأخيراً عمد ابن المقفع ، الذى اعتنق الإسلام لأسباب خارجية فحسب ،

---

(١) فهرست ص ٦٧ .

(٢) A. Christensen, L' Jran sous les Sasanides (1936) p. 54

(٣) الموضع السالف ص : 56 .

(٤) الموضع السالف ص : 63 .

(٥) الموضع السالف ص 418 ، 424 ، 434 .

(٦) الموضع السالف ص : 58 ، 325 .

إلى أن نقل فى سلسلة من مقالاته التثقيفية ، حكمة الشرق العملية الخلقية المستخلصة من تجارب الحياة التى لا تعترف بمبادىء مرسومة للعادات والتقاليد ، ولا يخدعها الوهم والخيال عن حقائق الناس ، والتى تعلّم فى برود وواقعية جافة — دون اكتراث لما جاء فى الأديان السماوية من مبادىء وفروض خلقية وأدبية — كيف يصنع المرء وكيف يصوغ نفسه ، إذا أراد أن يعيش فى العالم بعيداً عن المضار ، محظياً بالسعادة . وكذلك بلغت تلك المقالات نجاحا عظيما ، سواء من حيث موضوعاتها التى تملقت دوائر الثقافة الرفيعة فى المدن بسبب تساهلها الدينى ، أم من حيث أسلوبها الشائق البديع . نعم لم يعدم المؤلف ، حتى بعد وفاته المبكرة (سنة ١٤٢ هـ) خصوما كانوا — كالخليفة المهدى — يعدونه رأس الزندقة كلها [١] . على أنه بعد إبعاد ضرر المانية (الزندقة) خرست ألسنة المعارضة تدريجاً ، ولم يكن فقط رجل مثل البرمكى يحيى بن خالد (حوالى ١٠٢ — ١٩٠ هـ) الذى قدره حق قدره [٢] ، بل حتى الأصمعى المحافظ (المتوفى ٢١٣ هـ) يروى أنه كان يعجب بيتيمته [٣] . وفى أيام الجاحظ (المتوفى ٢٥٦ هـ) كان يدرس كل كاتب ناشىء كتبه [٤] . ومنذ ذلك العهد ، سمق مجد ابن المقفع غير مزعزع ، وعدّ من البلغاء اللامعين فى العالم العربى . بيد أن اللغة التى كتب بها ابن المقفع ليست هى العربية القديمة : فبموازنة هذه بتلك نجد لغة ابن المقفع سويّة ، شفّافة مبسّطة حسب أغراضها ؛ و بدلا من الثروة الفياضة فى المادة البدوية القديمة ، التى تجمع التنوع المتعدد الألوان لعالم الظواهر ، مع حشد من السّمات الخاصة ، التى تصور مثلا فروق الحيوان ، والأعمار ، والأجناس ، والألوان ، والصفات ، والخصال البارزة ، بكلمات خاصة ؛ كما تحتوى على قائمة من المفردات لأصوات الحيوانات ؛ تكتفى لغة ابن المقفع — إلى حد بعيد — بالتعبيرات

(١) أمالى المرتضى (القاهرة ١٩٠٧) ج ١ ص ٩٣ فما بعدها الخ .
(٢) ياقوت : إرشاد ج ٦ ص ٢٦٨ س ١١ .
(٣) ابن خلكان (١٢٩٩ هـ) ج ١ ص ٢٦٧ س ١٢ .
(٤) ذم أخلاق الكتاب (ثلاث رسائل للجاحظ ، نشر فنكل) ص ٤٢ س ١٥ .

العامة ، وتؤثر تصوير الخصائص البارزة بعبارات مقاربة . كما يعرب أيضاً استعماله اللغوى فى دائرة تركيب الألفاظ وصياغتها ، عن طموحه الدائم إلى التبسيط الموائم للغرض ، فكثير من صيغ الأسماء فى العربية القديمة يقل عنده أو ينعدم تماماً ؛ وأخيراً نجد تركيبه النحوى أيضاً واضحاً شفافاً ، وهو يتجنب كذلك الجمل التعبيرية المتنوعة الدلالة ، وصيغ التعجب والاستغاثة ، ويتفادى تصفيف الكلام ، والتداخل العسير الفهم ، وما شاكل ذلك مما يستفيض فى لغة البدويين . وربما بلغنا إقناعاً بما نقول إذا وازنا بين لغة ابن المقفع والنثر الأصلى البدوى القديم ، كما ورد فى أيام العرب ، أو كما جاء فى الحكم والأمثال .

والتغييرات التى تبدو فى نثر ابن المقفع ، بالنسبة للعربية القديمة ، وجدت نظيرها تماما — فى نطاق دائرة الشعر — فى لغة معاصره « بشار بن برد » (حوالى ٩٥ — ١٦٧ هـ) ، على الرغم من أن قوة الرواية ، وتقليد القدماء فى هذه الدائرة بالذات ، كانا يقفان عقبة فى طريق كل تطور فى الأسلوب . وكابن المقفع أيضا كان بشار فارسى الأصل ؛ وكان يعدّ مانيًّا مقنعًا . نشأ فى البصرة ، وكان بصيراً باللغة القديمة بصرا مؤسسا ، بحيث أدرك لتوّه عدم أصالة بيت مدسوس على الأعشى (رقم ١٣ ، بيت ٢)[١] . ولما علم أن الأمير سلم بن قتيبة الباهلى — كان واليا على البصرة ومات ١٤٩ هـ[٢] — محب للشعر على طريقة القدماء ، وأنه كان يعد نفسه بصيرا بالغريب ، تغنى بشار بمدحه فى أرجوزة ، ملأها بالنادر المتنخل من الألفاظ[٣] . وحينما أنكر عليه عقبة بن رؤبة حق الحكم فى الرجز ، والفصل فى تفضيل بعضه على بعض ، برهن هو على أنه يعرف أيضا مرمى بصره فى طراز الرجز[٤] . كما حقّر أحد البدو فى هجاء أصيل الأسلوب ، لأن هذا لم يطمئن إلى أنه

---

(١) أغانى ج ٣ ص ١٤٣ فما بعدها .

(٢) Zambaur, Manuel 40، ابن حجر : تهذيب ج ٤ ص ١٣٤ .

(٣) أغانى ج ٣ ص ١٩٠ . وقد قيل فى سلم أيضاً القصيدة المذكورة فى ص ١٠٠ من كتاب : المختار من شعر بشار «طبع بدر الدين» كما ذكره الأشناندانى فى : «معانى الشعر» ص ٤٠ .

(٤) أغانى ٣ ص ١٧٤ — ١٧٧ ؛ وانظر المختار ص ٢٧٥ ؛ الجاحظ : بيان ج ١ ص ٢٣ ؛ =

ذو ملـكة فى الشعر (١) لأنه مولى . وإذا قال بشار الشعر على طراز الأقدمين عن قصد ، وجدنا أشعاره تحمل طابع الصنعة والتعمل على جبينها ؛ على أنه لم يكن يبالى إلا نادرا بالقصد إلى المحاكاة والتقليد ؛ فإذا ما تنازل عن ذلك وجدنا أسلوبه يعرض تلك الأناقة الواضحة ، والبيان الناصع الشفاف ، الذى نجده فى نثر ابن المقفع . سمات أساسية تبدو جلية فى تعبيره ، سواء فى اختيار الألفاظ ، أم فى تركيب الجمل ، أم فى تفضيل العروض القصير الخفيف . وفى شعر الارتجال يمعن بشار فى التحرر من الشعر القديم ، حتى يستعمل أحيانا عبارات شعبية (٢) ، ورطانة نبطية (٣) ؛ وكان بشار يستعمل المزدوج والمخمس (٤) فى الهزل ، وفى تحقير الشعر القديم ؛ فهو يقحم مثلا فى أحد أبياته — لتحقير نبطى قلد أسلوبه فى النطق على ما يظهر — الـكلمات التالية :

لا دَهْلَ من جَمَـلاَ

أى لا خوف من الجمل (٥) .

وهذا التطور فى الأسلوب ، الذى نستطيع أن نشاهده عند ابن المقفع وبشار ، آذن بشروق عهد جديد فى تاريخ اللغة العربية ، دعا إليه الانتقال من حياة البداوة

= ابن رشيق : العمدة ج ١ ص ١٣٦ . ولفظ : طراز (أغانى ٣ ص ١٧٦) يمكن أن يضاف إلى الألفاظ التى جمعها جولدزيهر فى : Abhandlungen I, 29 ff. ، والتى تدل على تشبيه الشعر بالنسيج .

(١) أغانى ٣ ص ١٦٦ س ٩ .

(٢) مثل استعمال لفظ : « قارورة » أى زجاجة بمعنى : « المرأة » فى بيت له (أغانى ٣ ص ١٩٠) ، وقد ساق ابن حجر هذا البيت فى فتح البارى ج ١٠ ص ٤٥١ شاهداً على حديث البخارى : أدب ؛ مسلم : فضائل ؛ الطيالسى : مسند ؛ حيث ورد هذا الاستعمال المجازى .

(٣) انظر الجواليقى : المعرب ص ٦٧ س ٤ ؛ تاج العروس ج ٧ ص ٣٢٨ .

(٤) ابن رشيق : العمدة ج ١ ص ١٢٠ ؛ الجاحظ : بيان ١ ص ٢٣ ، يسميه صاحب منثور ومزدوج .

(٥) الجواليقى فى الموضع السالف ص ٦٧ س ٥ ؛ على أنه نسب البيت نفسه فى ص ١٣٤ إلى سراقة الباهلى الذى اشتهر بين سنة ٦٠ — ٧٠ هـ . وفعل دهل أو دحل بالفتح بمعنى خاف ، ورد فى إحدى الروايات (تاج العروس ج ٧ ص ٣١٩ ؛ وفى رواية أخرى : كنز العمال ج ٢ ص ٢٩٨ ، ورد بدلا من ذلك : « خاف » .

إلى حضارة المدن ، وتغلغل غير العرب ، فى مناطق الأدب . وذلك الطابع الوحشى للعربية القديمة بثروتها الفياضة فى الألفاظ والقوالب ، تراجع فى ذلك العهد أمام أسلوب منوّق مهذب ، لا يسبب استواؤه وسهولته صعوبات ذات بال للأفهام . وهذه اللغة السهلة ، المتسكبة ، الواضحة ، سرعان ما احتُذيت واستعملت فى الأدب من قبل المثقفين جميعا فى العالم الإسلامى ، دون تمييز بين أصل وجنس ، ولا بين لغة أصلية ولهجة وطنية خاصة . وبما أن الشعوب والأقوام فى المدن العظمى للدولة كانت أخلاطاً متعددة الألوان يموج بعضها فى بعض ، لم تستطع الدوائر العربية أن تتخلص من تأثيرها بصفة دائمة ؛ بيد أن كل هذا الانسجام والاستواء فى القوالب والأساليب ، وذلك الاطراد السطحى فى موافقة القواعد ، لم يكن ليستطيع أن يخدعنا عن أن القالب الداخلى ، والأسلوب الحقيق للغة الدولة الجديدة ، كان يحمل سمات مولّدة . وإلى أى مدى كانت الطبيعة العربية لا تزال مرهفة الإحساس إزاء كل أعجمية ؟ هذا ما يشير إليه ذلك الخبر المستفيض الرواية عن محاورة جدلية بين أبى عمرو بن العلاء (حوالى ٧٠ — ١٥٤ هـ) وعمرو بن عبيد مؤسس الاعتزال (٨٠—١٤٤ هـ) حول نظام الجزاء الإلهى : فحينما قال هذا (عمرو بن عبيد) : إن الله منجز وعده ووعيده ، قال له أبو عمر لائما : إنك أعجمى ولا أعنى لسانك (أى أنه لا يخالف قواعد النحو واللغة) ولكن فهمك . وعلمه ، مشيرا إلى بيت عامر بن الطفيل (قطعة ٧١ بيت ٢) :

وإنى إن أوعدته أو وعدته　　لمخلفُ إيعادى ومنجزُ موعدى

أن العرب لا تعد ترك الإيعاد ذماً وتمده مدحاً ، على عكس الوعد (١) . ومع هذا فقد كان عمرو بن عبيد خطيباً ممتازاً لا يزال كثير من أقواله باقياً (٢) .

(١) ابن قتيبة : عيون ج ٢ ص ١٤٢ س ٩ ؛ الثعالبى : يتيمة ج ١ ص ٤٦٤ س ١١ ؛ الذهبى : ميزان ج ٢ ص ٢٩٦ س ١٩ ؛ ابن حجر : تهذيب ج ٨ ص ٧١ ؛ ابن حجر : لسان الميزان ج ٥ ص ٣٧٩ ؛ الأشعرى : مقالات ص ١٤٨ هامش .

(٢) انظر مثلا فى عيون الأخبار لابن قتيبة .

ومثال آخر من ذلك النقد ، حصل مع من ليس أقل من ابن المقفع ، الذى عد عليه الأصمعى من الخطأ الفاحش تعريفه لفظى : بعض وكل [١] حيث قال : « العلم كثير ، ولكن أخذ البعض خير من ترك الكل » ، لأن إبهام معنى بعض الذى لا يرتفع أيضا بإضافته إلى المعرفة — بعض العرب معناه جماعة من العرب أيا كانوا — يمنع من تعيينه بأداة التعريف ؛ وكذلك لفظ « كل » ، الذى كثيراً ما يستعمل مقسِماً ، لم يرد معرفا فى العربية القديمة بحال [٢]. وهذا — فى الحق — لم يمنع الإدراك الفكرى المحض أن يبتدع فيما بعد لفظى البعض ، بمعنى الجزء أو الجزئى ، والكل بمعنى الجميع أو المجموع . وهذا التعبير العديم الحياة ، حاول [٣] النحوى « ابن دُرُستَوَيه (٢٥٨ — ٣٤٧ هـ) فى : « الرد على ابن خالويه فى الكل والبعض » أن يصححه وأخيراً استشهد بعضهم لتصحيحه بأبيات صريحة التصحيف [٤].

بعد هذه الأمثلة لا نكاد نعدل عن شاكلة الصواب ، إذا نحن أولنا بنفس المعنى تلك الرواية ، من أن أحد البدويين عد على الخليفة المنصور (حكم ١٣٦ — ١٥٨ هـ) فى جلسة واحدة ، ثلاثة أخطاء لغوية ، حتى وإن لم ينقل إلينا نص هذه الأخطاء [٥]. ذلك أن المنصور ، كأكثر العباسيين ، لم يكن خالص العروبة من جهة الدم — كانت أمه من البربر — ؛ كما يجوز لنا أن نظن أنه كان يتكلم الفارسية [٦]. ولكنه كان رجلا واسع الثقافة ، وكان خطيباً لامعا ؛ وقد جمعت أقواله فى كتاب خاص كان جد مشهور عند النسّاخين فى أيام الجاحظ [٧].

---

(١) تاج العروس ج ٥ ص ٨ و ج ٨ ص ١٠٠ ؛ كذلك فى المزهر ج ٢ ص ١٠٥ عن كتاب ليس لابن خالويه .

(٢) الصواب تغيير لفظ « كل » فى بيت امرىء القيس إلى كل بفتح الكاف ، كما قرره Reckendorf فى : Arab. Syntax, p 154 .

(٣) فهرست ٩٤ ، وفى تاج العروس ج ٥ ص ٨ أبيات قيلت فى السخرية منه لذلك . كما أن رأى ابن خالويه ذكر فى المزهر فى المكان السالف (ج ٢ ص ١٠٥) .

(٤) الخفاجى : شرح درة الغواص (استانبول ١٢٩٩) ص ٧٠ .

(٥) ياقوت : إرشاد ج ١ ص ٢٣ س ٦ .

(٦) ابن قتيبة : عيون ج ١ ص ٢٠٨ .

(٧) الجاحظ : بيان ج ٢ ص ١٥٤ س ٢٩ .

فليكن وقع فى خطأ مرة أثناء تلاوة القرآن(١)، فإنه لا يظن بحال أنه كان يقع فى أغلاط فاحشة من جهة القواعد ، بل ربما كان يستعمل فقط عبارات تجرح الإحساس اللغوى الطبيعى لرجل من البدو .

وككل علم قياسىّ لم يسلم النحو العربى دائمًا من خطر الاستبداد بالحياة الواقعية ، وإكراهها فى وضع قواعده . وعلماء اللغة لم يتفقوا أبدا باطراد فى وجهة نظرهم نحو الاستعمال اللغوى الصحيح ؛ وقد انضم إلى ذلك أيضاً الخلاف المدرسى بين البصريين والكوفيين ، ولم يكن من السهل بالكوفة ملاقاة العرب الرحّل من وسط الجزيرة وشرقها ، وسؤالهم ، كما كان ذلك متيسراً لأهل البصرة . ولذلك اعتمد العلماء فى الكوفة بحكم الضرورة على أنصافِ المقيمين من القبائل فى سواد الكوفة ، الذين لم يرد علماء اللغة بالبصرة الاعتراف بلغتهم على أنها أصل للاحتجاج(٢). وكانت لعلماء البصرة مذاهب معتمدة فى القياس النحوى تختلف عن مذاهب الكوفيين ، كما سلك كل من القبيلين فى تفسير الظواهر اللغوية طريقاً خاصا . لهذا نجد أبا محمد اليزيدى (١٣٨ — ٢٠٢ هـ) مؤدب المأمون الذى كان شديد العصبية لمدرسة البصرة يسخر فى قصيدة(٣) هجا فيها الكسائى الكوفى مؤدب الأمين ، من علماء أفسدوا النحو وأزروا به ، وهم بين أغتم لا يحسن الكلام ، ووضيع ذى مراء وذى لكنة ، خسيس الأصل والنسب ؛ أحدثوا فى النحو قياساً فاسداً لا يغنى شيئا . وسيظلون فى مبادىء النحو ، لا يتجاوزون أبجديته ولو عُمِّروا أعمار عاد . أما الكسائى فهو من النحاة الذين لا يرجى عندهم غناء ، ومن أتاه دون علم به يبغى عنده العلم فهو كالعطشان قصد إلى سراب فى البيداء :

(١) ياقوت : إرشاد ج ١ ص ٢٣ س ١٠ .

(٢) سيرافى : أخبار النحويين ص ٩٠ (طبع كرنكو) ؛ فهرست ص ٨٦ س ١٥ ؛ ابن الأنبارى : نزهة الألباء ص ٢٦٣ .

(٣) سيرافى : أخبار النحويين ص ٤٠ فما بعدها (طبع كرنكو) .

وقل لمن يطلب علماً ألا ... ناد بأعلى شرف ناد
يا ضيعة النحو ، به مُغربٌ ... عنقاء أودت ذاتُ إصعاد
أفسده قوم وأزروا به ... منْ بين أغتام وأوغاد
ذوي مراء وذوي لُكْنة ... لئام آباء وأجداد
لهم قياس أحدثوه همُ ... قياسُ سَوْء غيرُ منقاد
فهم من النحو ، ولو عُمِّروا ... أعمارَ عاد ، في أبي جاد
أما الكسائي فذاك امرؤ ... في النحوِ حار غير مراد[1]
وهو لمن يأتيه جهلا به ... مثل سراب البيد للصادى

كما يبث شكواه وغضبه على أئمة الكوفيين فى شعر آخر[2] :

كنا نقيس النحو فيما مضى ... على لسان العرب الأول
فجاء أقوام يقيسونه ... على لغى أشياخ قطربل
فكلهم يعمل فى نقض ما ... به يصاب الحق لا يأتلى
إن الكسائى وأشياعه ... يرقون فى النحو إلى أسفل

ومن هذا يتبين أنه منذ بدء العصر العباسى أخذ العيب باللحن ينتشر — بحق أو دون حق — لوسم خصم بأنه غير مثقف ، وللحط من شأنه فى أعين معاصريه . ومما يذكر فى هذا الصدد على سبيل المثال ، حكم يونس بن حبيب (حوالى ٩٥ — ١٨٣ ه[3]) ، الذى ينقل سيبويه كثيراً عنه ، على حمّاد الراوية (حوالى ٩٥ — ١٥٥ ه[4]) ، جامع المعلقات الذى كثر الطعن فيه ، وصيغة ذلك الحكم كما يلى : « كان يكذب ، ويلحن ، ويكسر[5] » ، (أى لا يقيم وزن العروض . وكذلك

---

(١) كذا فى أخبار النحويين وهو ظاهر التحريف .
(٢) ابن الأنبارى : نزهة الألباء ص ١٠٨ ؛ ياقوت : إرشاد ج ٧ ص ٢٩٠ ؛ سيوطى : بغية ص ٣٣٦ .
(٣) فهرست ص ٦٣ .
(٤) ياقوت : إرشاد ج ٤ ص ١٣٧ .
(٥) الجمحى : طبقات ١٥ (طبعة Hell) .

روى أن معاصر حماد : مروان بن أبى حفصة (١٠٥ — ١٨١ هـ[١]) ، وصفه بأنه لَحَنَة لحّانة ، مما حمل حماداً على أن يبين له عذره فى ذلك حيث قال (أى حماد) : « يا أخى إنى رجل أكلم العامة فأتكلم بكلامها[٢] » . وفى رواية أخرى أن الكميت الشاعر رفض أن يملى أشعاره على حماد لأنه خشى لحنه[٣] . ويقول صاحب الفهرست أيضاً إن حماداً كان كثيراً ما يلحن[٤] . وعلى النقيض من ذلك لا يفكر خصم حماد اللدود ، المفضل الضبى (المتوفى ١٦٨ هـ) أن حماداً كان ذا دراية ممتازة باللغة ، ولكنه أساء استعمالها ، حيث وضع — فى حذق ومهارة — أبياتاً على نسق القدماء ، ففسدت بدسّه رواية الشعر القديم فى كل زمان[٥] . فإذا أضفنا إلى هذا جميل رأى أبى عمرو بن العلاء فى حماد — كما روى ذلك عنه[٦] — فلن نشك فى أن الروايات التى تزعم أنه كان لحاناً إنما نشأت من التأثر بالخصومة واللدد ، وأن كلمات يونس تعبر عن قصد السوء من قبل البصريين فى خصومهم الكوفيين[٧] .

وإلى جانب حماد يوضع كوفى آخر ، هو جناد بن واصل ، فى مرتبة واحدة . وكان يونس لا يعد كليهما شيئاً[٨] . ويحملهما بصرى آخر ، وهو التوّزى (المتوفى

(١) تاريخ بغداد جـ ١٣ ص ١٤٥ س ٢١ .
(٢) أغانى (طبع دار الكتب) جـ ٦ ص ٧١ .
(٣) المرزبانى : موشح ص ١٩٥ .
(٤) فهرست ص ١٣٤ وعبارته : وكان حماد ربما لحن فى الشىء الخ .
(٥) أغانى (طبع دار الكتب) جـ ٦ ص ٨٩ ؛ وعبارته : ولكنه (حماداً) رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره ويحمل ذلك عنه فى الآفاق الخ . وفى صدر هذه الرواية يقول المفضل الضبى : قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً الخ . ووردت الرواية أيضاً فى ياقوت : إرشاد جـ ٧ ص ١٧١ .
(٦) أغانى (طبع دار الكتب) جـ ٦ ص ٧٣ .
(٧) على أن الكوفيين كانوا يطعنون من جانبهم أيضاً فى البصريين بتهمة اللحن . فقد صنع بعضهم مثلا على يونس بن حبيب البصرى هذه الجملة العامية : هاتى ذيك الماء من ذلك الجرة . (ياقوت : إرشاد جـ ١ ص ٥١ ؛ سيوطى : مزهر جـ ١ ص ١٢٢) .
(٨) أغانى (طبع دار الكتب) جـ ٨ ص ٢٨٣ .

٢٣٨ هـ[1]) تبعة تصحيف الروايات الكوفية[2] . وإذا نسب إلى حماد اللحن[3] فقد يجوز أن يكون هذا الطعن لا وجه له ، تماما كما هو الرأى فى حماد . أما أن علماء الكوفة أيضاً كانوا يعنون — على النقيض من ذلك — بمسائل سلامة اللغة وصحتها ، فهذا ما يبدو للعيان من شعر الهجاء الذى قيل فى حفص بن أبى وَدَّة ، الذى كان يعد من أصحاب حماد الراوية ، ونسبت إليه معه تهمة الزندقة لسوء سلوكه ، وحرية رأيه[4] . وكان حفص طعن فى شعر المرقش[5] ورماه باللحن ، فسخر به من أجل ذلك شاعر كوفى — تختلف الروايات فيه ، هل هو شريكه فى انتحال الزندقة : حماد عَجْرد (المتوفى ١٦١ هـ) ، أو مساور الوراق ، أو الْبَرْدَخْت[6] — بالأبيات :

[لقد كان فى عينيك يا حفص شاغل ... وأنف كَمثيل العوْد عما تتبَّع]
تتبعت لحناً فى كلام مرقش ... وخلقك مبنى على اللحن أجمع
فعيناك إقواء وأنفك مكفأ ... ووجهك إيطاء فأنت المرقع

وقد شبه الشاعر عيوب مهجوه الخلقية بالعبارات المصطلح عليها فى العروض العربى : الإقواء (وهو الخلط فى حركة القافية) ، والإيطاء (وهو تكرار لفظ القافية فى الشعر الواحد) كما قابل بين المرقش ، أى المحسَّن ، فوصفه بالمرقع ، أى المشوَّه

(١) فهرست ص ٨٥ (والثورى تحريف عن : التوزى) ؛ السيرافى : أخبار النحويين ص ٨٥ ؛ نزهة الألباء ص ٢٣٢ ؛ ياقوت : معجم ج ١ ص ٨٩٤ .

(٢) ياقوت : إرشاد ج ٢ ص ٤٢٦ (وقد صحف أيضاً إلى : التورى) .

(٣) فهرست ص ١٣٥ ؛ ياقوت : إرشاد ج ٢ ص ٤٢٥ .

(٤) ذكر فى قائمة الزنادقة عن الجاحظ ، وقد ساقها المرتضى فى : الأمالى ج ١ ص ٩٠ ؛ والأغانى (طبع بولاق) ج ١٦ ص ١٤٨ (مع تحريف ودة إلى وردة) ؛ وابن حجر : لسان الميزان ج ٢ ص ٣٢١ (مع تحريف ودة إلى : بردة) .

(٥) المراد — فيما يظهر — المرقش الأصغر ، الذى يعده ابن أبى إسحق الحضرمى أشعر شعراء الجاهلية (طبقات الجمحى ص ١٦) ، لا عمه المتفق معه فى اللقب . وفى المفضليات طائفة من أشعارهما رقم ٤٥ — ٥٩ .

(٦) انظر : المرزبانى : موشح ص ٢٦ ؛ أغانى ج ١٣ ص ٨٧ ، ١٦ ، ١٦٨ ؛ الجاحظ : بيان ج ٢ ص ٣ ؛ ابن قتيبة : الشعر ص ٤٤٨ .

المرقع . وقوله : فعيناك إقواء ، أى فيهما حول ؛ وأنفك مكْفأ ، أى معوج ؛ ووجهك بطاء ، أى موطأ مفرطح ؛ وأنت المرقع ، أى المدنس المشوه .

أما أن الطعن باللحن كان يوجه أيضا إلى دوائر علماء الفقه ، فهذا ما يدل عليه مثال كوفى ثالث ، هو أبو حنيفة (٨٠ — ١٥٠ هـ) ، فقد حكى عنه الجاحظ[1] تعبيراً جاء فيه خطأ شنيع ، حيث قال : [ولو ضرب رأسه] بأبا قبيس ، بدلا من : أبى قبيس . وكيف جازت دعوى أن هـذا الإمام العظيم لم ينطق صحيحاً ؟ هذا ما تكشفه الرواية المساوقة[2] ، التى اقترن فيها ذلك التعبير نفسه بالخبر التالى : كان أبو حنيفة طلب النحو فى أول أمره ، فذهب يقيس فلما أخذ يصوغ جمعا لـكلب على كلوب (بدلا من كلاب) ، قياساً على : قلب وقلوب ، تبين له أنه لن يصل فى ذلك إلى شيء ، فعدل عن النحو ولم يكن له علم به . ومما يلمس باليد أن هذا الخبر الذى يرجع إلى الحنبلى الـكبير : إبراهيم الحربى (١٩٨ — ٢٨٥ هـ[3]) قد اختُرع بدافع العصبية من قبل الخصوم المحافظين الذين أرادوا الغض من شأن مبدأ القياس فى دائرة اللغة أيضاً . ومما يذكر بهذه المناسبة أن النحوى الـكوفى : ابن فارس (المتوفى ٣٩٥ هـ[4]) رأى أنه يمكن التماس تصويب لأبى حنيفة ، دون طعن فى صحة الخبر المذكور ، بأن تـكون صيغة : بأبا قبيس ، جارية على لهجة خاصة تقصر أبا (على أن أصله : أَبَوٌ[5]) . وقد تلقى معسكر الحنفيين هذا الإيضاح بشغف ، وافتتح به أحد الأشياع المتعصبين لهذه المدرسة[6] : الملك المعظم شرف الدين الأيوبى (٥٧٦ — ٦٢٤ هـ[7]) ، رسالته : « السهم المصيب ، فى الرد على الخطيب » ، التى اجتهد بها

---

(١) بيان : جـ ٢ ص ٢ س ١٧ .
(٢) تاريخ بغداد جـ ١٣ ص ٣٣٢ .
(٣) فهرست ٣٢٣ ؛ تاريخ بغداد جـ ٦ ص ٢٧ ؛ ابن أبى يعلى : طبقات الحنابلة ص ٥٠ .
(٤) EI (Enzyklopädie des Jslam II, 400) .
(٥) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ١٠٢ ؛ وذكر دون عزو فى : ابن الأنبارى : الإنصاف ص ٧ ؛ والدميرى : حياة الحيوان (طبع ١٣٤٧ هـ) جـ ١ ص ٢٠٦ ؛ والعينى جـ ١ ص ١٣٨ . الخ
(٦) ابن خلـكان (طبع ١٢٩٩ هـ) جـ ٢ ص ١٢٣ .
(٧) EI III 646 .

فى دفع جميع المغامز التى أثارها الخطيب فى تاريخ بغداد حول صورة أبى حنيفة[(١)] . وقد عقب الخطيب[(٢)] على خبر إبراهيم الحربى المشار إليه آنفاً ، فذكر أن أبا حنيفة لحّن القراءة المشهورة : « تُرْزَقَانِهِ » فى آية ٣٧ من سورة يوسف ، مصوباً ضم الهاء[(٣)] بدلا من كسرها ؛ هذا وقد أثبت سيبويه[(٤)] صيغاً مثل : بِهِ ، وبِدَارِهِ الخ ، على أنها لهجة حجازية حتى فى قراءة القرآن . ومن المحتمل جداً أن أبا حنيفة كان يرجحها ، قياساً على : لَهُ ومنهُ الخ . أما أن يستنبط من هذا أنه يلحّن الصيغ الجارية : بِهِ وما شاكلها ، فهذا ما دعا إلى وضعه عليه — بلا ريب — لدد خصومه . على أن الملك المعظم لم ينكر أيضاً فى رسالته صحة نسبة التعبير المذكور إلى إمامه ، بل اكتفى بحمله على محمل حسن[(٥)] .

وأجدر بالتصديق دعوى أن قاضى واسط : أبا شيبة إبراهيم بن عثمان[(٦)] (المتوفى ١٦٩ هـ) — وهو إيرانى الأصل[(٧)] ، ولا يلتبس بأبى شيبة الواسطى[(٨)] الذى كان عربيا صميما — كان لحاناً معروفا ؛ فإن خلطه بين صيغ الفعل ، وقوله مثلا : أنْ تقُمْ ؛ بدلا من : أن تقوم[(٩)] ، كان خروجا على العربية أشد من الخلط فى الإعراب عدّه رقبة بن مصقلة : (المتوفى ١٢٩ هـ) المشهور ببلاغته ، من كبائر الذنوب[(١٠)] .

---

(١) حاجى خليفة (طبع ١٣١٠ هـ) ج ٢ ص ٣٨ ؛ وقد نشرت الرسالة المذكورة فى القاهرة سنة ١٣٥١/١٩٣٢ على صورة ملحق ثان لتاريخ بغداد ، بعد أن تركت الترجمة المذكورة فى التاريخ ج ١٣ ص ٣٢٣ — ٤٥٤ لأبى حنيفة أثراً سيئاً فى نفوس معتنقى مذهبه .

(٢) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٣٣٢ .

(٣) ضمت نون : ترزقانه ، أيضاً على سبيل التحريف فى طبعة التاريخ بالقاهرة .

(٤) ج ٢ ص ٢٩٤ ؛ انظر أيضاً : Nöldeke : Gesch. d. Qurans III 138 ff

(٥) انظر الرسالة السالفة .

(٦) ابن سعد ج ٦ ص ٢٦٧ ؛ تاريخ بغداد ج ٦ ص ١١١ ؛ ابن حجر : تهذيب ج ١ ص ١٤٤ ؛ الذهبى : ميزان ج ١ ص ٢٣ .

(٧) اسم جده خواستى .

(٨) انظر فى ترجمة هذا : ابن حجر : تهذيب ج ٦ ص ١٣٦ ؛ الذهبى : ميزان ج ٢ ص ٩٨ .

(٩) الجاحظ : بيان ج ٢ ص ٥ .

(١٠) الصولى : أدب الكتاب ص ١٣٢ ؛ وفى رقبة ، انظر ابن قتيبة : معارف ص ٢٠٥ ؛ ابن حجر : تهذيب ج ٣ ص ٢٨٦ ؛ تاج العروس ج ١ ص ٢٧٥ .

وهل وقع أيضاً معاصره : شبيب بن شيبة[(١)] (المتوفى ١٦٤ هـ) ، بحضرة بلال ابن أبى بردة ، فى لحن شنيع مثله[(٢)] ؟ هذا ما يشك فيه ، لأنه كان عربياً ، وأحد خطباء قبيله المفوّهين[(٣)] . كذلك غير ظاهر ادّعاء أن خالد بن صفوان[(٤)] — وهو من رهط شبيب المذكور — الذى اشتهر بمنادمة السفاح ، وبملكته فى الخطابة ، وحضور بديهته فى المزاح ، قد أُرْشِدَ إلى الصواب من قبل بلال بن أبى بردة ، بسبب اللحن ، حتى وإن أضيف إلى ذلك أن هذا كان باعثاً له أن يتعلم الإعراب فى المسجد[(٥)] ؛ إذ لايمكننا أن نخفى تشككنا فى أن الغرض من ذلك هو وسم الخطيب المشهور بميسم التلمذة فى مدرسة البصرة . وأقرب من هذا إلى الصحة أن لحن شبيب ينحصر فى أنه كان يضع التعبير أحيانا فى غير موضعه ؛ كما روى أنه استعمل مرة عبارة : ما بين لابتيها ، التى تقال فى المدينة فحسب ، مريدا به البصرة — وإن يكن هذا التجوّز القريب ، بتعميم التعبير المذكور المأثور عن الرسول [صلى الله عليه وسلم][(٦)] ، المشهور لدى كل مسلم ، قد اعترف به من قبل البُلغاء المتأخرين[(٧)] — ويقال أيضا إنه استعمل لفظ : محبنطيٌ ، الذى معناه المنتفخ البطن ، فى معنى من تورّمت أنفه غضباً[(٨)] .

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٩ ص ٢٧٤ ؛ الذهبى : ميزان جـ ١ ص ٤٤١ ؛ ابن حجر : تهذيب جـ ٤ ص ٣٠٧ .

(٢) ابن قتيبة : عيون جـ ٢ ص ١٥٩ .

(٣) الجاحظ : بيان جـ ١ ص ١٣٤ ؛ ويوجد كثير من أقواله فى عيون الأخبار لابن قتيبة وأمالى القالى وغيرهما . ومن آبائه عمرو بن الأهتم خطيب تميم عند النبى صلى الله عليه وسلم ؛ ويؤخذ من هجاء قاله فيه قيس بن عاصم (أغانى جـ ١٢ ص ١٥٧) أن أم الأهتم أبيه كانت أمة غير عربية من الحيرة .

(٤) الجاحظ : بيان جـ ١ ص ١٣٠ ؛ ابن قتيبة : المعارف ص ٢٠٦ .

(٥) المبرد : كامل ٢٥٣ ؛ ابن خلكان جـ ١ ص ٤٣٥ .

(٦) البخارى : فضائل المدينة ؛ كنز العمال جـ ٧ ص ١٥٣ .

(٧) انظر الزمخشرى : أساس ؛ المطرزى : المغرب الخ .

(٨) ياقوت : إرشاد جـ ٢ ص ٣٧٢ ، وعنه : المزهر جـ ٢ ص ٢٢٢ وعن المزهر تاج العروس جـ ١ ص ٤٧٤ ؛ وانظر معجم البلدان جـ ٤ ص ٣٣٥ .

وفى غير العراق ، كان الاشتغال بالعربية حقاً جدّ ضئيل . فبينما كانت فى البصرة والـكوفة مدرستان خاصتان بالنحو ، حذت حذوهما بعد ذلك بغداد بمدرستها التى نزعت إلى الجمع والتوفيق بين المدرستين ، لم تقم بالمدينة — مثلاً — علوم اللغة على أساس وطيد[١] . وهاهوذا الأصمعى الذى نزل فى أواسط القرن الثانى ضيفاً على الهاشمى جعفر بن سليمان[٢] بالمدينة ، يقول إنه لم يسمع هناك قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة . وقد أنشد الأخبارى المدنى : عيسى بن يزيد بن داب (المتوفى ١٧٠ هـ)[٣] بيتاً على أنه لأعشى همدان (Fragm. VI) :

من دعا لى غُزيلِى　　أربح اللهْ تجارته

فزعم أن شاعراً فصيحاً — مثل الأعشى المذكور — يحذف الألف التى قبل الهاء فى الله ، ويسكن الهاء[٤] ، ويرفع : تجارته ، وهو منصوب ؛ وقد جر على نفسه بذلك لوم الأصمعى — بحق — وتقريعه[٥] ؛ وطعن فيه الأصمعى أيضا بأنه يضع الشعر — توجد دابية مثل هذه فى أشعار الهذليين رقم ١٧١[٦] — وأحاديث السمر ، وكلاما ينسبه إلى العرب . وفى الحق تدل نماذج محادثات ابن داب مع الخليفة موسى الهادى الذى كان عيسى جليسه فى آخر سنى حياته ، على أنه لم

---

(١) لا يعرف كثير من نحوي كان بالمدينة ، يحمل الاسم الفارسى : بشكست ، وقتل فى حرب الخارجى : طالب الحق سنة ١٣٠ هـ انظر الأغانى جـ ١ ص ١٤٤ ؛ جـ ٢٠ ص ١٠٨

(٢) كان والياً على المدينة ؛ انظر ابن قتيبة : معارف ص ١٩٠ ؛ Wuetenfeld zeneal. Tbellen W 25

(٣) الجاحظ : بيان جـ ١ ص ١٢٤ ؛ ابن قتيبة : معارف ص ١٨٢ تاريخ بغداد جـ ١١ ص ١٤٨ .

(٤) رأى قطرب فى هذه الصيغة الناشئة من حذف الألف ، صيغة إضافية سائغة فى التعبير (أمالى ابن الشجرى جـ ٢ ص ١٦) والبيت الذى استشهد به طعن فيه أبو حاتم بأنه من صنعة قطرى ابن الفجاءة ، أو من صنعته هو أى قطرب (انظر المبرد : كامل ص ٣٣ ؛ خزانة الأدب جـ ٤ ص ٣٤٣) ؛ كما يوجد شاهد ثالث على ذلك فى خزانة الأدب جـ ٤ ص ٣٣٥ ؛ وقد عولج الموضوع بتفصيل فى الخزانة أيضاً جـ ٤ ص ٣٤١ — ٣٤٣ ؛ وقد أباح لنفسه الباخرزى (دمية القصر ص ١٧٥) هذا الاستعمال أيضاً فى القافية .

(٥) يكمل كل من الأغانى جـ ٦ ص ٥٦ والمرزبانى : موشح ص ١٩١ رواية ياقوت فى الارشاد ؛ وانظر فحولة الشعراء للأصمعى C. Torrey ZDMG 65 491 .

(٦) انظر : Wellhausen ' skizzen nnd vorarbeiten I' 130 .

يكن يلقى بالاً لا للصدق التاريخى فى الموضوع ، ولا للدقة الديبلوماسية فى اللفظ بل لمجرد أخبار السمر[1] . ويقول خَلَف الأحمر (المتوفى ١٨٠ هـ)[2] أستاذ الأصمعى : إن كلا من ابن داب وابن شوكر السندى[3] آفة[4] الرواية فى المشرق والمغرب . وفي الوصف التصويرى[5] الذى قاله خلف عمن يروى لابن داب وابن شوكر ، دون اهتمام بالإسناد ، توجد ملاحظة تلقى ضوءاً كبيراً على ما نحن بصدده ؛ إذ أن هؤلاء الرواة كانوا يستعملون صيغة : قالت ستى ، مما يسفر عن الطابع المولد فى أسلوبهم اللغوى .

ويجوز لنا بما تقدم أن نفترض أن اللغة العربية فى المدينة لم تحظ بعناية خاصة ، وأن الدوائر المثقفة لم تتمسك بتعاليم القواعد ومبادئها . وقد وَجد الأصمعى[6] من الغرابة بمكان أن يصدر لحن من مالك بن أنس (حوالى ٩٠—١٧٩ هـ) الذى كان هو يوقره توقيراً كبيرا ؛ إذ قال : أيُّ مطراً ، بدلا من : أى مطر . ولكن عبثاً أراد أن يحبب إليه أن يُصْلِح من لغته ؛ فإن مالكا لم يقتصر على الاستشهاد بأن أستاذه ربيعة بن أبى[7] عبد الرحمن — هو الفقيه المدنى (المتوفى ١٣٦ هـ) المعروف باسم : ربيعة الرأى[8] — كان يخلط فى الإعراب ، إذ كان يقول : بخيراً بدل : بخير ؛

---

(١) المسعودى : مروج الذهب (طبع ١٣٤٦ هـ) جـ ٢ ص ٢٥٨ ؛ ياقوت إرشاد جـ ٦ ص ١٠٦ ؛ الجهشيارى (BAHG) ص ٢٠٥ ؛ وكتاب التاج (نشر أحمد زكى) ص ١١٦ .

(٢) ياقوت : إرشاد جـ ٤ ص ١٧٩ .

(٣) سماه ياقوت (إرشاد جـ ٦ ص ١٠٩) الشوكرى من الكوفة ؛ وسماه خلف فى شعر له : الشوكرى ، وعقب عليه ياقوت برواية عن عمر بن شبة قال : شوكر شاعر بالبصرة يضع الأخبار والأشعار ، ومن هنا سماه شوكر — غلطا — كل من الذهبى : ميزان جـ ١ ص ٤٥٢ ؛ ابن حجر : لسان جـ ٣ ص ١٥٨ .

(٤) انظر تاريخ بغداد جـ ١١ ص ١٥٢ ؛ ابن حجر : لسان جـ ٤ ص ٤٠٩ ؛ تهذيب جـ ٩ ص ١٥٣ .

(٥) ياقوت : إرشاد جـ ٦ ص ١٠٩ : « إنما يروى لهؤلاء من يقول قالت ستى ويدعو ربه ويسبح بالحصى ويحلف بحيت المصحف ويدع حدثنا وأخبرنا ويقول أكلنا وشربنا » .

(٦) الصولى : أدب الكتاب ص ١٣٣ .

(٧) سقط لفظ : أبى فى الموضع المشار إليه .

(٨) أطلق هذه التسمية عليه — بادىء ذى بدء — خصومه العراقيون تصغيراً من شأنه =

ولـكنه علل رفضه أيضاً بسبب أبعد مدى ، حيث تمثل بحكمة لزاهد لم يسمّه[١] : أعربنا فى كلامنا فما نلحن ، ولحنّا فى أعمالنا[٢] فما نعرب . هذا التحقير من شأن الثقافة الظاهرية ، الذى يتفق مع عزوف مالك عن العلوم الدنيوية[٣] ، أسهَم بقسط غير ضئيل فى أن النحو وعلم اللغة لم يجدا بالمدينة تربة خصيبة ، وحتى فى قراءات القرآن المدنية يلاحظ نوع من التساهل فى الشئون النحوية . فهذا نافع (المتوفى سنة ١٦٩ هـ[٤]) يقرأ فى آية ١٠ من سورة الأعراف : معائش ، بالهمز بدل : معايش ، فعامل لفظ المفرد : معيشة ، كما لو كان على وزن فعيلة . وكون الصيغ المشتقة غامضة بحيث يتلاشى الإحساس بأصلها ، أمر يتكرر دون انقطاع فى تاريخ اللغة العربية[٥] . على أن النحاة قد رفضوا دائما الاعتراف بمثل هذه الصيغ الجديدة ؛ هذا سيبويه يحكم على : مصائب ، بدلا من مصاوب (جمع مصيبة) بأنه خطأ . ورجال تنقية اللغة المتزمتون تمسكوا دائما بذلك المبدأ ، فأبقوا الواو والياء فى صيغة الجمع على حالهما (الأجوف) . على أنه فى الاستعمال اللغوى قد ظهرت بكثرة مستفيضة صيغ

= (تاريخ بغداد ج ٨ ص ٤٢٣ . كما أن وصفه بالعى فى أغلب تراجمه (ابن قتيبة : المعارف ص ٢٤٩ ؛ الفهرست ص ٢٨٥ ؛ ابن خلكان ج ١ ص ٣٢٥ إلخ) ترجع إلى حكاية مخترعة ، أساسها تصرفه فى القول كل متصرف مع الإسهاب والإطناب . والباعث إلى ذلك ملل المستمعين كما تجد ذلك منسوبا إلى الفضل الرقاشى (أغانى ج ١٥ ص ٣٥ ؛ تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٣٤٥ ؛ المرزبانى : موشح ص ٢٩٨) .

(١) نسب الجاحظ (بيان ج ١ ص ١٠٣) هذه الحكمة لابراهيم ابن أدهم (المتوفى ١٦١ هـ) ، وكررها دون تسمية قائلها ج ٢ ص ٥ ورويت فى تعبير مختلف عند ابن قتيبة : عيون ج ٢ ص ١٥٩ ؛ وانظر أيضاً : Goldziher ZDMG 26.776 Anm. 4 .

(٢) فى أدب الكتاب للصولى : فى كلامنا فى الجملة الثانية أيضاً ، والصواب ما ذكر .

(٣) يظهر أن هذه المرحلة فى حياة مالك كانت عابرة ، وأنه فى وقت متأخر عن ذلك كان يحث على تعلم الإعراب ودراسة القواعد ، وقد روى القلقشندى عنه حكما وأقوالا فى مدح الإعراب : صبح الأعشى ج ١ ص ١٦٨ .

(٤) الذهبى : ميزان ج ٣ ص ٢٢٧ .

(٥) انظر فى توليد أصول جديدة فى العربية A. Meg فى بحثه المنشور فى كتاب تكريم المستشرق : نولدكه ، ص ٢٤٩ ؛ وقد صيغ فى اللهجة الدارجة من لفظ معيشة ، فعل تمعش ، أى اكتسب معاشه ، انظر : Dozy ج ٢ ص ٦٠٢ .

جديدة مهموزة[١] بحيث رأى بعض البعيـدى النظر ، من علماء اللغة ، ضرورة الاعتراف[٢] على الأقل بمصائب ومنائر ، بعدِّهما شاذين قياساً ، وإن كانا مطردين فى الاستعمال جمعين لمصيبة ومنارة . ولم يعدم القارئ المدنى أصواتاً أخذت عليه عدم بصره بالقواعد[٣] بسبب صيغة : معائش ؛ وكانت نتيجة ذلك النقد[٤] أن اعتمدت الصيغة الفصيحة : معايش ، فى قراءتى قالون وورش عن نافع المدرجتين فى القراءات السبع المعتمدة ، بحيث لا يوجد ، إلا فى إشارات متفرقة فى كتب النحو واللغة ، مايذكر بقراءة نافع[٥] .

هذا التساهل الذى ظهر عند مالك ونافع تجاه القواعد ، لم يكن من النادر ظهوره أيضاً خارج المدينة فى صفوف المحافظين . ففى كل مكان ، ولا سيما بين المحدّثين ، وجد رجال كان الاشتغال بالقواعد فى نظرهم عبثا ، إن لم يكن مضيعة للوقت جدّ مفسدة . وقد كان معوّلهم فى الاشتغال بالحديث على الموضوع ؛ أما الصيغة والقالب فقد كانا فى المحل الثانى . حقاً يزعم الجاحظ[٦] أن الكوفى أبا معمر (عبد الله بن سخبرة[٧]) ، الذى عاش فى أواسط القرن الأول ، كان يجيز كل رواية على الصورة التى سمعها عليها ، بكل ما فيها من خطأ ؛ بيد أن هذا الخبر ، الذى يرجع مسائل لم تحدث إلا فى عصر متأخر إلى أوائل عصر الرواية ، لا يستحق الوثوق به ؛ فإن مثـل هذه الدقائق لا ينتظر حصولها فى أواخر القرن الأول ؛

---

(١) انظر تصريح ثعلب فى تاج العروس ج ٣ ص ٥٨٧ .

(٢) انظر المعاجم اللغوية فى مادتى : ص و ب ؛ ن و ر .

(٣) انظر ابن الأثير : المثـل السائر ص ٩ ؛ ابن يعيش ص ١٤٣٤ ؛ تاج العروس ج ٤ ص ٣٢٨ .

(٤) لم يكن ذلك نتيجة النقد المشار إليه ، بل كل من قراءتى معائش بالهمز ومعائش دون همز ، راجع إلى روايات عن نافع .

(٥) المازنى : التصريف الملوكى (ذكره ابن الأثير فى المثل السائر ص ٩) ؛ ابن خالويه (bibl . Jsl . VIII) ص ٤٢ حيث ذكر أنها قراءة خارجة بن مصعب عن نافع والأعرج ؛ تاج العروس ج ٤ ص ٣٢٨ ؛ ويشير إلى عدم عناية قراءة مكلا بالقواعد تاريخ بغداد ح ٣ ص ٢٥٣

(٦) بيان ح ٢ ص ٢ .

(٧) ابن حجر : تهذيب ج ٥ ص ٢٣٠ .

وإن نسبت [١] مثل هذه الدقة فى رواية الحديث إلى البصرى ابن سيرين (حوالى ٣٣ — ١١٠ هـ)؛ كذلك ليس جديراً بالتصديق الخبرُ الذى ينسب إلى الشعبى (حوالى ١٩ — ١١٠ هـ) أنه أجاز فيما روى من الحديث دون إعراب أن يحلّى بالإعراب [٢]، أى أن يحول الحديث الذى روى باللغة الدارجة إلى أسلوب عربى فصيح. وأجدر من ذلك بالقبول أن الشعبى كان أحب إليه أن يقرأ فيسقط من أن يقرأ فيلحن [٣]، بل إنه كذلك لم يكن يلحن حتى فى المزاح [٤]، وأنه كان يستصوب اشتغال الموالى بالنحو والقواعد، لأن فساد اللغة، بدأ صدوره منهم [٥]. كذلك البصرى أيوب السختيانى (٦٨ — ١٣١ هـ) روى أنه كان إذا لحن فى حرف قال أستغفر الله كأنما عد اللحن ذنباً اقترفه [٦]. كما روى أنه أوصى بتعلم النحو فإن تعلمه يرفع الوضيع وإهماله يضع الشريف [٧]. ومثل هذه الآراء تتفق تماماً مع ترجمة سيد الفتيان [٨] الذى تجلى نبل مذهبه فى لغته المختارة المتنخلة كذلك. ولكن بعد أن توطدت أسس المدارس النحوية فى العصر العباسى الأول، على نظام دقيق، ونمت حركة التعليم والتعلم نمواً مطردا، أمكن تكوين رأى حول مسألة: هل تجب مراعاة مقتضيات سلامة اللغة فى رواية الحديث، وإلى أى حد يتعين ذلك؟ وهكذا نسمع أن المحدّث الكبير: الأعمش (٦٠ — ٩/١٤٧ هـ) الكوفى لم يكن يبالغ فى تجنب اللحن فحسب [٩]، بل كان كذلك يصحح كل رواية ملحونة بحجة أن الرسول

---

(١) ياقوت: إرشاد جـ ١ ص ٢٠.
(٢) ياقوت: إرشاد جـ ١ ص ٢٦.
(٣) ياقوت: إرشاد جـ ١ ص ٢٦.
(٤) الزجاجى: أمالى ص ١٤ (طبع ١٣٢٤ هـ).
(٥) المبرد: كامل ص ٢٦٤؛ الجاحظ: بيان جـ ١ ص ١٧٦.
(٦) الصولى: أدب الكتاب ص ١٢٩؛ ياقوت: إرشاد جـ ١ ص ٢٠.
(٧) الجاحظ: بيان جـ ٢ ص ٥.
(٨) ابن سعد جـ ٧ قسم ٢ ص ١٤.
(٩) العجلى (المتوفى ٢٦١ هـ مؤلف كتاب الجرح والتعديل، انظر الذهبى: تذكرة الحفاظ جـ ٢ ص ١٢٧) كما نقله عنه ابن حجر: تهذيب جـ ٤ ص ٢٢٣.

[صلى الله عليه وسلم] لم يكن يمكن أن يلحن[١]. وكذلك أوصى الدمشقى سعيد بن عبد العزيز التنوخى (٩٠ — ١٦٧ هـ)[٢] بمحو كل لحن من الحديث[٣]. كما أن البصرى حمادّ بن سلمة (المتوفى ١٦٧ هـ)[٤]، الذى كان يعدّ أفصح من عبد الوارث بن سعيد (١٠٢ — ١٨٠ هـ)[٥] وقد كان هذا الأخير مضرب المثل فى الفصاحة ، كان يتشدد مع تلاميذه فى التحرز من اللحن فى الحديث ، حيث كان يغالى بقوله : من لحن فى حديثى فقد كذب علىّ[٦]. ويروى أنه كان يشبه من يكتب الحديث ولا يعرف النحو بالحمار عليه مخلاته ولا شعير فيها[٧]. ويُعدّ من تلاميذه « سيبويه » . وتذكر الرواية[٨] أن السبب الذى حمل هذا الأخير على دراسة النحو هو أنه كان يستملى على حماد فقال حماد يوماً : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أحد من أصحابى إلاّ وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء[٩]، فقرأ غلطا ليس أبو الدرداء[١٠].

---

(١) ياقوت : إرشاد جـ ١ ص ٢٠ .

(٢) ابن سعد جـ ٧ قسم ٢ ص ١٧١ ؛ الذهبى : تذكرة جـ ١ ص ٢٠٣ ؛ ميزان جـ ١ ص ٣٨٦ ؛ ابن حجر : تهذيب جـ ٤ ص ٥٩ ؛ الجزرى : غاية النهاية جـ ١ ص ٣٠٧ .

(٣) ياقوت : إرشاد جـ ١ ص ٢٥ .

(٤) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٥٢ .

(٥) الذهبى : تذكرة جـ ١ ص ٢٣٧ ؛ ميزان جـ ٢ ص ١٦٠ ؛ ابن حجر : تهذيب جـ ٦ ص ٤٤١ .

(٦) السيرافى : أخبار النحويين البصريين ص ٤٣ ؛ ابن الأنبارى : نزهة ص ٥٠ ؛ ياقوت : إرشاد ج ٤ ص ١٣٥ .

(٧) ياقوت : إرشاد ج جـ ١ ص ٢٦ .

(٨) السيرافى : أخبار النحويين ص ٤٣ ؛ ابن الأنبارى : نزهة ص ٧٢ ؛ ياقوت : إرشاد جـ ٤ ص ١٣٥ ؛ محيط المحيط ص ١٩٣٦ ؛ انظر أيضاً ابن قتيبة : معارف ص ٢٥٢ .

(٩) كذا فى أخبار النحويين ؛ وفى النزهة ليس أحد ؛ وفى ياقوت : ما من أحد من أصحابى إلا ولو شئت لأخذت عليه . انظر ابن حجر : الإصابة جـ ٢ ص٢٥٣ ؛ كنز العمال جـ ٦ ص١٨١ .

(١٠) انظر فى ليس بمعنى أداة الاستثناء سيبويه جـ ١ ص ٣٢٨ (Dere nbourg) ؛ Fleicher, Kleine Schriften I, 147 . وجاءت ليس مع رفع المستثنى فى رواية واحدة فى كنز العمال ، وما عدا ذلك بلفظ : غير وإلا .

وفى الجيل التالى لهذا أقام — مثلا — الكوفى عبد الله بن إدريس الأودى[(١)] (حوالى ١١٥ — ١٩٢ هـ) وزناً لسلامة اللغة ؛ لقد كان يفضّ درسه إذا لحن واحد من تلاميذه[(٢)] . ويروى أن معاصره وهب بن جرير (المتوفى ٢٠٦ هـ)[(٣)] كان يحثّ على تعلم النحو[(٤)] ؛ كما أن آخرين كانوا يطلبون — على الأقل عرضا — معرفة ما يعرض لهم من غريب الحديث عند علماء اللغة . ولما حضر الشاعر ابن مناذر ، الذى سنلتقى به مرة أخرى فيما يلى ، مجالس سفيان بن عيينة[(٥)] (١٠٧ — ١٩٨ هـ) فى مكة بين ١٨٧ و ١٩٨ هـ ، كان ذلك المحدث الرفيع المكانة يسأل مستمعه عن معانى حديث النبى [صلى الله عليه وسلم] فيخبره بها[(٦)] . على أن سفيان لم يكن ذا دراية مؤسسة باللغة القديمة — كان هو نفسه يشكو انحطاط مستوى الأدب فى دوائر أضرابه فى الفن[(٧)] — وإلاّ لما عدّ[(٨)] لفظ : ملصق ، الذى معناه : ملحق ، وهو لفظ كثيراً ما يستعمل فى تحقير أدعياء النسب ، رديفا الحليف ، أى معاهد على الحلف .

وعلى النقيض من ذلك لم تهتم غالبية المحدثين أصلا بالنحو لذاته ، بل لم يكن يخلو بينهم من كان يلحن فى الكلام . فقد روى أن هشيم بن بشير[(٩)] ، الذى كان

---

(١) انظر : تاريخ بغداد ج ٩ ص ٤١٥ — ٤٢٣ .

(٢) تاريخ بغداد ج ٩ ص ٤١٩ .

(٣) ابن سعد ج ٧ قسم ٢ ص ٥١ .

(٤) ياقوت : إرشاد ج ١ ص ٢٢ .

(٥) ابن سعد ج ٥ ص ٣٦٤ ؛ تاريخ بغداد ج ٩ ص ١٧٤ .

(٦) الأغانى ج ١٧ ص ٩ ، عن المبرد .

(٧) الأغانى ج ٣ ص ٢٢٥ (طبع دار الكتب) والعبارة المروية عنه فى هذا الموضع : عهدى بأصحاب الحديث وهم أحسن الناس أدباً ، وصبرنا عليهم حتى أشبهناهم فصرنا كما قال الشاعر :

وما أنا إلا كالزمان إذا صحا صحوت وإن ماق الزمان أموق

والمتبادر من هذا أنه يشكو من فساد الناس لا من فساد اللغة والأدب بالمعنى الخاص .

(٨) مسلم : فضائل الصحابة (القسطلانى : إرشاد السارى ج ٩ ص ٣٨٩ على الهامش) . وفى لفظ ملصق انظر معاجم اللغة .

(٩) ابن قتيبة : معارف ص ٢٥٣ ؛ فهرست ص ٣١٨ ؛ تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٨٥ .

فى رأى مالك ، المحدث الوحيد الذى يعتد به فى العراق ، كان لحاناً ، وقد ذكر شاهداً على ذلك[١] أنه قرأ على الخليفة المأمون الحديث[٢] : « إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سِدادٌ من عوز ففتح سين « سداد » غلطا . على أن هذا ليس لحناً قطيعاً بوجه خاص ، لأنه وإن كان سداد بكسر السين قد ثبت أنه على وزن فِعال المستعمل فى أسماء الآلات بحسب الأصل ، فإن لفظ : سداد بالفتح — الذى هو فى الأصل مصدر من سد بمعنى أصاب الصواب — قد اعتمد صحته أيضاً[٣] بعض الكوفيين ، كابن الأعرابى ، الذى انضم إليه ابن قتيبة[٤] ، وابن السكيت[٥] . وعلى النقيض من ذلك كان من الاستعمال الدارج قول هشيم : يَوْنِس ، بفتح الياء وكسر النون[٦] بدلا من ضمها[٧] . ولما كان لفظ يونس قريناً فى صيغته للفظ يوسف ، فمن المظنون أن هشيما كان يقول أيضاً : يَوسِف بفتح الياء وكسر السين ، وأنه كان يرى فيه مقياساً للفظ : يَوْنِس ، كما هو الحال فى اللغة الآرامية . ومثل هشيم أيضاً كان وكيع بن الجراح[٨] معاصره ، يلحن فى الكلام . فبشهادة تلميذه ابن المدينى (الذى كان يلقى وزناً لسلامة اللغة كما سنراه) كان وكيع يقول مثلا : عَيْشَة ، بدلا من : عائشة[٩] ، وهى صيغة منتشرة اليوم فى العربية الدارجة[١٠] . وقد ثبتت هذه اللهجة فى القرن الثالث — التاسع بالنسب إليها فى

(١) الأغانى ج ١٥ ص ٢٠ ، ٢٣ (وعنه باختصار ياقوت : إرشاد ج ٧ ص ٢١٧) ؛ ابن الأنبارى نزهة : ص ١١١ ؛ الحريرى : درة الغواص ص ١٠٥ ؛ وذكره ابن خلكان (١٢٩٩ هـ) ج ٣ ص ٧٠ والمزهر ج ٢ ص ١٨٧ والعسكرى : ديوان ج ١ ص ٠٩ .

(٢) انظر كنز العمال ج ٨ ص ٢٤١ .

(٣) انظر الخفاجى : شرح درة الغواص (١٢٩٩ هـ) ص ١٥٠ .

(٤) أدب الكاتب ص ٥٧٠ (نشر Grünert) .

(٥) إصلاح المنطق ج ١ ص ١٨٢ .

(٦) الجاحظ : بيان ج ٢ ص ٥ .

(٧) انظر الزمخشرى فى الكشاف : سورة يوسف آية ٤ وهو لا يعترف إلا بالضم .

(٨) ابن قتيبة : معارف ص ٢٥٤ ؛ فهرست ٣١٧ ؛ تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٤٩٦ — ٥١٢ .

(٩) الذهبى : تذكرة ج ١ ص ٢٨٣ ؛ ميزان ج ٣ ص ٢٧٠ ويصحح .

(١٠) انظر مثلا : B. Spitta. Gramm. S. 228 .

صيغة : العَيْشى [١] ، وهى نسبة اشتهر بها أعقاب « عائشة بنت طلحة [٢] » ، مثل البصرى عبيد الله بن محمد [٣] (المتوفى ٢٢٨ هـ) وابنه عبد الرحمن [٤] (المتوفى ٢٢٧هـ) وقد عرف أيضاً بفساد أسلوبه فى التعبير الكوفى اسماعيل بن أبى خالد (المتوفى ١٤٦هـ) فقد روى مثلا أنه قال : عن أبوه ؛ حقاً لقد كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وكان يعمل طحاناً ، وإلى ذلك كان أبوه فارسياً يدعى : هُرمُز [٥] . ومن بين الإخوة الخمسة من أسرة الحديث الكوفية ، أسرة أبى أيوب الطنافسى ، كان واحد فقط ينطق دون لحن [٦] . ويضيف الجاحظ [٧] . إلى هذه الأمثلة من مخالفة القواعد فى دوائر المحدّثين ، اثنين آخرين : عبد الأعلى بن عبد الأعلى السامى [٨] البصرى (المتوفى ١٨٩ هـ) ؛ وتلميذ غير معروف — فيما عدا ذلك — للبصرى هشام بن حسان [٩] (المتوفى ١٤٧/٨ هـ) ، يدعى : مهدى بن مهلهل ، وكان هذا يرى سلامته فى الوقوف على الكلمات لعدم بصره بالإعراب .

ربما جاز لنا أن نلاحظ هنا ، مقدماً ، أن حالة المحدثين فى الوقت التالى بقيت أيضاً غير متحدة . فقد ظل بعد ، كما كان قبل ، مبدأ الأداء الحرفى لمادة الحديث المروية عن المحدّث ، فى نزاع مع مقتضيات سلامة اللغة . فكان الناقد العظيم : على بن المدينى [١٠] (المتوفى ٢٣٤ هـ) يصحح فقط ما يعرض لألفاظ الرسول

---

(١) انظر السمعانى ص 404 a ؛ 379b .

(٢) EI I.229 ؛ والبيت الذى روى فى المعرب للجواليقى ص ٤٥ ، والذى تسمى بمقتضاه: عيشة ، مصنوع .

(٣) تاريخ بغداد جـ ١٠ ص ٣١٤ .

(٤) فى الموضع المذكور .

(٥) ابن حجر: تهذيب جـ ١ ص ٢٩١ ؛ جـ ١٢ ص ٨٢ .

(٦) الذهبى : ميزان جـ ٣ ص ٩٩ ؛ ابن حجر فى الموضع السالف جـ ٩ ص ٣٢٨ .

(٧) بيان جـ ٢ ص ٥ .

(٨) ابن سعد ج ٧ قسم ٢ ص ٤٥ ؛ ابن حجر ج ٦ ص ٩٦ .

(٩) ابن سعد ج ٧ قسم ٢ ص ٣٢ ؛ ابن حجر ج ١١ ص ٣٤ .

(١٠) تاريخ بغداد ج ١١ ص ٤٥٨ .

من اللحن ، بحجة أن محمداً [صلى الله عليه وسلم] لم يكن ليمكن أن يلحن[١] . وكان ابن الطبرى فى مصر (١٧٥ — ٢٤٨ هـ) يصحح كل خطأ فى الحديث[٢] . وكان النسائى ، أحد الجمَّاع الستة (المتوفى ٣٠٣ هـ) يترك كل تعبير يجد وجهاً من التصحيح على أنه لهجة خاصة ، ولا يصحح إلا اللحن الصراح[٣] . وكانوا يعتمدون فى تصحيحهم على الاستشهاد بأحاديث مصنوعة ، يظهر فيها الرسول تارة ، أو أحد صحابته تارة أخرى ، أو أحد كبار الصالحين من الأوائل فى بعض الأحيان ، على أنه داع مدافع عن سلامة اللغة[٤] . وفى إحدى هذه الروايات — مثلا — روى أن النبى [صلى الله عليه وسلم] سمع رجلا يلحن فى القرآن فقال : أرشدوا أخاكم[٥] . وقد أذاع هذه الرواية الفقيه المدنى : أبو الزناد (٦٦ — ١٣٠ هـ) — يثنى ابن سعد[٦] على سلامة تعبيره ، وبصره بالعربية — ؛ وهى وإن كانت ترجع أولا إلى قراءة القرآن فحسب ، فإنه يفهم بذلك من قريب الاحتجاج بها على شرعية تصحيح الخطأ اللغوى بوجه عام . وقد انضم إلى هذا عدد من الأقوال المصنوعة على الرسول [صلى الله عليه وسلم] . من ذلك رواية أن محمداً افتخر بفصاحته ، مثل : أنا أفصح العرب[٧] ، أو : أنا أفصح من نطق بالضاد[٨] ، أو : أنا من قريش ونشأت فى بنى سعد فأنّى لى اللحن[٩] . كذلك قيلت على لسان عمر[١٠] أقوال تحث على تعلم

---

(١) السيوطى : مزهر ج ٢ ص ٢٤٦ عن ابن الطيب : مراتب النحويين .

(٢) ابن حجر : تهذيب ج ١ ص ٤٠ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٧٧٧ .

(٤) جمع أبو على المالكى (المتوفى ٤٣٨) طائفة من هذه الأخبار فى كتابه : التمهيد . وقد كشف Kahle هذا الكتاب فى مجموعة Chester Beatty . وساق كاله أهم هذه الأخبار فى الكتاب التذكارى لتكريم المستشرق : جولد زيهر ، وناقشها فى مقاله بالكتاب المذكور كما سبق فى التعليق على مقدمة هذا الكتاب .

(٥) كنز العمال ج ١ ص ١٥١ ؛ مزهر ج ٢ ص ٢٤٦ ، ويزيد : فقد ضل .

(٦) ذكره ابن حجر فى التهذيب ج ٥ ص ٢٠٥ .

(٧) مزهر : ج ١ ص ١٢٦ .

(٨) مزهر فى الموضع السالف ؛ انظر فيشر ZDMG 59. 837 .

(٩) مزهر ج ٢ ص ٢٤٦ ، وبتوسع فى كنز العمال ج ٦ ص ١٠١ ؛ السيوطى : الخصائص الكبرى (طبع حيدر آباد) ج ١ ص ٦٣ .

(١٠) توجد مجموعة من ذلك فى كنز العمال ج ٥ ص ٢٢٨ .

العربية[١] واللحن والفرائض[٢] ، أو تعلم السنن والفرائض واللحن ، أو أخيراً النحو والسنن والفرائض[٣] . كما زعم بعضهم أنه قال للرماة الذين لم يحسنوا الرمى فارادوا الدفاع عن أنفسهم قائلين : نحن متعلمين : إن لحنكم أفظع من خطئكم فى الرمى[٤] . وروى عنه أيضاً أنه أخـذ على رجل وضعه الضاد موضع الظاء[٥] ، وأنه نصح أبا موسى الأشعرى أن يقنّع[٦] كاتبه سوطاً حيث لحن فـكتب : من أبو موسى . وبسبب الالتباس بعمر الثانى ، نسب بعضهم إلى عمر الأكبر أنه أدب أولاده بسبب اللحن[٧] . كما يريد آخرون أن يَعْلموا أن عمر حرّم على عبد الله بن مسعود الذى قرأ : آية ٣٥ من سورة يوسف « عتَّى حين » بدلا من : « حتى حين » ، أن يدخل[٨] فى متن القرآن مثل هذه الخصائص من لسانه الهذلى . وعلى النقيض من ذلك جعل بعضهم أيضاً ابن مسعود بالذات ، لـكونه مشهور الدراية بالقرآن ، يروى أقوالا عن الرسول ، مثل : أعربوا القرآن[٩] ، أو : جوّدوا القرآن[١٠] . كما زعموا أنه كان يسترشد[١١] برأى القارىء الـكوفى : زر بن حبيش (قتل فى

(١) كنز فى الموضع السالف ؛ صبح الأعشى ج ١ ص ١٦٨ ، ويروى مثل ذلك فى أمالى الزجاجى ص ١١٩ منسوبا إلى شعبة .

(٢) كنز فى الموضع السالف .

(٣) الجاحظ : بيان ج ٢ ص ٥ .

(٤) كنز فى الموضع السالف .

(٥) القالى : ذيل الأمالى ص ١٤٢ .

(٦) البلاذرى ص ٣٤٦ ؛ الصولى : أدب الـكتاب ص ١٢٩ ؛ السيوطى : مزهر ج ٢ ص ٢٤٦ ؛ الجاحظ : بيان ج ٢ ص ٤ ، ذكر حسين بن الحر بدلا من أبى موسى .

(٧) ياقوت : ارشاد ج ١ ص ٢٠.

(٨) كنز العمال ج ١ ص ٢٨٤ ؛ ابن جنى كما ذكره : Bergsträsser, Nicht Kanonische Lesearten, S. 42 ؛ كشاف فى الآية المذكورة ، وانظر نولدكه فى تاريخ القرآن ج ٣ ص ٦٨ .

(٩) كنز ج ١ ص ١٥١ .

(١٠) السيوطى : إتقان ص ٢٣٥ .

(١١) ابن سعد ج ٦ ص ٧١ ؛ ابن الجزرى : غاية النهاية ج ١ ص ٢٩٤ .

معركة دير الجماجم سنة ٨٢ هـ) فى أمور اللغة . بيد أن هذا الاتجاه نحو « تنقية اللغة » لم يستطع أيضاً فى ذلك العهد أن يثبت ويسود ؛ فقد كانت هذه المسألة عند جل المحدثين غير ذات بال ؛ كما أن مبـدأ الاعتماد فى الحديث أولا وبالذات على الموضوع ، أدى بسهولة إلى نتيجة جد سيئة بالنظر إلى الحـكم على الخطأ النحوى . وقد صاغ واحد منهم : هـلال بن العلاء الرقى[١] (١٨٤ — ٢٨٠ هـ) فى تعبير شعرى فـكرة أن خشية الله أفضل من الإعراب وقد أراد تلميذ للشاعر هو الفقيه الحنبلى : النجّاد[٢] (٢٥٣ — ٣٤٨ هـ) أن يتنافس معه من جـديد لسوء الأثر الذى تركه فى نفوس تلاميذه بمخالفته للعربية[٣] . وعلى هـذا يتضح أنه ، حتى عند بعض كبار المحدّثين ، كان إهمال اللغة ظاهراً ، دون أن يؤثر ذلك فى شهرتهم ؛ فإنّ صدق الناقد العظيم : ابن عدى[٤] ، كان ثابتاً لا يتزعزع عند معاصريه ، على الرغم من لحنه[٥] . كذلك بعض الإشارات المذكورة — عرضاً — فى مصادرنا تنم على أن اللغة السليمة من الخطأ فى دوائر المحـدّثين لم تكن بحال أمراً مفهوماً بالضرورة . فقد ذكر مثلا أن حفص بن عمر الحوضى (المتوفى ٢٢٥ هـ) من رجال البخارى كان أعرابياً فصيحاً[٦] ؛ كما يذكر أن الوضّاع المشهور : غلام خليـل (المتوفى ٢٧٥ هـ) كان يتحرى الإعراب[٧] ؛ وكما رأى الحاكم الأصغر (المتوفى ٤٠٥ هـ)

---

(١) الذهبي : ميزان ج ٣ ص ٢٦١ ؛ ابن حجر : تهذيب ج ١١ ص ٨٣ ؛ ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٨٠٤ ؛ إرشاد ج ٧ ص ٢٥٥ ، وقد ذكر الذهبي نماذج من رواياته المرفوضة فى الميزان ج ٢ ص ٢١٤ فى ترجمة أبيه : العلاء بن هلال .

(٢) تاريخ بغداد ج ٤ ص ١٨٩ ؛ ابن أبى يعلى : طبقات الحنابلة ص ٢٩٣ .

(٣) تاريخ بغداد ج ٤ ص ١٩١ ، وقد ساق رواية ذكر فيها شعر أستاذه هلال المذكور؛ وانظر جولد زيهر : ZDMG 26. 780 .

(٤) انظر : كتاب محمد بن إسحاق ص ٢١ لمؤلف الـكتاب .

(٥) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ١٤٣

(٦) ابن حجر : تهذيب ج ٢ ٤٠٦ .

(٧) تاريخ بغداد ج ٥ ص ٨٠ .

جديراً بالذكر أن أستاذه : ابن الأخرم (٢٥٠ — ٢٤٤ هـ) كان يتشدد فى التحرز من اللحن فى كلامه[١] .

على أن اللحن لم ينشأ على ألسنة غير المثقفين فحسب ، بل كذلك أيضاً أولئك الذين كانوا يجتهدون أن ينطقوا نطقاً صحيحا ، دون أن يتمكنوا من النحو فى واقع الأمر ، لم يكن من النادر أن يصطدموا بقواعد النحو فى صيغهم التى يبالغون فى تصحيحها وتنقيحها ، بناء على أقيسة خاطئة . ولما كانت صيغ المقصور والممدود قد اختلطت فى اللغة الدارجة ، فقد اجتهد النحاة فى استيعاب القوائم ، حسب الإمكان ، لمجموعتى النوعين جميعا ؛ كما يوجد ثبت من المراجع فى هذا الموضوع[٢] . ورغبة فى صحة النطق ، استعمل أنصاف المثقفين كثيراً صيغة الممدود أيضاً فى كلمات مقصورة . فعلى شهادة الجاحظ[٣] ، روى أن يوسف بن خالد التيمى[٤] ، المعاصر لعمرو بن عبيد (المتوفى ١٤٤ هـ) كان يقول : قفاء ، بدل : قفا ، صيغة خبطها خبط عشواء ، ولكنها وجدت بعد ذلك أيضا اعترافا وتصويبا[٥] . واللحنان الآخران ، اللذان نسبهما الجاحظ إلى يوسف المذكور ، من طبيعة أخرى ؛ فأحدهما ، وهو أنه استعمل المضارع : يشجّ ، بكسر الشين بدل الضم ، يعدّ من الأحوال غير القليلة التى تضطرب فيها حركة المضارع[٦] ؛ على حين أن الآخر ، وهو صوغ أفعل التفضيل : أحمر ، أى أشد حمرة ؛ أو بعبارة أخرى ، صوغ أفعل التفضيل من أسماء الألوان ، يستحق النظر قليلا . فأسماء الألوان ، والعيوب الجسمية — فى ذاتها — لا تقبل التفضيل ؛ ولهذا منع البصريون — بحق — استعمال أفعل التفضيل وصيغ

(١) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ٧٧ .

(٢) انظر حاجى خليفة : كشف الظنون ، تحت عنوان كتاب المقصور والممدود .

(٣) بيان ج ٢ ص ٥٣ .

(٤) هكذا ذكر فى الطبعة القاهرية المحرفة (١٣ — ١٣١١) . والظاهر أنه : السمتى الفقيه المشهور الذى عاش بالبصرة ١٢٠ — ١٨٩ وأدخل المذهب الحنفى فى البصرة . انظر ابن سعد ج ٧ قسم ٢ ص ٤٧ ؛ الذهبي : ميزان ج ٣ ص ٣٢٩ ؛ ابن حجر : تهذيب ج ١١ ص ٤١١ — ٤١٣ ؛ ابن أبى الوفاء : الجواهر المضيئة ج ٢ ص ٢٢٧ .

(٥) ابن جنى : تاج العروس ج ١٠ ص ٢٩٩ .

(٦) عد أصحاب المعاجم — فى وقت متأخر — يشج بالكسر فصيحاً مثل الضم .

التعجب فيها، مع الحكم على ما جاء من ذلك بالشذوذ[١]؛ على حين أن الكوفيين لم يكن عندهم مانع من الاعتراف[٢] بصحة الاستعمال اللغوى المتأخر ومساواته للأصل فى الصحة. على أن الشواهد التى ساقها كلا الطرفين مصنوعة. فواحد منها يروى على ثلاثة أوجه؛ وهو بيت تهكم فيه قائله بشريف أبى أن ينحر للفقراء فى الشتاء:

فأنت أبيضهم سِربال طبّــاخ

أما أنه نسب — بغير حق — إلى طرفة[٣]، فقد قرره[٤] ابن الكلبى. كذلك نسب — بغير حق — إلى رؤبة، الشاهد الآخر:

أبيــض من أخت بنى إبــاض

وهو لا يوجد فى ديوانه[٥]. ولا يصح أيضاً أن نجرى مع « نولدكه »[٦] فى الاستشهاد بآية[٧] ٧٢ من سورة الإسراء: « وَمَنْ كان فى هٰذِهِ أعمىٰ فهو فى الآخرة أعمىٰ وأضلُّ سبيلا »؛ إذ أنه لا تفضيل فيه، بل معناه: أن الأعمى فى الدنيا هو فى الآخرة أعمى أيضاً، بل أضل عن الطريق. نعم يروى أن أبا عمرو ابن العلاء كان يرى أن معناه هو أكثر عمى، كما يروى أنه كان يفرق فى لفظ أعمى بين صيغتى الوصفية والتفضيل بأن الأول يقرأ بالإمالة، والثانى دون إمالة[٨]. ولكن معنى العمى لا يتأتى فيه التفضيل إلا فى حالة استعماله مجازاً فى الضلال ونحوه. أما استعمال: أضل سبيلا على صورة التفضيل، فلا يقتضى ذلك أيضاً فى مساوقه.

(١) انظر الفصل فى الموضوع المذكور.

(٢) انظر ابن الأنبارى: الإنصاف ص ٦٨ — ٧٠؛ ابن يعيش ص ١٠٤٦؛ عبد القادر خزانة ج ٣ ص ٤٨١؛ وعلى النقيض من ذلك لا يوجد شاهد فى البيت: أبيض من آل أبى عتيق، فهو وصف لا تفضيل فيه. وهو من قول الزبير بن العوام (ابن قتيبة: عيون ج ٣ ص ٩٥).

(٣) نشر Seligsohn Suppl. VII.

(٤) خزانة الأدب ج ٣ ص ٤٨٤.

(٥) انظر خزانة الأدب ج ٣ ص ٤٨٢.

(٦) Zur Grammatik des Klassischen Arabisch Wien 1896. S.16.

(٧) عالج هذه الآية الشريفة المرتضى فى أماليه ج ١ ص ٥٩.

(٨) الشريف المرتضى: أمالى ج ١ ص ٦٤؛ الكشاف فى الآية المذكورة.

ثم يدور الكلام بعد ذلك حول بعض أبيات ظُن فيها — بغير حق — استعمال اسم التفضيل فى الألوان . فمثلا قال الأحدب السعدى ، أحد اللصوص فى مختتم القرن الأول :

لما دعانى السمهرى أجبته بأبيض من ماء الحديد صقيل [١]

ولا تفضيل هنا كذلك . ويشبه هذا أيضاً بيت للعديل بن الفرخ العجلى ، معاصر الحجاج [٢] ، كما يشبهه بيت فى حماسة أبى تمام [٣] ، ينسب إلى الشاعر : أبى الأبيض العبسى الذى قيل إنه توفى فى عهد هشام بن عبد الملك (حكم ١٠٥ — ١٢٠ هـ) كذلك لا تفضيل فى نصف البيت الذى قاله عبد الله بن الزبير سنة ٧٥ هـ :

[هما خطتا خسف نجاؤك منهما] ركوبك حوليا من الثلج أشهبا [٤]

وأقدم مايوثق به من استعمال صيغة التفضيل فى الألوان ، هوما نجده فى الحديث [٥] عن نهر الكوثر فى الفردوس : « ماؤهُ أبيض من اللبن » .

مثل الأخطاء اللغوية التى ذكرناها فى هذا الباب ، هى الأخبار الوحيدة عن اللغة الدارجة بين المثقفين فى العصر العباسى الأول . وعلى النقيض من ذلك لانكاد نعلم شيئا عن لغة الطبقات الوسطى والدنيا فى المدن والأقاليم . بيد أننا لانكاد نخطئ شاكلة الصواب إذا افترضنا أن اللهجات الوطنية القديمة ، كانت سائدة فى الوديان

(١) أغانى ج ٢١ ص ٧٧ عن أخبار اللصوص للسكرى ؛ ونسبه البحترى ، وهو غير دقيق فى نسبة الشعر ، إلى زيد الخيل الطائى ، المتوفى ١٠ هـ ، فى حماسته رقم ٢٠٧ (مع تغيير طفيف : ولما دعانى الخيبرى .

(٢) انظر الأغانى ج ٢٠ ص ١٢ .

(٣) Freitag ٢٣١ .

(٤) أغانى ج ١٣ ص ٤٢ ؛ المبرد : كامل ص ٢١٧ ، ص ٦٦٦ ؛ ابن قتيبة ص ٢٠٤ ؛ خزانة الأدب ج ٣ ص ١٧٥ ، وضبطه هنا بضم الثاء جمع أثلج أى نشط وهو غير ظاهر ، بل المراد — فيما يظهر — الثلج المعروف ، بقرينة الأبيات فى السياق ، إذ المراد أنه إذا هرب إلى خراسان فسيقيم هناك فى الثلج والبرد القارس الحولى .

(٥) البخارى : الرقائق ؛ وذكر الترمذى فى تفسير الحديث المذكور الثلج ، بدلا من اللبن ، وأغلب النصوص تذكر الثلج أيضاً ؛ انظر المراجع فى : Wensinck I. 241 b ؛ كنز العمال ج ٧ ص ٢٢١ ، ٢٧٤ .

والسهول فى كل مكان : اللاتينية الشعبية فى شبه جزيرة إيبيريا ؛ ولهجات البربر فى شمال أفريقية ، والقبطية فى مصر ، واللهجات الآرامية فى سورية وما بين النهرين. على أنه ، حتى فى المدن ، لم تكن الكلمة العليا للعربية إذ ذاك فى مكان مّا بعد. ففى مدن العراق كانت الفارسية سائدة بين الطبقات الدنيا إلى مدى بعيد ، بحيث كان الأصمعى يعُدّ أمارة على ضعة الشخص أن يتكلم بالفارسية[1] فى مصر عربى. والأصمعى نفسه ، الذى كان يحسن[2] الفارسية ، أمكن أن يعتمد على فهم السامعين حينما فسَّر[3] لفظ : « قصب » فى معلقة عنترة (XXI ٣٧) بكلمة : ناى ، أى مزمار ؛ أو إذا سمى كُثَيِّرًا صاحب كُرْبَج[4] ، أى صاحب دكان. ومعرفة الفارسية ، التى كانت تظهر هنا أو هناك فقط عند العرب فى العصر الأول[5] ، صارت غير نادرة فى صفوفهم لذلك العهد. وهكذا ، يؤخذ من تقرير[6] عن الطبيب « سَرجويه » Sorgoë الذى لم يكن ينطق عربية سليمة ، وكان لهذا يخاطب أحد الأشراف : محمد بن عبد الوهاب الثقفى ومن اجتمع لديه من الأعيان بالفارسية ، أن دوائر أشراف العرب بالبصرة ، على عهد المهدى وهارون الرشيد — كان محمد بن عبد الوهاب المذكور (١١٠ — ١٩٤ هـ)[7] من أعقاب الحكم بن أبى العاص الذى قام مقاماً عظيما فى فتح فارس[8] — كانت تفهم الفارسية. ومن الشواهد أيضا على أن إجادة

(١) المبرد : كامل ص ٢٣٩ .
(٢) الأغانى ج ٤ ص ١٣٠
(٣) المبرد : كامل ص ٥٠٢ ؛ وقد استعمل بشار كلمة : ناى . انظر المختار من شعر بشار ص ١١٤ ، وعرف الأعشى لفظ : نايئوم انظر الديوان نشر : Geyer رقم ١٥٥ س ٧ .
(٤) لحولة الشعراء (نشر Ch. Torrey ZDMG 65 وانظر الموشح ص ١٤٦) وجاء لفظ كربج فى البيان والتبيين ج ٢ ص ٦٣ ، وفى المعرب للجواليقى ص ١٢٧ ؛ كما ذكر سيبويه لفظ : قربق أو كربق . انظر تاج العروس ج ٧ ص ٥٦ وفيه بيت منسوب إلى أبى قحفان .
(٥) مثل المغيرة بن شعبة ، انظر : Wellhausen. das arab. Reich73 .
(٦) انظر الأغانى ج ١٧ ص ١٩ .
(٧) انظر الذهبى : ميزان الاعتدال ج ٢ ص ١٦١ ؛ ابن حجر : تهذيب ج ٦ ص ٤٤٩ ؛ الأغانى ج ١٨ ص ٢ .
(٨) انظر : Wellhausen' Skizzeu . vorarbeiten VI, S. 111 .

اللغتين كانت أمراً شائعاً ، ما نجده من ألقاب فارسية لمن يسمون — فيما عدا ذلك — بأسماء عربية محضة . وهكذا كان الشاعر المعاصر لجرير : على بن خليل من قبيلة ضبة ، يلقب بالبَرْدَخْت[١] ، أى الفارغ من العمل . وبه سميت صحراء البردخت[٢] ، وهى سهل فسيح عند الكوفة . كذلك المحدّث البصرى : يزيد ابن أبى يزيد[٣] (المتوفى ١٣٠ هـ) يدين لغيرته بلقب : الرِّشْك[٤] : من رشك ، بكسر الراء وفتحها فى الفارسية . ولما كان هذا مساحا للحقول وحاسباً أريباً صار[٥] لفظ : الرِّشك — فيما يروى — وصفاً فى لهجة البصرة بمعنى : قسّام . وبعد ذلك بنصف قرن ، تندّر البصريون فأطلقوا اللفظ الفارسى : « خَشِينْشار »[٦] الذى معناه طير الماء ؛ على أحد المحدّثين . على حين كان العالم اللغوى الضليع : أبو عبيدة (المتوفى ٢١٠ هـ) يلقب استهزاء بلقب : سُبُّخْت[٧] . ولما اعتنق الإسلام ، سنة ١٩٠ هـ ، وزير المأمون فيما بعد : الفضل بن سهل ذو الرياستين ، ولزم الفراش وهو مريض بالحمى ، زاره الطبيب : جبريل بن بُخْتَيشُوع ، فوجد فى يده القرآن . وقد رأى الراوى ، الذى سجّل هذا المنظر[٨] ، من الطبيعي أن الزائر سأل مريضه باللغة الفارسية : تشُون بِينِى نامهِ إيزاد : كيف تجد كتاب الله ؟ وأنه تلقى الجواب بنفس اللغة : خُشْ فنَشُون كليله فَدِمْنَه : حسنٌ مثل كليلة ودمنة .

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٤٤٧ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٣٧٠ .

(٣) ابن سعد ج ٧ قسم ٢ ص ١٣ .

(٤) انظر ابن حبان فى التهذيب لابن حجر ج ١١ ص ٣٧٢ ؛ السمعانى ص 253 a .

(٥) انظر الترمذى فى كتاب الصوم ؛ السمعانى ص 452 a .

(٦) أغانى ج ١٧ ص ٨٧ .

(٧) ذكر هذا اللفظ فى بيت لابن مناذر ؛ انظر الجاحظ : بيان ج ٢ ص ٣ ؛ وذكر فى تاج العروس ج ١ ص ٥٥٠ ؛ وفى تعليق على هامش تاج العروس أنه مأخوذ من اللفظ الفارسى : سبوخت أى منبوذ ، بيد أن وزن الشعر يرفض ذلك لصراحة تضعيف الباء فيه .

(٨) انظر ابن القفطى نشر : Lirrert .

(٤)

اللغة العربية فى عصر هارون

بعد أن استقرت فى الظاهر أسسُ دولة الخلافة ببغداد على أيدى مؤسس حكم الأسرة : السفاح (حكم ١٣٢ / ٧٥٠ — ١٣٦ / ٧٥٤) وأخيه وتابعه بوجه خاص المنصور (حكم ١٣٦ / ٧٥٤ — ١٥٨ / ٧٧٥) ، بحيث استطاع الخليفة الثالث : المهدى (حكم ١٥٨ / ٧٧٥ — ١٦٩ / ٧٨٥) أن يباشر ضغطه دون هوادة على عقيدة التثنية (الزندقة) المهددة لوحدة الدولة ، متمماً بذلك عمل سالفيه من وجهة السياسة الداخلية ، بلغت الدولة ذروة سلطانها ، بعد خلافة الهادى القصيرة الأمد ، فى ظل هارون الرشيد (١٧٠ / ٧٨٦ — ١٩٣ / ٨٠٩) . لقد قدم لها ثراؤها العريض الذى كان يعتمد على غلّات أخصب مناطق الشرق كافة ، وسائل ازدهار الثقافة والحضارة . ولقد كان الخليفة ظلا ظليلا ، وسيداً جواداً على الشعراء والعلماء والموسيقيين . ولقد أخذت علوم العربية فى عهده نهضة جديدة اقترنت بأسماء الأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد والفراء والكسائى . وعند هؤلاء الرجال جميعاً كانت لغة البدويين هى القدوة المثلى ، والنموذج الرفيع ؛ وبذلك كانوا دائماً فى خلاف شديد مع اللهجة الدارجة بين سواد الشعب العريض . وأبو زيد بالذات ، الذى كان ينطق كما ينطق الأعرابى ، بعث فى وقت مبكر إلى نكات من المزاح مشتملة على موازنات بين صوابه المتنخل المصفّى ، وطريقة التعبير الفاحشة المعوجّة عند معاصريه[١] وعلى النقيض من ذلك ، كان من قبيل تعصب البصريين على الكوفيين فى ظاهر الأمر إذا أخذ على الفراء العظيم (١٤٤ — ٢٠٧ هـ) أنه لحن بمحضر هارون ، وأنه اعتذر

---

(١) تاريخ بغداد ج ٩ ص ٧٨

(٢) ابن خلكان ج ٣ ص ١٩٤ .

من ذلك بأن اللحن عند سكان المدن لازم لهم كالإعراب عند أهل البادية . وأقل من ذلك جدارة بالتصديق الخبر القائل : إن أبا عبيدة تلقى نصيحة من أبيه ، إذا كتب كتابا أن يجعل فيه لحناً لتزول عنه حرفة الصواب [١] . بل لقد كان محبباً إلى الخليفة أن يجالس النحاة ، وكان يقدر سلامة اللغة حق قدرها . وقديماً روى أنه خاطب زبيدة زوجه فقال لها : يا أم نهر [٢] ، بدلا من أم جعفر ، كنيتها الصحيحة . وكانت زبيدة ، حفيدة المنصور ، امرأة عاقلة مثقفة [٣] ، وكانت على قدم من البلاغة بحيث بقى خطابها للمأمون ، عند دخوله بغداد ، عالقاً بذاكرة الأجيال التالية عهداً طويلا [٤] . بيد أنه لم يكن معروفاً لديها أن اسم العَلم : جعفر ، منقول ، وأنه مرادف للنهر . على أن هارون نفسه لم يرض من الأصمعى أن يستعمل فى خطابه إياه تعبيراً مهجوراً غريباً : ما لا قتنى بعدك أرض ، أى لم تمسكنى [٥] وقد تعرض أبو يوسف (١١٣ — ١٨٢ هـ) أول قضاة الدولة — كان أول من حمل لقب قاضى القضاة — لتخطئة الأصمعى فى تفسير المعنى الغامض فى تلك القاعدة الفقهية التى صاغها الشعبى : لا تعقل العاقلة عبداً ، بمعنى أن العاقلة ، أى الأسرة ، ليست مسئولة عن دية عبد يُقتل ؛ حيث أراد أبو يوسف أن يفسره بأنه لا دية على العاقلة إذا ارتكب عبد لها جناية قتل . فرد عليه الأصمعى بأنه كان يجب حينئذ أن يقال : لا تعقل عاقلة عن عبد [٧] . ففى مثل هذا الجو ازدهرت إلى جانب المعارف الحقيقية ، شدة الذكاء وسعة الحيلة ، ولطف المدخل ، وشهوة الغَلب . وإذا كان هارون كما فى إحدى

---

(١) الصولى : أدب الكتاب ص ١٣١ والظاهر أن صواب العبارة : خرفة الصواب ، أى حمقه
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١٦٨ .
(٣) السيرافى : أخبار النحويين ص ٦٤ .
(٤) انظر رأى الجاحظ فى الموشح للمرزبانى ص ٣٥٣ .
(٥) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٤٣٣ .
(٦) السيرافى ص ٦٣ ؛ ابن الأنبارى : نزهة ١٦٣ ، والروايات المساوقة فى الصولى : أدب الكتاب ص ٩٩ ؛ تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٩ ؛ ابن خلكان ج ١ ص ٥١٧ ؛ تاج العروس ج ٧ ص ٦٥ تجعل بدلا من لاقت ، ألافت الرباعى .
(٧) ابن قتيبة : أدب الكاتب والجوالبق عليه (طبع القدسى ١٣٥٠ هـ) ص ٨٠ .

الروايات — كان يفرق بين : أنا قاتلُ غلامِك على سبيل الإضافة ، بمعنى لقد قتلت غلامك ؛ وأنا قاتلٌ غلامك بالتنوين ، على معنى سأقتل غلامك ؛ فهذا يعتمد على نوع من الدقة كان الاستعمال اللغوى الواقعى كثيراً ما يطرحه وراءه ظهرياً (١) .

كذلك التمييز الذى ينم على حدة ذكاء ، والذى روى على لسان الكسائى الذائع الشهرة ، سواء لأنه نحوى ضليع ، أم لأنه قارىء من القراء المعتدّ بهم ، حيث فرق بين : أنت طالق ، طالق ، طالق ، وبين أنت طالق وطالق وطالق (٢) ، أو ما شاكل ذلك ؛ فمثل هذا ليس مأخوذاً من اللغة الواقعية الحية . وأحياناً كانت مثل هذه اللوذعية فى علوم اللغة لا تصحح خطأ الرواية ، وإنما تصحح القائل نفسه ، بمعنى أنها تقول على لسانه ما لم يقله . فمثلا حينما مدح الفرزدق حسين بن الأصرم قاتل الجون الكندى لأنه حرم على نفسه تناول اللحم والخمر حتى يقتله ، فقال :

غداة أحلت لابن أصرم طعنةً حسين عبيطاتُ السدائف والخمر

بنصب طعنة ورفع عبيطات ؛ لم يعجب الكسائى هذا القلب والتغيير بين الفاعل والمفعول ، فغير البيت :

غداة أحلت لابن أصرم طعنةٌ حسين عبيطاتِ السدائف والخمر

وعلى هذه الصورة المغيرة يوجد البيت اليوم فى الديوان الذى بأيدينا (٣) . وينقل الرواة الكوفيون أن الذى حمل الكسائى أيضاً على تعلم النحو هو تعبيره باللحن ، إذ قال : قد عييت ، بمعنى تعبت ، وكان ينبغى أن يقول : قد أعييت ، لأن عيي الثلاثى من : عى بالأمر (٤) لم يقدر على إتمامه . ومع هذا فلم يخل الأمر من خصومات بين العلماء ؛ إذ كان من الطبيعى أن أحداً من علماء اللغة هؤلاء لم يحصل على دراية

(١) ياقوت ج ٥ س ١٨٧ وانظر سيبويه ج ١ س ٧١ .
(٢) تاريخ بغداد ج ١١ س ٤٠٦ .
(٣) ديوان الفرزدق س ٣١٧ ، وانظر المبرد : كامل س ٢٠٩ .
(٤) تاريخ بغداد ج ١١ س ٤٠٤ ؛ نزهة الألباء س ٨٢ ؛ ياقوت : إرشاد ج ٥ س ١٨٤

كاملة بالعربية ، حتى ولا بمعنى أنه كان محيطاً بكل الكنز اللفظى الحى ، الذى كان مستعملا إذ ذاك فى عالم البادية .

ولما زار العلامة الكبير : أبو عبيدة ، أم الهيثم [١] ، التى عرفت بأنها أعرابية فصيحة بليغة الكلام ، وصفت له مرضها بكلمات لم تكن معروفة عنده ، حتى سألها فى دهشة عما إذا كان للناس لغتان ينطقونهما [٢] . و بحكم هذه الأحوال لم يقم النزاع حول مسائل الاستعمال اللغوى الصحيح فحسب ، بل كذلك حول من يرجع إليه فى ذلك . وهكذا حدث فى الجيل التالى لهذا أن ابن الأعرابى الكوفى (حوالى ١٥٠ — ٢٣١ هـ) لم يشأ أن يعتد لا بالأصمعى ولا بأبى عبيدة ؛ وهما من هما فى مرتبة العلم التى تسمو على مرتبته بكثير . ولكنه استطاع مثلا أن يعتمد على أن الرجال الذين يأخذ عنهم من البدو كثيراً ما أعطوه بياناً يتعارض مع آراء الأصمعى [٣] ؛ أو على أن أبا عبيدة روى : شِلت الحجر (من مادة : ش ى ل) أى رفعته ، وشُلت يداه [٤] ؛ أى أصيبتا بالشلل ؛ على حين أن الصواب يجب أن يكون : شُلت بالحجر (من مادة : ش و ل) و : شَلت يداه بفتح الشين . بيد أن علم ابن الأعرابى نفسه لم يكن راسخا بحال . فقد أكدى بصورة مزرية حينما طلب إليه أن يشرح كلمات غريبة فى شعر الطرمّاح [٥] ؛ كما قرأ : قتلى كذا ، بالذال المعجمة ، بدلا من قتلى كُداء ، فى بيت للمغنى المشهور : ابن أبى سنة ، الذى غير ابن الأعرابى اسمه أيضاً إلى : ابن أبى شبة ؛ وحاول أن ينقذ نفسه [٦] بتفسير : قتلى كذا ، بأن معناه عدد كبير من القتلى . كذلك لم يفهم مرمى الشاعر فى الكلمات :

[ولا عيب فينا غير عرق لمعشر   كرام] وأنا لا نخط على النمل

(١) فهرست ص ٧٠ .
(٢) تاج العروس ج ٢ ص ٢٦٠ .
(٣) ياقوت : إرشاد ج ٧ ص ٥ .
(٤) هكذا روى أبو عبيدة فى بيت لورقاء بن زهير ؛ انظر النقائض ص ٣٨٤ .
(٥) أغانى ج ١٠ ص ١٥٦ .
(٦) أغانى ج ٤ ص ٩٢ ؛ ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٢٣٨ .

أى أننا لا نخط على النمل ، بمعنى القروح (والمراد أننا لسنا مجوساً تتزوج أخواتنا) . وفى ذلك رمز إلى عادة فارسية ، هى أن يطلب إلى غلام ناتج من زواج الإخوة أن يخط على القروح على سبيل التعويذ والسحر . وقد تخلص ابن الأعرابى ببيان حائر ففسره بأن الشاعر يقول : نحن لا نخط (من حط ، لا نخط من خط) على جماعات النمل لنسلبها زادها [١] . كذلك لم تكن معارفه عن الأنساب على ماينبغى [٢] كما أن آراءه اللغوية تتكشف تماماً فى نظريته الجديدة بالنظر، من أن الذال والظاء يتبادلان مواقعهما فى حالة الاختيار [٣] .

وقد بقى لنا مصنف فى لحن العامة يحمل اسم الكسائى ، وهو وإن لم تكن نسبته صحيحة ، فإنه يعتبر أقدم الآثار الأدبية لحركة « تنقية اللغة العربية » . ويذكر هذا المصنف فى مقدمته أنه من عمل الكسائى لهارون الرشيد [٤] . ويحتوى فى ١٠٢ فقرة على ملاحظات متفرقة جمع بعضها إلى بعض حول الاستعمال اللغوى الصحيح . وتبدأ كلها بكلمة : تقول (أى الصواب . . .) ، وقد تبدأ فى بعض الأحيان : لا تقول ، مع ذكر الصيغة المستعملة عند العامة . وكثيراً ما يستشهد بذكر مواضع من القرآن أو أبيات الشعر . على أن نسبة هذا المصنف لم تسم عن شك أيا كان . أما أنه لا يوجد منه غير مخطوطين اثنين حديثى الكتابة ، متقاربين تقارباً كبيراً [٥] ، فقد يكون ذلك من قبيل المصادفة والاتفاق ، كما هو الحال بالنظر إلى أن صاحب الفهرست لايعرف هو ولا غيره من كتب التراجم التى بأيدينا مثل هذا

---

(١) نزهة الألباء ص ٢١١ ؛ ياقوت : إرشاد ج ٧ ص ٧ . وانظر فى معنى البيت ابن قتيبة ص ٢٢ ، والبطليوسى عليه ص ٢٩٠ ، والجواليقى عليه ص ١٢٠ ، وتاج العروس ج ٨ ص١٤٦ .

(٢) أغانى ج ١١ ص ١٠٠ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٤) نشر أولا عن نسخة خطية حديثة رديئة كثيرة الأغلاط (برلين ؛ آلورد ٧١٠٣) ، وناشره ، بروكلمان : المجلة الأشورية عدد ١٣ ص ٢٩ — ٤٦ ؛ ثم نشرها عبد العزيز الميمنى فى : ثلاث رسائل ، بالقاهرة ١٣٤٤ هـ ؛ ص ١٩ — ٦٨ على أساس نسخة خطية حديثة أيضاً فى بومباى ، ولكنها أحسن من الأولى كثيراً . ويرجع إليها فى الاستشهاد .

(٥) مطلعهما : هذا كتاب ما تلحن فيه العامة مما وضعه على بن حمزة الكسائى للرشيد .

المصنف للكسائى . ولكن أحق من ذلك بأن يلفت النظر ، هو أن السند الوحيد الذى يروى عنه مع ذكر اسمه ، هو البصرى المعروف : أبو زيد الأنصارى (حوالى ١٢٥ — ٢١٥ هـ) الرجل الذى عاش بعد الكسائى المتوفى فى سن الثمانين أو التسعين . ومع هذا فإن أهم من ذلك تلك الأحوال ، التى لا يتفق ما ينقل فيها من الآراء فى هذا المصنف ، مع ما هو معروف فى معاجم اللغة الأصلية على أنه رأى الكسائى . فمثلا يخطِّىء المصنف المذكور : نقم بكسر القاف ، (رقم ٣) ؛ ولكنه يرجح : وددت (رقم ١٩) ؛ كما يفرق (رقم ٨٧) بين : قبسته النار ، أى أعطيته ناراً ، وأقبسته العلم ، أى علمته ؛ وكذلك (رقم ١٠٢) بين : نما ، الواوى بمعنى زاد ، ونمى اليائى بمعنى احمر (الخضاب) واسود . وعند الجوهرى وغيره من أصحاب المعاجم — على النقيض من هذا — أن الكسائى ارتضى نقم بكسر القاف ، وودت بفتح الدال معاً ؛ وأنه فسر الرباعى : أقبس ، بالمعنيين جميعاً : أعطى النار ، وعلّم ، على الحقيقة والمجاز ؛ وقال عن : نما الواوى ، إنها صيغة مفردة سمعها من اثنين فقط من بنى سليم . نعم قد يكون هذا التضارب ناشئاً أيضاً من أخطاء فى مقابلة النقل ، أو مبنياً على تصحيح كتاب أساسى ؛ بيد أنه إذا لم يكن هناك دليل قاطع على صحة النسبة ، فقد بقى من المشكوك فيه ما إذا كان هذا المصنف يحمل اسم الكسائى بحق .

ومهما يكن من أمر فى صحة نسبة المصنف المذكور فى ألحان العامة للكسائى ، فمما لاشك فيه أن حركة « تنقية اللغة العربية » على عهد هارون الرشيد قد نضجت نضجاً تاماً . وهنا كان الأصمعى قبل كل شىء هو الذى لم يكتف بجمع كنز المادة اللغوية عند البدويين وترتيبه فحسب ، بل شرع كذلك فى تنظيم الاستعمال اللغوى الدقيق بوساطة تحديدات معنوية غاية فى الدقة . ولا ريب أنه كان فى ذلك كثيراً ما يخالف المعانى والاستعمالات التى ترد فى كلام البدويين ؛ ودعوى ابن الأعرابى أنه وجد فى ألف حالة ، سمع فيها من ثقاته البدويين ، تلك الصيغ التى ذكر الأصمعى أنها خطأ ، ليست غير ذات أساس ؛ على الرغم مما يبدو من أن ابن الأعرابى كان يريد

أن ينقذ موقفه ، إذ أنه حينما كان لايزال مؤدبا فى بيت سعيد بن سلم بن قتيبة [1] (المتوفى ٢١٧ هـ) ، أثبت عليه الأصمعى فى حضرة تلميذه خطأً فى تفسير بيت [2] . ولكن آخرين من علماء اللغة ، غير ابن الأعرابى ، خالفوا الأصمعى أيضا فى أقواله . وقد أنحى البطليوسى بشدة اللائمة على ابن قتيبة ، لأنه احتضن مذهب الأصمعى المتطرف فى « تنقية اللغة » ، دون أن يعنى بمذاهب الثقات الآخرين من علماء اللغة ولو على سبيل العرض فحسب .

وهذه المقتضيات التى يتطلبها مبدأ « تنقية اللغة » ، قد احتذاها الشعر الرفيع فى جميع العصور كما هو الأعم الأغلب ، فمثلا أشعار أبى نواس (١٣٠ — ١٩٩ هـ) أنبه الشعراء ذكراً فى عصر هارون ، خالصة من اللحن اللغوى خلوصا عجيباً . وماعدّه نقاده المشبعون بروح التشكك خطأ ، هو فى الغالب نوع من الحرية الشعرية ، أو ضرورة الوزن ، كما نجده عند أسلافه من الشعراء .

وهكذا ، تدين مثلا الصيغ المختلفة التصريف : سنون وبنون ، التى استعملها بالتنوين ، بدلا من الإعراب بالحروف [3] ، إلى الرغبة فى إعارة هذه الأسماء الثنائية (المبنى) تمكنا من الأصالة ، كما أنها وردت — بعيدة عن القافية — فى أشعار العصر الأموى [4] . وزيادة على ذلك ليس من الشاذ العادم النظير أن يستعمل الشاعر فى ضرورة القافية ، جمع المذكر السالم بكسر النون بدل فتحها [5] . وإذا كان أبو نواس فى قوله فى مدح الأمين :

ياخير من كان ومن يكون   إلا النبىّ الطاهر الميمون [6]

---

(١) ابن خلكان ج ٢ س ١٨١ .

(٢) المرتضى : أمالى ج ٢ س ١٤٨ .

(٣) الخمريات رقم ٦٢ (آلورد) ؛ انظر ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٥٢٠ .

(٤) انظر المصادر فى: Nöldeke, NBSS 126 (Nue Beitraege zur semitschen Sprachwissenschaft)

(٥) ساق المبرد : كامل ص ٢٩٢ ثلاثة أمثلة لذلك من شعر الفرزدق وسحيم (أصمعيات رقم ٧٦ بيت ٦ ، ويوجد هذا البيت أيضاً فى شعر لجرير ، ديوان ٥٧٧) وذى الأصبع (المفضليات ٣١) وانظر ابن يعيش ص ٦١٣ ، وخزانة الأدب ج ٣ ص ٤١١ .

(٦) انظر ابن الأثير : المثل السائر (١٢٨٢ هـ) ص ١١ .

قد خالف قواعد العربية ، من وجوب نصب المستثنى من كلام تام موجب ، فإن هناك شواهد قديمة أيضا[١] على مثل هذه الحرية الشعرية . كذلك فى البيت :

فليت ما أنت واط   من الثرى لى رمسا[٢]

نصب معمولى : ليت ، وهو استعمالى قَبَلى خاص ، ورد فى رجز العجــاج[٣] (المتوفى ٩٧ ﻫ) وفى شعر الهذلى عبد الله بن مسلم[٤] (فى أوائل القرن الثانى) وترك الهمز فى واط ، بدلا من واطئ أمر معتاد .

وأكثر من ذلك لفتاً للأنظار ، ترك الإعراب ، واستعمال صيغ دارجة فى مثل محدِّثه بدلا من محدِّثةٍ[٥] ؛ ويأتك ، على الوقف بسكون الكاف ، بدلا من فتحها فى الخطاب[٦] . وأخيرا من المستغرب البيت[٧] :

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها   حصباء در على أرض من الذهب

لأنه كما فى قواعد النحو البدائية ، لايجوز تعريف فُعلى مؤنث أفعـل التفضيل إلا فى حالة ما إذا صار اسما مثل : دنيا ، أو أخذ معنى خاصا ، مثل : أخرى . كذلك من اللحن قوله :

ونشوةٍ سُقطتُ منها فى يدى

لأن سُقط فى يده ، بمعنى حار أو ندم ، ملازم للمجهول ، وهو فعل غير شخصى لأن سُقط غير متعد[٨] . فلا يسند إلى الضمير .

---

(١) انظر نولدكه : Zur Grammatik S. 43 .

(٢) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٥١٩

(٣) انظر المرزبانى : موشح ص ٢١٧

(٤) ديوان هذيل رقم ٢٤٧ ؛ وفى الشاعر انظر ابن حجر : تهذيب ج ٦ ص ٢٨ .

(٥) الشعر والشعراء ص ٥١٩ ، وقد صحح فى الديوان ص ٨٩ .

(٦) القالى : ذيل الأمالى ص ٤٧ .

(٧) الديوان ص ٢٤٣ ؛ الخمريات رقم ٧ (آلورد) ؛ وانظر الحريرى : درة ص ٤٦ ؛ ابن الأثير : المثل السائر ص ١٠ ؛ الميدانى (١٣٤٢) ج ١ ص ٧١ ؛ العاملى : الكشكول (١٢٨٨) ص ٢٦٣ .

(٨) ميدانى (١٣٤٢) ج ١ ص ٣٠٢ .

ومع هذا فقد ترد عنــد شعراء الطبقة الثانية أخطاء صريحة فى قواعد النحو . فهاهوذا الشاعر الشيعى : السيد الحميرى (المتوفى ١٠٥ — ١٧٣ هـ) ، يقول شاهد على ما نقول[١] :

أحُوكُ ولا أقوى ولست بلاحن   وكم قائل للشعر يُقوى ويلحن

وتؤيده فى ذلك الروايات التى بأيدينا ؛ فهاهوذا أحد شعراء سُدَّة الرشيد : العمانى — يدين بهذا اللقب لزيارة له إلى عمان ، أو لسبب غير ذلك ، لكنه على كل حال ليس من هذا الإقليم المشهور بفساد عربيته[٢] — ينشد بيتى الرجز التاليين فى وصف حصان :

كأن أذنيه إذا تشوّفا   قادمة أو قلما محرفا

وهو خطأ سرعان ما صححه الخليفة ، حيث اقترح[٣] عليه وضع : تخال ، مكان : كأن . وفى القصيدة التى أنشدها إبراهيم الموصلى (١٢٥ — ١٨٥ هـ) متغنياً بجلوس هارون على عرش الخلافة ، تجد هذا البيت :

ألم ترأن الشمس كانت مريضة   فلما وَلِى هارون أشرق نورها

فقال : وَلِى ، بالإشباع ، بدل : ولىَ بفتح الياء .

وشاعر آخر نابه الذكر فى هذا العصر : مسلم بن الوليد (المتوفى ٢٠٨ هـ) ، يفتخر بأنه ابتــدع للفظ : يزيد ، جمع تـكسير : أيازيد ، فجعله ذلك هدفاً لنقد أبى نواس[٤] . وأخيراً : فى شعر ابن سيّابة (المتوفى ٢١٣ هـ) ، الذى وإن كان

(١) المرزبانى : موشح ص ١٤ ، وانظر فى هذا جولدزيهر : Abhandl. Z. arab. Philologie I. 132

(٢) توجد تفسيرات مختلفة عند ابن قتيبة : الشعر ص ٤٧٥ ؛ الأغانى ج ١٧ ص ٧٨ ، ٨١ ؛ تاريخ بغداد ج ٥ ص ٢٧٠ .

(٣) المبرد : كامل ص ٥١٣ ؛ الصولى : أدب الكتاب ص ٨٦ ؛ ويريد بعض الكوفيين أن يستشهد بهذا على جواز نصب معمولى كأن ، انظر خزانة الأدب ج ٤ ص ٢٩٢ — ٢٩٤ ، وتوجد شواهد أخرى فى فهارس الشواهد ، فيشر ص ١٥٧ .

(٤) المرزبانى : موشح ص ٢٩٠ ، ولا يوجد البيت المشار إليه : رأى المهلب أو بأس الأيازيد ، فى الديوان (نصر ذى غويه) .

لايقاس بالشعراء السالفى الذكر ، فقد سارت أشعاره كل مسير ، بتلحين إبراهيم الموصلى إياها ، وتغنيه بها ، نجده يقول : أبو سْحاق ، بحذف همزة إسحاق[١] ، وم... خطوة أولى نحو التسمية المتأخرة .

واللحن فى أشعار القصور ، أقل منه فى أشعار الفرص والمناسبات ، كما ... فى أشعار البصرة لمختتم القرن الثانى . فهذا أبان اللاحقى يتهكم بالمحاولات الشعر... لأبى النضير الذى كان يخرج المغنيات من الجوارى بالبصرة ، وكان يعدّ أظر... الناس بها :

يكسِر الشعر وإن عاتبتـه فى مَجالٍ ، قال هذا فى اللغة[٢]

أى أنه كان متأثراً بخصائص لهجات خاصة ، وأبو النضير يستعمل مثلا الصيغ... الغريبة : فإيّاك بأن يعلم[٣] ، يجزم المضارع على خلاف القاعدة . ولو بقى لنا كثير... من أشعاره ، التى تحتسب فى الطبقة الوسطى ، لأمكن العثور فيها على لحن... أكثر وأوسع .

ومن دوائر أدباء البصرة التى التقينا فيها بمثل ابن مناذر ، يعدّ أيضا محمد بن... يسير[٤] ؛ رجل وضيع النسب ، فتحت له قريحته فى الشعر مدخلا إلى قصور المجتمع... الرفيع . وقد حمله عدم التسامى فى الطموح على الزهادة فى أن يضع فنّه فى خدمة... الخليفة أو كبار رجال الدولة مكتفياً بحياة طفيلية[٥] فى شعار الخمر على نفقة بعض... الأثرياء الذين خصهم بالمديح . وقد كانت أشعاره الخفيفة المترقصة ، التى تغنى فيها... وهو مضطرب المزاج ، بصغائر الأحداث من خواطر أيامه الرتيبة ، محبّبة إلى الناس...

(١) أغانى ص ٩ .

(٢) أغانى ج ٢٠ ص ٧٤ .

(٣) أغانى ج ١٠ ص١٠١ س١٣ ، والبيت الذى قال فيه ذلك : فإياك بأن يعلم وإياك و... كما فى الأغانى ، والظاهر أن الواو موضوعة غلطاً من الناسخ ، ولعل الصواب :

فإياك بأن يعلـ ـم إياك وإياك

وإذاً فلا لحن فى كلامه .

(٤) انظر الأغانى ج ١٢ص ١٢٩ — ١٤١ ، حيث سمى الشاعر غلطا : محمد بن بشير ، انظر تاج ٣ ص ٦٢٧ س ٩ ، وانظر مراجع أخرى فى : فهارس الشواهد لفيشر .

(٥) يتحدث هو نفسه عن تطفله فى الأغانى ج ١٢ ص ١٤١ .

دهراً طويلا . بيد أنها قد عرضت من الوجهة اللغوية سلسلة من السمات المولّدة الطابع مثل حذف الهمزة المحققة ، لا فى الصيغ الدارجة فحسب مثل : حرامَه ، بدلا من : حرأمَة[1] ، بل كذلك فى مثل : قِراة ، بدلا من قراءة[2] ، كما أدخل نوعا من الاختصار الذى اشتهر فى اللهجات المتأخرة[3] ، بجمعه لفظ : « شاهين » بمعنى صقر، على : شواهن[4] بدلا من شواهين[5] . وفى البيت :

ولو قنَعت أتانى الرزق فى دَعةٍ إن القنوع الغنى لا كثرة المال

خلط بين : قنع ، بفتح النون ، من مصدر القنوع بمعنى السؤال والتذلل ؛ وقنع بكسر النون من مصدر القناعة ، بمعنى الرضا[6] . وخطأ شنيع استعماله فى الدعاء المضارع الخبرى الواقعى : يرحمنا[7] ، بدلا من ماضى الدعاء : رحمنا (أى عسى أن يرحمنا) . فإذا أضفنا إلى هذا كله ذلك العدد الجم من الدخيل الفارسى ، حصلنا على صورة من التعبير الشعرى ابتعدت كثيرا من الشعر الفصيح فى الصدر الأول .

وإذا جاز لنا أن نثق بالروايات التى بأيدينا ، كان عصر هارون هو العصر الذى وَجدت فيه لغة الشعب للمرة الأولى مساغاً فى التعبير الأدبى ، فكما فى قصة جدّ معروفة ، يروى أن هارون بعد أن قضى على البرامكة ، منع الناس أن يبكوا القتلَى فى مَراثٍ تشيد بذكرهم ، ولكن جارية لجعفر بن يحيى بن خالد بكت سيدها القتيل فى قصيدة نظمتها باللسان الشعبى ، تختم أبياتها بقولها : ياموالية[8] . !

(١) الجاحظ : بيان ج ٢ س ١٢٣ وقد ذكر نولدكه شواهد قديمة على ذلك فى : Zur Grammatik S. 9

(٢) أغانى ج ١٢ س ١٣٣ .

(٣) انظر : EI I 476

(٤) أغانى ج ١٢ س ١٣٥

(٥) أوشياهين ، انظر الفرزدق س ٤٠٥

(٦) المرزبانى : موشح س ٢٩٩ ؛ البطليوسى س ١٨٠ ؛ على أن بعض اللغويين ذكر أن الأول من الأضداد . انظر القاموس فى المادة .

(٧) المبرد : كامل س ٢٣٣ ؛ أغانى ج ١٢ س ١٣٧ ؛ البيهقى : محاسن س ٣٨١ ؛ الجاحظ بيان ج ٢ س ١٠٢

(٨) انظر سفينة الملك لشهاب الدين س ٣٨٠ ؛ محمد بن شنب فى : EI III 484 .

بيد أن حظ هذه الأسطورة من الصحة ضئيل ، مثل التأويل الذى حا كه بعضهم ، فى أن أول من نظم أغانى المواليا ، هم عبيد من واسط كانوا يتغنون بها فى أثناء العمل . حقاً لقد وجدت فى سائر العالم العربى بحور غنائية شعبية ، ولكنه ليس ممكنا بعدُ تحديد مبدأ الفنون السبعة المولدة بحسب الزمان والمكان . فجميع هذه الأغانى يناسبها شعر الأدوار الذى تتحد قافية كل دور فيه ، وإن اختلفت قوافى الأدوار بعضها مع بعض ؛ على حين أن الشعر العربى لا يَعْرِف — من مهده — إلا القافية الواحدة فى القصيدة كلها . بيد أنه قد نظمت فى العصر العباسى أغان من شعر الأدوار (المزدوجات) بلغة الكتابة الفصحى أيضاً . وعصر هارون — بالذات — هو العصر الذى لدينا منه شواهد أكيدة على نقل هذه القوالب الشعبية إلى الشعر الفنى — وأبسط هذه القوالب هو ما يسمى « المزدوجة » ، وهو قالب شعرى ، يؤلف فيه بيتان قصيران — فى الغالب من الرجز — متحدا القافية ، وحدة خاصة أو دوراً مستقلا . وقد نظم أبو العتاهية (حوالى ١٣٠ — ٢١٠ هـ) فى هذا القالب أرجوزته : « ذات الأمثال » ، وهى قصيدة تهذيبية . روى أنها تشتمل على أربعة آلاف حكمة ومَثَل ؛ ولم يصلنا منها إلا جزء صغير[١] . واختار أبان بن عبد الحميد اللاحقى ، معاصر أبى العتاهية ، نفس القالب (المطابق للمثنوى الفارسى تمام المطابقة) عند ما صاغ للبرامكة أدب المسامرة ، الفارسى ، الهندى ، فى شعر عربى ، مثل : كليلة ودمنة بالأبيات[٢] :

هـــذا كتاب أدب ومحنه وهو الذى يدعى كليله دِمْنه
فيه احتيالات وفيـه رشـد وهو كتاب وضعته الهنـد

وشاعر ثالث من ذلك العهد ، هو بشر بن المعتمر المعتزلى (المتوفى ٢١٠ هـ) الذى زجَّ به هارون فى الحبس بعض الوقت لتعاطيه التشيع فهذا وإن نظم على

(١) ديوان : بيروت ١٩١٤ ص ٣٤٦ — ٣٤٨
(٢) أغانى ج ٢٠ ص ٧٣

النمط المألوف من وحدة القافية(١) قصيدتيه اللتين قالهما فى الفلسفة الطبيعية ، وأشاد فيهما بحكمة الله المتجلية فى الطبيعة ، قد استخدم أيضا إلى جانب ذلك — كما تشير إليه نصوص متفرقة — قالب المزدوج(٢) . وأقدم من ذلك — بحق — النظم الفلكى التعليمى الذى أنشأه محمد بن إبراهيم الفزارى ، مخرج كتاب : « السند هند » الذى اشتهر إذ ذاك ببغداد سنة ١٥٤ هـ . وهو ابن إبراهيم بن حبيب الذى يروى أنه أول من صنع الأسطُرلاب فى الإسلام(٣) . ونظمه التعليمى الذى لم ينقل منه إلا أربعة أبيات(٤) ، من قبيل المزدوج الذى تتألف أدواره من ثلاثة أبيات متحدة القافية من الرجز . وأسوأ حالا مما ذكرنا ، إثبات أقدم الأمثلة لشعر الموشحات ؛ فإن « الخمسة » المنسوبة إلى أبى نواس — اثنا عشر دوراً كل منها خمسة مصاريع ، الأربعة الأولى منها متحدة القافية ؛ أما الخامس فهو على قافية أخرى تدور فى المصراع الخامس من كل دور ، على مثال : أأأأأ ، ب ب ب ب أ الخ — لا تكاد تثبت صحتها(٥) . بيد أن هناك ميمية(٦) تترجح صحة نسبتها إلى حماد الراوية (٩٥—١٥٥ هـ) وهى تشتمل على قافية مصرّعة فى داخل البيت ، ثم قافية متحدة فى جميع الأبيات :(٧)

خلاف الحلول بتلك الطلول   وسحب الذيول بذاك المقام

وكذلك فى البيتين التاليين . وتقدم مثالا قديماً آخر لهذه « المقطعة » قصيدة سلم الخاسر ، قالها فى مدح الخليفة الهادى (حكم ١٦٩ — ١٧٠ هـ) وهى تبدأ :

موسى المطر   [غيث بكر   ثم انهمر]

---

(١) الجاحظ : حيوان ج ٦ ص ٩٢ — ٩٧

(٢) الخياط : الانتصار ص ١٣٤ ؛ الجاحظ : حيوان ج ٦ ص ١٥٥ ؛ الثعالبى : ثمار القلوب ج ١ ص ٥١٣

(٣) انظر الفهرست ص ١١٨

(٤) الصفدى : الوافى بالوفيات ج ١ ص ٣٣٦

(٥) توجد الخمسة المذكورة فى حياة الحيوان للدميرى ج ١ ص ١٢٤ (طبع ١٣٤٧) ، ويظهر أنها هى نفس الخمسة التى نسبت إلى أبى نواس فى EI¹ Suppl. 194a .

(٦) أغانى ج ٥ ص ٢٨

(٧) تشتمل المقامة الثانية عشرة للحريرى على قصيدة بمثل ذلك التصريع .

وتتألف من سبعة عشر بيتاً كلها من قافية الراء على هذا النمط[1] . وسلم المذكور
كان تلميذاً لبشار بن برد ، مقتفياً لأثره[2] . وليس ثمة داع إلى الشك فى الخبر القائل
إن بشاراً أيضاً حاول نظم المزدوجة والموشح .

وربما رجع إلى القرن الثانى أيضاً تاريخ الدوبيت أو الرباعى ، الذى تتحد
مصاريعه فى القافية ما عدا المصراع الثالث . فهذا القالب الذى لعب — فى وقت
متأخر — دوراً عظيما فى الشعر الفارسى ، يقرن أيضاً ببشار بن برد ؛ إذ روى أنه قال
فى بائعة طيور كان يشترى منها الخل ، هذا الرباعي[3] الخالى — فيما يظهر — من
الإعراب فى أواخره :

رباب ربّة البيت   تصب الخل فى الزيت
لها عشر دجاجات   وديك حسن الصوت

وإن كان يجوز لنا أن نشك فى صحة نسبة ذلك إلى بشار . ومثل هذا يقال
أيضاً فى أغنية باللسان الشعبى ، يقال إن إبراهيم الموصلى (١٢٥ — ١٨٨ هـ) تغنى
بها فى سكره :

أنا جئت من طرق موصل   أحمـــل قلل خمريا
من شارب المـــلوك   فلا بد من سكريا[4]

وقد ساق ابن خرداذبه هذه الأغنية ليفسر بها نسبة إبراهيم إلى الموصل ،
بيد أن أبا الفرج الذى ندين له بالخبر المذكور يعارض بشدة فى صحة هذا التفسير[5] .

هذا ، ونحن فى حقيقة الأمر لا نكاد نعرف شيئاً عن العربية التى كان يتكلمها
الناس فى أواخر القرن الثانى . ويصادف فقط أن نعرف من إحدى القصص المروية
عن محمد بن مناذر (المتوفى ١٩٨ هـ) أنه كان يقال فى مكة للإناء بُرمة ، وللغرفة

---

(١) ابن رشيق : العمدة ج ١ ص ١٢٢ .
(٢) أغانى ج ٢١ ص ١١٠ .
(٣) المرزبانى : موشح ص ٢٤٩ ، ودون تسمية القائل فى ياقوت : ارشاد ج ٦ ص ١٦٥ .
(٤) رواها الأغانى باختلاف يسير : ج ٥ ص ١٥٧ .
(٥) الأغانى فى الموضع السالف

العالية : عُلِّيَّة ، إذ كان يقال لها بالبصرة : قِدر ، وغرفة . وهذا الشاعر [١] الذى أصله من عدن [٢] ، والذى يعد من شعراء عصر هارون ، جمع علما كثيرا بشئون اللغة فى البصرة ؛ وكان فى بادىء أمره متألها متنسكا زاهدا على طريقة الأوائل من المعتزلة . ولكنه وضع نفسه فى موضع غير مقبول ، لدى الدوائر التى كان يختلط بها ، بقصة غرامه بأحد أبناء الأسرة الثقفية الرفيعة ؛ وصار من رجال المجتمع المعروف بحرية الفكر (الزنادقة) الذين ليست لهم مبادىء يقدسونها . ويروى أنه صب الحبر ليلا فى أماكن العبادة ، حتى تلطخت جباه المصلين به عند حضورهم لصلاة الفجر ؛ واضطر أخيرا إلى مغادرة البصرة مهاجرا إلى مكة ، حيث مات بها سنة ١٩٨ هـ .

وقد ذكرنا أن سفيان بن عيينة نفسه ، وغيره من المحدّثين ، كانوا يرجعون إليه فى أمور اللغة . ويقال إنه ذكر ملاحظته فى تسمية الإناء والغرفة عند البصريين والمكيين ، دفاعا عن رجحان كفة البصرة على مكة فى اللغة بذكر مثالين يطابق فيهما استعمال البصريين لغة القرآن [٣] . أما أن أهل مكة كانوا يستعملون بدل اللفظ العربى الأصيل : غرفة : اللفظ الآرامى الأصل : عُلِّية ، فقد أثبته أيضاً ابن دريد [٤] .

كذلك يؤيد استعمال المكيين لفظ : برمة ، بدلا من : قدر ، وورود ذلك اللفظ بكثرة فى أقوال المحدّثين ، وإن كان يقال فى هذا ، أولا ، إن لفظ : برمة ، يستعمل أيضاً فى معنى أخص مما ذكر ، وهو المادة التى تعمل منها القدر [٥] ، وثانيا ، لفظ قدر معروف بالحجاز كذلك [٦] .

(١) انظر فيما يأتى الأغانى ج ١٧ ص ٩ — ٣٠ .

(٢) انظر صفة جزيرة العرب للهمدانى ص ٥٣ .

(٣) انظر الجاحظ : بيان ج ١ ص ٩ .

(٤) انظر الشواهد فى Wensinck, Concordance et Jndices 1,176

(٥) أغانى ج ٤ ص ١٥٢ ، وهناك موضع ذكره الهمدانى ص ١٢١ يسمى : معدن البرام .

(٦) ابن هشام ص ٦٨٣ ؛ الأزرقى ص ٤٤٩ .

(٥)

العربية المولدة

كان من أثر المقام المسيطر الذى أخذه مبدأ « تنقية العربية » فى التربية اللغوية للمجتمع العربى ، أن صارت عربية البدو تعد القدوة المثلى ، والمثل الأعلى من جميع الوجوه ؛ وأن احتذاها المثقفون فى الكلام الشفوى ، والتحرير الكتابى جميعا . حقاً لقد أثر اختلاف الأحوال ، ولا سيما الانتقال إلى حضارة المدن ، أثرا غير يسير فى اللغة أيضا ، كما يبدو فى اختلاف لغة الأدب فى شعر المحدثين فى أوائل العصر العباسى ، كشعر بشار وأبى العتاهية وابن الأحنف ، اختلافا كبيراً من حيث صوغ القوالب ، وتركيب الجمل ، والمادة اللغوية ، وطرق التعبير ، عن لغة شعراء البادية . ولكن عربية الدولة هذه احتفظت بالتصرف الإعرابى ، و بقواعد الإعراب والتصريف احتفاظاً تاماً ، ولم تزل من حيث بناؤها الحقيق ، على الرغم من بعض السمات المولدة ، تعد من اللغة الفصحى . وعلى النقيض من ذلك كانت اللغة الدارجة التى كانت تتفاهم بها الطبقات الوسطى والدنيا من سكان المدن ، منذ نشوئها فى عصر الفتوحات الإسلامية الأولى ، تعد عربية مولدة فى نظر التاريخ اللغوى . وقد أخذت هذه العربية المولدة تكتسب مناطق جديدة بسبب التغييرات السياسية والاقتصادية التى أحدثها سقوط الدولة العربية ، وإن بقى المجتمع الراق بعيداً عن التأثر بها تأثرا يؤبه له حتى القرن الثالث (التاسع الميلادى) ؛ كما أن الأوساط الأدبية كانت أبعد عن نطاق التأثر بها كذلك . أما اليهود والنصارى بالمشرق ، الذين كانوا يعيشون فى جو من التراث الأدبى ، يختلف تماماً عن محيط العالم الإسلامى من حولهم ؛ فقد ظلوا طويلا دون أن يكون لهم نصيب من الثقافة الإسلامية . ولذلك لم يستخدموا ، لأول عهدهم بالكتابة العربية ، تلك العربية الفصحى ، بل اللغة الدارجة فى عصرهم .

ومن هنا كانت الآثار المسيحية — العربية الأولى ، التى ترجع إلى القرن الثانى — الثامن ، ذات قيمة ممتازة أيضا بالنظر إلى تاريخ اللغة العربية ؛ إذ فيها نجد النصوص الأولى للعربية المولدة فى صورة متماسكة .

لم يكن للنصارى واليهود ، الخاضعين لسلطان الإسلام بالمشرق ، حظ من المثل الثقافى الأعلى للعربية . وقد ألفَوا ، من حيث إنهم ذوو أديان نصَّ القرآن على حقها من التسامح والحماية ، جماعات دينيـة فى الدولة الإسلامية ذات استقلال ثقافى ، وإدارات خاصة بشئونهم ، وقوانين مقصورة عليهم ، كما كانوا يحيون حياة اجتماعية واقتصادية خاصة بهم . وعلى عكس ذلك كانوا يشاركون جيرانهم المسلمين فى لغتهم الدارجة . وتلك الخصائص القليلة فى مادتهم اللغوية وطرائق تعبيرهم ، إنما نشأت من طبيعة الموضوعات التى يعالجونها ، بحيث لانقوى على تـكوين لهجة يهودية ، أو مسيحية — عربية خاصة . نعم كان يهود المدينة على عهد محمد [صلى الله عليه وسلم] ينطقون لهجة تختلف كثيراً عن لغة السكان الآخرين بالمدينة ؛ بحيث لم تكن مفهومة لهم . فقد روى عن عبد الله بن عتيق أنه كان يرطن باليهودية [١] . بيد أن هذه اللهجة ، التى كانت مقصورة على التفاهم الخاص — كان يهود المدينة يستخدمون فى شعرهم دائما لغة الشعر البدوى — قد اختفت تماما بطردهم من شبه الجزيرة . وعلى النقيض من ذلك نصارى البدو من العرب ، فهؤلاء يبدو أنهم لم يتميزوا أصلا فى لهجتهم عن الشـعراء الوثنيين من أقاربهم فى النسب ؛ وإلا لما لقى الأخطل النصرانى اعترافا بأنه شاعر فصيح معتد به . وزيادة على هذا فقد سارعوا بالدخول فى الإسلام ، بحيث لم يبق أثر مما ربما كان للهجتهم من خصائص لغوية .

وهذه العربية التى نجدها فى الأدب اليهودى والنصرانى فى القرون الوسطى ، إنما نشأت من الاستعمال اللغوى عند طوائف اليهود والنصارى خارج الجزيرة العربية : الذين لاصلة لهم بالبادية وعربيتها ، بل استخدموا منذ البدء العربية المولدة الدارجة ،

(١) ابن سعد : ج ٢ قسم ١ ص ٦٦ .

التى نشأت من حياة العرب ومخالطتهم للشعوب التى أخضعوها ، فصارت لغة التخاطب والتفاهم ، والتى تتميز — رغم اختلافها فيما بينها بسبب الاختلاف المحلى والاجتماعى — تميزاً واضحاً عن العربية الفصحى بطائفة من السمات والخصائص المشتركة بينها فى المادة الصوتية ، وصوغ القوالب ، وتركيب الجمل ، والقواعد النحوية والمادة اللغوية ، وطرائق التعبير . فمادتها الصوتية تشير إلى طابع معين من التيسير والتسهيل ، ويتعلق بهذا حذف الهمز[١] الذى استفاض فى العصر العربى الجاهلى فى لهجة الحجازيين[٢] ، وأخذ فى العربية المولدة صورة واسعة ذات أثر واضح فى صوغ القوالب . كما يتعلق بهذا أيضا تغيير حرف الضاد ؛ وهذا الصوت الذى هو فى أصله الحرف المطبق القسيم للدال ، خاص بالعربية ، بحيث يسمى العرب[٣] فى أحد الأحاديث المشهورة : الناطقين بالضاد ؛ ويكثر إبداله بغيره من الأصوات على ألسنة غير العرب ؛ فيكثر بوجه خاص إبداله بالظاء التى هى الحرف المطبق القسيم للطاء ، وهى صعبة النطق كذلك على غير اللسان العربى . وقد روى الجاحظ[٤] قصة البصرى الذى سمى جاريته : ظمياء ، بيد أنه كان ينطق : ضمياء ؛ وقرن بذلك خبرا يفيد أن نصر بن سيار ، آخر ولاة الأمويين فى خراسان ، نصح الموالى أن يسموا خدمهم بأسماء يستطيعون أن يلفظوا بها . وهذه التغييرات الصوتية ازدادت على مر القرون . وكم ذا حاول النحاة أن يعالجوها ، ويساعدوا على التحرز منها ؛ فهاهوذا الحريرى يحشد فى المقامة السادسة والأربعين مجموعة من الألفاظ الظائية ؛ وفى القرن السابع يؤلف ابن مالك قصيدة تعليمية كتب هو شرحها ، مبيناً فيها فرق ما بين الضادى والظائى من الكلمات . وعلى هاتين السابقتين يعتمد السيوطى فيما كتبه فى هذا الموضوع[٥] . وكما ذكر على القارى[٦] ينطق أكثر السوريين

---

(١) كتب فى هذا الموضوع أطروحته للدكتوراه G. Weil سنة ١٩٠٥ .

(٢) انظر نولدكه فى تاريخ القرآن ج ٣ س ٤٢ — ٥١ .

(٣) انظر فيشر فى : ZDMG 59, 837 .

(٤) بيان ج ٢ س ٢ .

(٥) المزهر ج ٢ س ١٨٠ — ١٨٤ .

(٦) المنح الفكرية — القاهرة ١٣٠٨ — س ٣١ ، ٣٤ .

بعض المغاربة الضاد مثل الظاء . وقد ساق — زيادة على ذلك — إلى جانب نطقها الأصلى كالدال المفخمة ، كثيرا من صور الإبدال المختلفة ، فمن الناس من ينطقها كالدال ، وغيرهم كالطاء ، وآخرون يومئون إليها بالظاء ؛ ثم يذكر بعد هذا أن بعض الناس ينطقها دالاً مفخمة ، و بعضهم ينطقها دالا عادية . وأخيرا ينطقها بعضهم لاماً مفخمة ؛ ومن بين جميع هذه الصور ، يكثر نطقها اليوم دالا مفخمة ، وعلى هذا الأساس صورت كتابتها بالحروف اللاتينية . ويبدو أن إبدالها بالدال كان من خصائص النبطية . فقد رُوى أن زامر هارون الرشيد : برصومه Barsauma — يدل اسمه على أصله الآرامى — المنتمى إلى الطبقات الدنيا من سكان سواد الكوفة[1] ، كان يقول : أبيد ، بدل : أبيض[2] . ويكثر فى النصوص اليهودية والنصرانية إبدال الضاد ظاء[3] .

وتغيير صوتى آخر يعترضنا فى العربية المولّدة ، وهو يتعلق بالسين والصاد ؛ ففى العربية القديمة نجد — فعلا — صيغا مضاعفة ، مثل : صراط ، وسراط ، وصديق وسديق الخ . وفى لهجة بلعنبر ، أحد أفخاذ تميم ، يكاد يوجد هذا التغيير باطراد إذا جاء بعد السين أحد الحروف الأربعة التالية : ث ، ق ، غ ، خ[4] . وقد ذهب متأخرو النحاة إلى تعميم جواز ذلك التغيير الصوتى بالشرط المذكور[5] . وعلى الرغم من ذلك فقد احتفظت بعض النصوص الشعبية فى مثل هذه الأحوال بنطق أصلى واحد ؛ مثل استعمال موسى بن ميمون وغيره من المؤلفين اليهود باطراد : س ق ل ،

(١) الأغانى ج ٥ س ٢٢٧ .

(٢) أغانى ج ٦ س ١٦٤ .

(٣) انظر شرح سفر التكوين لعلى بن سليمان ، نشره B. Skoss ص ٧٩ ؛ G. Graf Der Sprachgebrauch der ältesten chrsitlich - arabischen Literatur S.

(٤) قطرب كما ذكره الصحاح وتاج العروس فى مادة : س د غ ، وفى ابن خلكان ج ٣ س ٧٣ وانظر الفهرست س ٦٣ حيث ذكر الصويق بدلا من السويق فى لغة عمرو بن تميم ، وورد لفظ الصوق بدلا من السوق فى بيت لرغيب بن قيس العنبرى رواه المرزبانى فى الموشح س ٢٣ وغير ذلك .

(٥) انظر المفصل للزمخشرى وابن يعيش عليه .

بدلا من صقل ، المستعملة فى الفصحى [١] ؛ كما استعملوا الصاد بدلا من السين فى أحوال لم تتوفر فيها الشروط السالفة ، مثل : صُرم : بدلا من سُرم [٢] ؛ صنام بدلا من سنام [٣] . واللفظ الشعبى : مصالح : القوات المرابطة على الحدود ، أو بعبارة أخرى مفرده وهو : مصلحى : الجندى المرابط على الحدود ، نشأ من ربط شعبى لغوى بين لفظ : مسلحة ، ولفظ : مصلحة [٤] أى مطلب أو منفعة . وعلى عكس ذلك سميت ضاحية بغداد : صَمَالُو — وسميت كذلك باسم أسرى الحرب من مدينة صمالو من أعمال كليكيا ، وقد أنزلهم هارون الرشيد سنة ١٦٣ هـ بهذه الضاحية — وهى فى لسان العامة : سَمَالُو [٥] وقد عارض النضر بن شُميل (حوالى ١٢٣—٢٠٣ هـ) الرأى القائل بأن السين تقع أحيانا موقع الصاد [٦] ؛ على حين روى عن الزجاج النحوى (المتوفى ٣٢١ هـ) المعروف بحرية رأيه فى الاشتقاق [٧] ، أنه كان يرى جواز إبدال كل من الحرفين بالآخر [٨] .

والطبيعة الحقيقية للعربية المولّدة ، والفرق الخاص الذى يميزها تجاه العربية الفصحى ، إنما يقوم على تغير فى تكوينها يعد ترك التصرف الإعرابى من أماراته الظاهرة . وبهذا نهجت العربية المولّدة منهجا اجتازته جميع اللغات السامية الأخرى

---

(١) Friedlaender Der Sprachgebrauch der Maimonides I,57 وانظر : اللهجة العربية فى عمان وزنجبار تأليف Reinhardt و : Vollers. ZDMG 49,493

(٢) ابن الأثير : المثل السائر ص ١٠٧ .

(٣) جامع الألفاظ للفاسى ص ٤٧٣ ، وهناك أمثلة أخرى فى الكتاب السابق ذكره تأليف : G. Graf

(٤) ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٢١٩ ، وذكره المقدسى ص ٣١ بمعنى رجال المكس على الحدود ، وعبارته : صاحب ربع مصلحة ومسلحة .

(٥) البلاذرى ص ١٧٠ (اقرأ صمالو بدل ضمالو) ، كما ذكره ياقوت فى معجم البلدان ج ٢ ص ٦٧٠ وج ٣ ص ٤١٦ ، وانظر أيضاً : Sachau, Vom Klosterbuch G

(٦) ابن الأنبارى : نزهة الألباء ص ١١٥ ؛ الحريرى : درة ص ١٥ ؛ ابن خلكان ج ٣ ص ٧٢ .

(٧) انظر فى هذا : حمزة الأصبهانى : الموازنة ، كما ذكره ياقوت : إرشاد ج ١ ص ٥٥ ؛ السيوطى : مزهر ج ١ ص ٢٠٦ .

(٨) الخفاجى على الحريرى شرح الدرة ص ٣٣ .

قبل ذلك بكثير . وهذا لا يدل على أن ذلك التطور يرجع إلى أسباب عربية داخلية بحتة ؛ فإن الحقيقة الثابتة من أن التصرف الإعرابى عاش قرونا طويلة فى لغة البادية ، ولا يزال ماثلا فى بعض بقاياها إلى هذا اليوم ، تنطق بوضوح على خلاف ذلك الاحتمال . بل أقرب من هذا أن نلتمس سبب هذه الظاهرة فى أن لهجات تلك الشعوب ، التى اتخذت لغة السادة العرب لسانا لها — نتيجة للفتوحات العربية — كانت من النوع التحليلى الذى تنازل عن ظواهر تصرفه ، وضوابط استعماله الكلية كثيرا أو قليلا . ومهما يكن من أمر ، فإنا نرى فى مصادرنا ، فى ذلك الصدد ، إلى جانب التعبير الخاطىء فى الأصوات العربية ، إهمال حالات الإعراب ، وتصريف الأفعال ، أمارة بارزة للغة العربية على لسان غير العرب من سكان الدولة جميعا . وهذا لا يمنع أن العربية قد أخذت فى الأقاليم المختلفة صورا مختلفة ، وأنها كانت فى المناطق الآرامية ذات جرس يختلف عنها فى فارس ، وفى مصر ، وغيرها من شمال أفريقية . ولـكن هذه الخصائص المحلية أمكن تفاديها بوساطة سلسلة من قوالب التعبير الجديدة ، التى أخذت ، فى عربية الدولة ، وبعد ذلك فى العربية المولّدة ، الصفة النحوية التى كان يأخذها الإعراب فى العربية الفصحى . ومن قوالب التعبير المذكورة — مثلا — التجديد فى علاقات مواقع الكلمات ؛ إذ أن ترك الإعراب فى أواخر الـكلم يجعل من المتعذر تمييز الفاعل (إلا إذا كان فى صورة ضمير يتميز بصيغته) فى آخر الجملة ، أو بعد المفعول فبدلا من ذلك يجد المفعول المباشر فى الجملة الفعلية مكانه الطبيعى بعد الفعل مباشرة ، على حين يتقدم الفاعل إلى مطلع الجملة قبل الفعل ، بينما يتميز المجرور — كما فى اللغة الفصيحة — بتقدم الاسم المضاف أو بحرف الجر . ويجوز وضع الفعل اللازم فى صدر الجملة ، كما يجوز أن يتبعه مفعول غير مباشر ، وتختم الجملة بالفاعل . وحتى فى الأفعال المتعدية لا يوجد فى الترتيب القديم سبب للالتباس إذا كان المفعول ضميرا متصلا (أكلونى البراغيث) . وعلى الرغم من ذلك كثيرا ما يؤدى تقديم الفاعل إلى اضطراب فى الجملة القديمة ، بحيث لم يكن من

النادر أن نجد منذ القرن الثالث خروجا على الترتيب القديم حتى عند خيرة الكتاب . فابن قتيبة — مثلا — فى جمل مثل : فلان قال ، يضع الفاعل قبل الفعل هنا وهناك دون قصر ولا تأكيد[١] . أما أن الصفة النحوية ، فى الإحساس اللغوى الحديث ، قد صارت موقوفة على علاقات مواضع الكلمات ، لا على إعرابها ، مع وجود الإعراب ، فهذا ما نراه من أن الخلط بين علامات الإعراب كان يعد طابعاً مميزاً لطريقة التعبير الشعبى . وها هو ذا الجاحظ يذكر الأمثلة التالية نماذج للكلام الملحون[٢] : ذهبتْ إلى أبو زيد (بدل : ذهبتُ إلى أبى زيد) ورأيتُ أبو عمرو ، مكره أخاك لا بطل ، إذا عزْ أخاك فهن . وقد ظهر تبادل علامات الإعراب إلى حد بعيد فى النصوص النصرانية — العربية للقرن الثالث[٣] : لا يستطيع أحداً ، أو : لا يستطيع أحدٌ من الناس مثلٌ هذا ؛ وفى المثنى وجمع المذكر السالم يغلب النصب على الرفع تقريبا ، مثل : ويقومون البنين ، يدَيْك خلقتانى ويداك (!) صربتانى ، بدلا من : خلقتْنى يداك وضربتْنى يداك .

وقد أثر اختلاف ترتيب الكلمات أيضاً فى علاقات المطابقة ؛ فى اللغة الفصحى يقع الفعل فى الجملة الفعلية مفرد الصيغة ، ويطابق الفاعل التالى له ، بشروط معينة ، فى التذكير والتأنيث ؛ وفى الحالة النادرة — فقط — وهى تقدم الفاعل على الفعل ، يتطابقان أيضاً فى العدد . وعلى النقيض من ذلك فى العربية المولّدة ، التى تميل إلى بدء الجملة الفعلية بالفعل ، لا يندر تحقق المطابقة الكاملة أيضاً إذا تقدم الفعل[٤] .

وبانحلال الإعراب ، اضمحلت أيضاً الفروق التى كانت قائمة فى العربية الفصحى

---

(١) انظر مثلا : عيون الأخبار ج ١ ص ١ س ١١ ، ١٥ ص ٢٣ س ١٤ ص ٢٥ س ١٥ ص ٢٩ س ١٦ الخ ، وإن كان الترتيب الطبيعى هو السائد عنده .

(٢) بيان ج ١ ص ٦٨ ، وانظر فى المثلين المذكورين الميدانى — ١٣٤٢ هـ — ج ٢ ص ٢٤٤ أو ج ١ ص ٢٠ .

(٣) أخذت الأمثلة التالية من مجموعة فى كتاب : G. Graf Der Sprachgebrauch der ältesten Christlich - arabischen Literatur S 22 ff.

(٤) توجد أمثلة أخرى فى الكتاب المذكور .

بين أحوال الإعراب الثلاثة للاسم ، وبين ما ينصرف وما لا ينصرف . ويتجلى ذلك بوضوح فى أن صيغتى المثنى وجمع المذكر السالم فى حالة التعريف قد غلبت على صيغتيهما فى حالة الإضافة . وقد وجدت قديماً فى النصوص النصرانية — العربية صيغ متفرقة مثل : مدبّرين الأرض ، أو : سامعين الناموس (هذا إلى جانب التعبير الصحيح : عاملى الناس[١]) وهو تعبير سائد فى اللهجات الحديثة[٢] . والتنوين ، من حيث إنه علامة على التنكير ، لا يزال ماثلا فى بعض البقايا فقط ، لاسيما فى العبارات الظرفية التى حصل فيها توسع كبير ، مثل : أوّلاً ؛ أما فيما عدا ذلك فإن الاسم بطبيعته منكر — ما لم يكن علما ، أو منادى ، أو معيناً بالإضافة إلى اسم ظاهر أو مضمر — ، على حين يعبر عن التعريف بوساطة الأداة ، بصورة أوسع من العربية القديمة ؛ إذ تدخل أداة التعريف الآن على ألفاظ : كل وبعض وغير[٣] ، فى مثل : الحيوانات الغير ناطقة[٤] ، وفى التراكيب العددية ، مثل : الثلاثة الأثواب[٥] ، أو : الاثنى عشر . وكان أيضاً من أثر ترك الإعراب فى أواخر الكلمات أن قامت وسائل أخرى مقام الإعراب ، فى حالة ما إذا لم يكف الترتيب الوضعى للكلمات فى ذلك ، فإدخال لام الجر على المفعول به[٦] ، بصورة مقصورة على أحوال خاصة فى اللغة الفصحى ، قد لجأت إليه أقدم النصوص النصرانية — العربية فى سورية وفلسطين ، بوجه خاص ، إذا تقدم المفعول على الفعل ، أولم يجئ

---

(١) G. Graf ص ٢٥ فى الكتاب السابق ، وانظر أيضاً بحث : A. Müller فى دراسة النصوص والاستعمال اللغوى لكتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة : SMA 1884 S. 892 (Sitzuxngsberichte d. Beyer. Akademie) d. Wtsseuschaften, Mûnehen)

(٢) انظر مثلا قواعد العامية المصرية تأليف : شبتابك ، ص ١٤٩ .

(٣) فى كل وبعض انظر ص   من هذا الكتاب ؛ والغير ينقده الحريرى فى درة الغواص ص ٤٣ ؛ وقد استعمله الدينورى فى المجالسة (كما ذكره ابن حجر فى لسان الميزان ج ٦ ص ١٣٩) فى عبارة : من مالى أو من مال الغير .

(٤) ابن أبى أصيبعة ج ١ ص ٦٩ ؛ A. Müller فى الموضع السالف .

(٥) عابه الحريرى : درة ص ٩٤ .

(٦) انظر : A. Fischer: Die Aufloesung der Akkusativrektion des Transitiven Verbes durch li, BVSG W 62

عقبه مباشرة ، نحو : ولى لم يعرفوا[١] . وكذلك يميز المجرور — كما فى العربية القديمة[٢] — بحروف الجر ، على الأخص : من .

والانتقال من النوع اللغوى التركيبي ، إلى النوع التحليلي ، يتجلى فى الفعل فى العربية المولدة ، فصيغ المضارع ، قبل كل شىء ، تتحد كلها فى النصوص النصرانية — العربية القديمة[٣] . وفعل الدعاء اختفى بالكلية تقريباً فى الجمل الأصلية ، وصار يعبر عنه (كفعل الأمر فى بعض الأحيان) بالفعل الخبرى الواقعى المشير إلى التأدب فى الخطاب فى نفس الوقت ، حيث يفهم طابعه الطلبى من سياق الكلام[٤] . كذلك تلعب صيغ الفعل فى الجملة الفرعية دورا فاقد الأهمية ؛ إذ زال الفرق بين الجمل الخبرية ، والجمل الإنشائية ، ونشأت — من جانب آخر — عبارات كثيرة جديدة يستعان بها على تصوير الأزمنة المختلفة لمعانى الحدث الفعلى ؛ فالمستقبل — مثلا — كثيرا ما يعبر عنه بلفظ : عتيدأن ، على حين تؤثر الترجمة العربية للإنجيل التعبير بلفظ : مزمع أن ؛ إذا لم تعبر عن ذلك بلفظ : شأنه أن[٥] . أما معانى الإرادة والرغبة ، والإمكان ، والاستطاعة ، والتكليف ، والوجوب ، فإنها يعبرعنها بشتى العبارات ، فيعبر [على بن سليمان] الفاسى القارى[٦] فى القرن الرابع — العاشر ، عن معنى الإمكان بالألفاظ : جاز ، احتمل ، استطاع ، ومضارعها . وعن معنى الإرادة بالألفاظ : أراد ، طلب ، اشتهى ، ومضارعها الخ على حين يعبر عن الضرورى بلفظ : وجب ومضارعه . وفى النصوص النصرانية يوجد — إلى جانب أراد ومضارعه — : وافقه ، سرّه ، كلاهما للتعبير عن الرغبة . ولفظ : كان مع مضارعه

(١) G. Graf فى الكتاب السالف ص ٤٢ .

(٢) انظر : Reckendorf Arab. Syntax

(٣) G. Graf فى الكتاب السالف ص ٣٠ .

(٤) A. Müller فى الموضع السابق ؛ وينقد الحريرى هذا النوع من التعبير : درة ص ١١٦ وانظر : Fleischer Beitraege 8

(٥) كل هذه الأمثلة فى المراجع الألمانية المذكورة .

(٦) انظر : شرح سفر التكوين ص ١٤٨ نشر : Skoss

يستعمل فى بعض النصوص النصرانية للتعبير عن التكليف والإيجاب ؛ والتعبير : رجع وفعل ، بمعنى فعل ثانيا ؛ عاد وفعل ، بمعنى كرر الفعل ، على حين أن : عاد ، فى حالة النفى ، تفيد أنه لم يفعل بعد . واحتفظت الجملة الشرطية ، من بين الجمل الفرعية بصورتها القديمة ، على حين اختفت الجمل الحالية ، التى لم تعد تتميز عن الجمل الأصلية بعد تقديم الفاعل فى مطلع الكلام ، وحل محلها جمل مقيدة للزمن تربطها روابط حرفية أو اسمية مختلفة . ويستعمل مترجم الإنجيل : من حيث ، بمعنى : فى حالة . وفى حياة القديسين فى القرن الثالث ، كثر استعمال : فيما ، بمعنى : بينما ؛ وإلى هذا يضاف الاستعمال الثالث : عندما ؛ ولإفادة معنى السببية يوجد لفظ : بأن ، وفى معنى : منذ : من حين ، وبدلا من حتى : إلى حين ؛ كما أن اسم الموصول تحول إلى الصيغة الجامدة فى جميع الأحوال ، وهى : اللى ؛ وكانت نتيجة ذلك كثرة مخالفة الجملة الإضافية (صلة الموصول) لقواعد المطابقة المعتمدة فى اللغة الفصحى ، فى نصوص كتاب النصارى واليهود [1] .

ومهما اختلفت الأمثلة التى ذكرناها — حتى الآن — فى تفصيلها فإنها تشترك جميعا فى أنه عوضاً عن نظام التصريف الكامل النموّ مع قواعد إعرابه وتصريفه ، جدّت حالة لغوية بسّط فيها التصريف ، وصوّرت فيها علاقات التركيب بين الألفاظ المؤلفة لجملة واحدة — فى أغلب الأحوال — بوساطة وسائل ظاهرية ، مثل مواقع الكلمات ، وترتيبها والاستعانة على تغييرات الحدث بالجمل الموضحة ، وتعديل الجمل ، وكثرة المترادفات ، وترك التصرف الإعرابى .

هذا والخلط بين علامات الإعراب ، وبين صيغ الأفعال ، لم يكن هو السبب فى هذا التطور اللغوى ، وإنما هو من عوارضه وظواهره التى لفتت — من قبل — أنظار أقدم النظّار من المسلمين بصورة قوية ، بحيث تحمل ملاحظاتهم فى هذا السبيل على اعتقاد أن طريقة التعبير الشعبى إنما ترجع إلى مخالفة الإعراب فحسب . أما أن

(١) كل هذه الأمثلة وغيرها توجد فى : G. Graf فى الكتاب السابق ذكره .

هذا النوع من الملاحظة الشديدة الصلة بالقواعد النحوية ، و يبدأ تنقيه اللغة الفاشي عنها ، هو ذو صفحة واحدة فقط ، فهذا ماتدل عليه النصوص النصرانية — العربية ، أو اليهودية — العربية ، التى ترجع قيمتها من الوجهة اللغوية التاريخية ، إلى أنها تعين على متابعة اللهجات الشعبية الحديثة حتى ظهور الأسلوب التحليلى للغة ، فى وقت كانت الآداب العربية ، المكتوبة بأقلام المؤلفين المسلمين ، لا تزال فى أسلوبها اللغوى ، مليئة بالمُثل العليا للعربية الفصحى .

(٦)

العلاقات اللغوية فى عصر المامون

وعقيدة الاعتزال الرسمية

١٩٨ / ٨١٣– ٢٣٥ / ٨٥٠

ذلك الازدهار العظيم الذى سطع نوره مع حكم هارون ، استمر مطَّرداً فى ظل الخلفاء الثلاثة الذين توالوا من بعده ؛ بل لقد ظل منشور الأعلام حتى أواسط القرن الثالث — التاسع .

وعلى الرغم من أن اضمحلال السلطان فى الجانب الغربى للدولة ، الذى بدأ فى عصر هارون ، قد بقى متواصلا فى ظل المأمون (حكم ١٩٨/٨١٣–٢١٨/٨٣٣) وامتد إلى فارس العظيمة الأهمية من ناحية الخراج والضرائب ؛ فقد نهضت الحياة الثقافية على عهد المأمون بوجه خاص فى مختلف النواحى من الشعر ، وعلوم اللغة ، والدين ، والكلام ، وتعاطى الثقافة الهلّينستية الشرقية ، نهضة تسوّغ تسمية هذه المرحلة : العصر الذهبى للأدب العربى .

أما أننا أوسع دراية — إلى حد كبير — بالعلاقات اللغوية لأواخر القرن الثانى — الثامن ، والنصف الأول من القرن الثالث — التاسع ، بالإضافة إلى الأزمنة المتقدمة على ذلك ، فهذا ما نحن مدينون به — قبل كل شىء — لكتب الجاحظ (حوالى ١٦٥ — ٢٥٥ هـ) . هذا الأديب المنتمى إلى البصرة ، والناشىء فى مدرسة الاعتزال بهذه المدينة ، وجّه ملاحظته القوية ، وملكة انتباهه الراسخة ، فى أسلوبه الخصيب الأفكار المتعدد النواحى ، إلى شتى الظواهر فى الحياة اللغوية : وأفاض الكلام

عن ذلك فى بحوثه وكتبه التى صنفها فى مختلف الموضوعات ، ولا سيما كتابه عن الفصاحة والبلاغة : كتاب البيان والتبيين [١] .

والجاحظ يتنبه أيضاً إلى لغة الأطفال ، مثل : واوّاو بمعنى « كلب »[٢] وماءما بمعنى : شاة أو خروف [٣] ؛ وهو يحكى أن النبطى المغلاق الذى نشأ فى سواد الكوفة ، وإن تكلم العربية المعروفة ، وكان لفظه متخيراً ومعناه شريفاً ، يعرف السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطى . وكذلك إذا تكلم الخراسانى ، وكذلك إن كان من كتاب الأهواز ، فإنك تعرفه ، مع إعرابه وتخير ألفاظه فى مخرج كلامه . ويستطيع الحاكية من الناس أن يحكى نطق الأهوازى والخراسانى والزنجى والسندى حتى تجده كأنه أطبع منه [٤] . والنبطى القحّ يجعل الزاى سيناً والعين همزة [٥] ؛ والصقلبى يجعل الذال المعجمة دالا [٦] ؛ والهندى يجعل الجيم زاياً [٧] . وقد كان خلط الأصوات على هذا المنوال معيناً لا ينضب للتسلية والفكاهة . ويحكى الجاحظ متندّراً ، كثيراً من القصص عن التغييرات الفكاهية التى كانت تنشأ من ذلك . كما يتنبه الجاحظ أيضاً إلى تعدد اللغات ؛ فالعربية والفارسية تختلفان ، فإذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها ؛ وقد استثنى من ذلك أحد القصاص ، وهو موسى الأسوارى ، الذى يصفه بأنه كان من أعاجيب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به ، فيجلس العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية ، من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحوّل وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ،

---

(١) يعتمد المؤلف على النسخة المطبوعة بالقاهرة فى جزأين ١٣١١ هـ .
(٢) بيان ج ١ س ٢٩ .
(٣) حيوان ج ٥ س ٨٩ .
(٤) بيان ج ١ س ٣١ .
(٥) بيان ج ١ س ٣٢ .
(٦) بيان س ٣٣ .
(٧) بيان س ٣٢ ؛ ويؤخذ مما ذكره فى س ٣٣ س ٨ أن الهندى يجعل الجيم ذالا ، والشين سيناً أيضاً .

فلا يدرى بأى لسان هو أبين[١] . وذكر الجاحظ أمثلة لاستعمال الكلمات والعبارات الفارسية فى الشعر العربى ؛ فهذا شاعر يتحدث عن : الكافر كوبات ، وهى آلة من آلات الحرب أشبه بالمِرزبّة ، فى أيدى رجال ليست لغتهم لغته[٢] . ولا يقتصر الثانى الشاعر فى مدحته لهارون الرشيد على استعمال لفظ : كَرْد ، بمعنى عنق ، من اللفظ الفارسى : جَرْدَن[٣] ، بل يقول زيادة على ذلك :

آلى يذوق الدهرَ آبَ سَرْدِ

أى حلف لا يشرب الماء البارد أبداً[٤] . ومن الخليط اللغوى — بمعنى الكلمة — قصيدة للأسود بن أبى كَرِيمة ، اختلطت فيها الجمل العربية بالفارسية[٥] ، فإذا قرنّا بهذه الأمثلة ، الجملة الفارسية التى ذكرها الجاحظ فى كتاب البخلاء[٦] ، تجلى لنا بوضوح أن الجاحظ كان يفهم الفارسية . وعلى الرغم من ذلك لم يُعن الجاحظ باللغات الأجنبية لذاتها — نشأ الاهتمام باللغات الأجنبية لذاتها فى القرن الرابع الهجرى ؛ ففى ذلك القرن ألَّف ابن الجراح المتوفى ٣٩١ هـ أول كتاب نعرفه فى اللغة الفارسية[٧] — . وإنما اقتصر الجاحظ على ملاحظة أن كثيراً من أصوات اللغات الأجنبية ، وعلى الأخص لهجة خوزستان ، لا يصوره الخط العربى ، وأن على سواحل البحر من أسياف فارس ناسا كثيراً كلامهم شبيه بالصفير[٨] . ويكرر فى موضع آخر حكاية

(١) بيان ج ١ ص ١٣٩ ، وانظر : Goldziher, Muh. Studien, 162

(٢) بيان ج ١ ص ٦١ ، وفى معنى : كافر كوبات ، انظر تفسير الطبرى ، فى فهرست الألفاظ اللغوية .

(٣) ورد لفظ : كرد فى كثير من الأشعار ، على الأخص فى بيت للفرزدق مشهور ، ديوان ص ٢١٠ ؛ انظر ابن قتيبة : أدب الكاتب ص ٥٢٧ ؛ البطليوسى : اقتضاب ص ٤١٨ ؛ ويستفاد من استعمال هذا اللفظ على هذه الصورة أن من أخذه ظن أن النون فى آخر الكلمة : جردن ، مثل التنوين فى العربية .

(٤) بيان ج ١ ص ٦١ س ١٠ .

(٥) بيان ج ١ ص ٦١ س ١٩ — ٢٣ ، ويوجد مثال آخر فى معرب الجواليقى ص ٩ .

(٦) ص ٢٤ س ١٧ مع ملاحظات فان فلوتن .

(٧) الفهرست ص ٨٦ س ١٤ .

(٨) بيان ج ١ ص ١٦ س ٢٢ .

عن شاهد عيان يصف مجتمعاً من الزنوج قام خطيبهم على ما علا من الأرض وتكلم: وهو يشبّه حوارهم بالدمدمة والهمهمة[١] . ومن ناحية أخرى يوجّه الجاحظ عناية فائقة إلى الأخطاء الخاصة فى التعبير ، مثل لثغة اللسان ، ولكنته وما شابه ذلك من عجز عن تصحيح مخارج الحروف ؛ ويذكر أبيات أبى رمادة الذى طلّق زوجته خشية أن تجيئه بولد ألثغ[٢] . وكثيراً ما تبدل السين ثاء ، والراء غيناً[٣] ، ويلى ذلك إبدال الراء ظاء ، ثم ذالا ، وأسوأ الوجوه إبدالها ياء[٤] . وينطق بعض الناس بدلا من اللام ياء ، وآخرون كافا[٥] . كما أن بعض الناس لا يستطيع نطق القاف فينطق بدلها طاء[٦] . ومثالا لاجتماع لثغتين ذكر الجاحظ شوشى صاحب عبد الله بن خالد الأموى ، إذ كان يجعل كلا من اللام والراء ياء[٧] . وعقد الجاحظ فصلا طويلا[٨] خاصاً بمؤسس مذهب الاعتزال : واصل بن عطاء ، الذى كان لا يحسن نطق الراء ، فكان يتجنب فى مهارة وحذق جميع الكلمات التى تشتمل عليها .

---

(١) فهرست س ٢٨ .

(٢) بيان ج ١ ص ٢٦ س ١٥ ؛ ابن قتيبة عيون ج ٤ ص ٧ . وذكر : زياد ، بدلا من أبى رمادة ؛ وفى استحسان اللثغة الخفيفة واستملاحها انظر : بيان ج ١ ص ٦٢ س ٢٦ ؛ الجمحى: طبقات س ١٩ س ١٨ ؛ قدامة : نقد الشعر ص ٦٩ ؛ أبو نواس : أغانى ج ١٨ ص ١٩٢ ؛ وانظر الرمادى فى ابن خلكان ج ٣ ص ٥٣٥ ، وانظر : Meg ص ٣٣٨ .

(٣) بيان ج ٢ ص ٨ س ١٣ ، وكان ينطق الغين بدلا من الراء ، ابن السراج النحوى المتوفى ٣١٦ ﻫ كما ذكر ذلك ابن خلكان ج ٢ ص ٣١٩ . وفى تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١١٩ رواية عن كيفية علاج ابن المنجم من لثغة كانت بلسانه ، ومنها يستفاد أن اللثغة هى تعويض صوت بصوت آخر . فقد كان شعبة مثلا ينطق الطاء بدلا من الثاء ؛ انظر سنن أبى داود ج ٢ ص١٩٤ (طبع ١٣٤٥ ﻫ) .

(٤) بيان ج ١ ص ١٧ س ٦ — ١٩ .

(٥) فى الموضع السالف س ٣ .

(٦) بيان ج ١ ص١٧ س ١ — ٣ ، وأشهر الأمثلة لذلك يقدمه العلوى إبراهيم بن إسماعيل الذى سمى بسبب هذه اللثغة : طباطبا . انظر ابن خلكان ج ١ ص ٧٠ فى ترجمة حفيده أبى القاسم ابن طباطبا أمير العلويين فى مصر المتوفى ٤٣٥ ﻫ .

(٧) بيان ج ١ ص ١٧ س ٢٣ ، ويقدم مثالا آخر لاجتماع لثغتين ، ابن أبى البغل الذى كان يجعل الراء غيناً والكاف همزة ، والذى عمل لأجله أبو الحسن بن طباطبا ، المتوفى ٣٢٢ ﻫ قصيدة لا تحتوى على الراء ولا الكاف . انظر : ياقوت : إرشاد ج ٦ ص ٢٨٥ — ٢٨٩ .

(٨) بيان ج ١ ص ٨ س ١٦ .

ويعالج الجاحظ أسماء عيوب اللسان : فالتمتام هو الذى يتتعتع لسانه فى التاء ؛ والفأفاء الذى يتتعتع لسانه فى الفاء [١] . واللفّة ، ومصدرها اللفف ، والوصف: ألفّ ، هى أن يدخل الرجل بعض كلامه فى بعض [٢] . كما يسوق أيضاً شاهداً على اللجلجة [٣] ويذكر أن الحُبسة هى ثقل الكلام على اللسان [٤] ؛ وقد استعمل القرآن لفظ : عُقدة ، فى معنى قريب من هذا ، آية ٢٧ من سورة طه ، أى فى الحبسة التى كان يقاسيها موسى فى نطقه [٥] . ويحدد الجاحظ : اللكنة ، بأن يدخل الرجل بعض حروف العجم فى حروف العرب ، وتجذب لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول ، أى التغيير الذى يطرأ على الأصوات العربية فى لسان غير عربى [٦] ؛ وهى على ذلك تتحد أحياناً مع اللثغة أى إبدال حرف عربى بحرف آخر والنحنحة والسعلة من لوازم العجز فى البيان [٧] ؛ وأخيراً الحكلة ، وهى نقصان آلة المنطق ، وعجز أداة اللفظ حتى لا تعرف معانيه إلا بالاستدلال ؛ أو بعبارة أخرى هى كلام الإنسان فى خفوت لا يبين ؛ وهى كذلك كلام الحيوانات العجماء دون صوت ، مثل النمل التى فهم سليمان كلامها ، كما جاء فى القرآن [٨] . وقد استهل الجاحظ كلامه عن البيان والبلاغة بتفصيل أحوال العجز عن التعبير : العىّ [٩] . وفى مكان آخر يسوق جملا عسيرة النطق ليحقق تعويد اللسان على الذرابة والمرونة ، مثل البيت :

وقبر حرب بمكان قفر ‏ ‏ وليس قرب قبر حرب قبر

(١) بيان ج ١ ص ١٨ س ١٢ — ٢٠ ؛ انظر المبرد : كامل ص ٣٦٣ س ١ — ٦ ، ٣٦٤ س ٢ ؛ رؤبة ص ٥٥ ؛ ياقوت ج ١ ص ٧٧ ؛ أغانى ج ١ ص ٤١٢ ، طبع دار الكتب .

(٢) بيان ١ ص ٢٠ عن أبى عبيدة ، والكامل فى الموضع السابق .

(٣) بيان ١ ص ١٩ ، وذكر ابن دريد فى الاشتقاق ص ٢٣٩ س ١٦ ، لفظ اللجلاج ، لقباً على بعض الناس .

(٤) بيان ١ ص ١٩ س ٥ .

(٥) بيان ١ ص ١٨ س ٣ — ١٢ .

(٦) بيان ١ ص ١٩ ، ٣٣ ، ٦٩ ، ويوجد مثال لذلك فى الأغانى ج ١٣ ص ١٥٨ .

(٧) بيان ١ ص ١٩ .

(٨) بيان ١ ص ١٩ ؛ حيوان ج ٤ ص ٣ ، ٧ .

(٩) بيان ١ ص ٢ — ٤ .

الذى لا يستطيع أحد أن ينشده ثلاث مرات فى نسق واحد فلا يتتعتع ولا يتلجلج [١] . وهو يتكلم عن أن بعض أنواع من الربط بين الأصوات لا ترد فى العربية [٢] ، وهي ظاهرة يسميها علماء القواعد بالتنافر ، ويتخذونها وسيلة للتعرف بها على الألفاظ الغريبة [٣] .

ومن النفاسة بمكان ، ما ذكره الجاحظ عن اللهجات ، واللغات الخاصة ، وألسنة الحرف والمهن . فهو يبين أن كل مصر يتكلم على لغة من نزل به من العرب [٤] ، ويذكر أمثلة لفرق مابين مكة والبصرة فى الاستعمال اللغوى . وفى كتابه : البخلاء ، يسوق الجاحظ وصفاً حياً للدوائر الأدبية فى البصرة ، حوالى سنة ٢٠٠ هـ ؛ كما يعرض صورة ، غاية فى الدقة من الوجهة اللغوية ، لأسلوب المحادثة بالبصرة فى ذلك العهد [٥] . ويعطينا هذا الكتاب نفسه ، فى الفصل الذى عقده لرئيس طائفة المتسولين بالبصرة : خالد بن يزيد ، المعروف بخالويه Hâloë [٦] ، نظرة فى رموز المحتالين ؛ فكلمة : مُخطِرانى ، تعبر عن المحتال الذى يوهم أنه مؤذن من خراسان ، ويتظاهر بأن بابك أمر بقطع لسانه [٧] . وفى موضع آخر يسوق خطبة [٨] فى أدب المائدة ، ويعلق عليها بشرح عدد من الاصطلاحات التى يعبر بها عن مختلف العادات السيئة عند الأكل . وقد يستطرد أيضا بذكر بعض القصص عن الملاّحين ، مع ذكر اصطلاحات

---

(١) بيان ١ ص ٢٩ ؛ مسعودى (١٣٤٦ هـ) ج ١ ص ٣٣٠ ؛ الدميرى (١٣٤٨ هـ) ج ٢ ص ٢٥٢ ؛ وقد اعتمد علماء البلاغة فى عصر متأخر على هذا الشعر للاستشهاد به على تنافر الحروف . وهو مشهور .

(٢) بيان ١ ص ٣١ س ٦ .

(٣) السيوطى : مزهر (١٣٢٥ هـ) ج ١ ص ١٦٠ ؛ وانظر ابن دريد فى : A.Siddipqi,The Allahabad University Studies vol VI Arts'Section(1930)

(٤) بيان ١ ص ٩ س ٢١ .

(٥) انظر : فان‌فلوتن فى مقدمته لهذا الكتاب ص ١١١ .

(٦) انظر ص ٤٧ — ٥٦ فان فلوتن .

(٧) ص ٥٤ من الكتاب المذكور ؛ وبعد ذلك بمائتى عام ، وضع أولئك المحتالون الروم موضع بابك ؛ انظر اليتيمة ج ٣ ص ٧٨ فى تفسير كلمة : مخطر ، أسفل الصحيفة .

(٨) ص ٧١ مع ملاحظات فان‌فلوتن .

من لغة مهنتهم [١] ؛ كما يتفكه بالطبيب الذى يعبر عن الأمور المعتادة باصطلاحات فنية ، ويسمى البحح المصحوب بالمخاط ، باللفظ اليونانى الدخيل : بلغم [٢] .

وعظيم الفائدة — بوجه خاص — ما ذكره الجاحظ عن : الأعراب . فهو يعدّ من أجلّ المتع أن يستمع المرء إلى حديث الأعراب الفصحاء العقلاء ، أو إلى محاضرة العلماء البلغاء [٣] . ويحثّ على رواية نوادر الأعراب مع إعرابها ومخارج ألفاظها [٤] . وهذا يدل على أن الإعراب فى عصره كان لا يزال حياً على ألسنة البدو الخلّص . وعلى النقيض من ذلك ، ينعت بمخالفة الأسلوب ، ومسخ الصورة حكاية نوادر العوام ، وملح الحشوة والطغام ، بالإعراب الكامل ، والألفاظ المتخيرة [٥] ؛ إذ أن هؤلاء الطغام من التجار وسواد الشعب ينطقون عربية حافلة باللحن ؛ وعنهم يأخذ الأجانب كالأنباط والفرس ؛ والأعرابى القح لايفهم هذه الرطانة ؛ ومتى وجد النحاة أعرابياً يفهمها يهرجوه ولم يسمعوا منه ؛ لأن ذلك يدل على طول إقامته فى الدار التى تفسد اللغة ، وتنقص البيان [٦] . ويذكر الجاحظ أن أسوأ اللحن هو لحن الأعاريب النازلين على طرق السابلة ، وبقرب مجامع الأسواق [٧] . ويقول الجاحظ إن أول لحن سمع بالبادية : هذه عصاتى ، بدلا من : عصاى ؛ على حين أن أول لحن ظهر بالعراق هو ما قيل فى الأذان : حيِّ على الفلاح [٨] . ويسوق الجاحظ — فى باب خاص — مجموعة كبيرة من اللحن المختلف الأنواع [٩] . وكون هذه الأنواع خليطا

---

(١) بيان ١ ص ٢١٢ س ١٢ — ١٧ ، وتوجد بعض اصطلاحات الملاحين أيضاً فى حكاية أبى القاسم : Mez 3 104 ؛ وفى المستطرف (١٣٥٢ هـ) ج ٢ ص ٢٤٥ .

(٢) بيان ٢ ص ٤ س ٢٣ ؛ وتختلف عن ذلك رواية كتاب المحاسن والأضداد س ٩ (فان فلوتن) الذى نسب — دون حق — إلى الجاحظ .

(٣) بيان ١ ص ٦٢ س ٥ — ٨ .

(٤) بيان ١ ص ٦٢ س ١٤ .

(٥) بيان ١ ص ٦٢ س ١٦ — ١٩ ؛ حيوان ج ٣ س ١٢ .

(٦) بيان ١ ص ٦٧ فما بعدها .

(٧) بيان ١ ص ٦٢ س ٢١ .

(٨) بيان ٢ ص ٥ س ٤ ؛ واللحن فى كسر الياء والصواب الفتح .

(٩) بيان ٢ ص ٢ — ٥ .

يشتمل على شتى الألوان والأحوال ، من تعسر مخارج الحروف ، إلى المخالفات الشنيعة لقواعد النحو والتصريف ، إلى التساهل فى اختيار الألفاظ ، إلى الخروج على الأساليب ، لا يغير كثيرا مما قلناه ، لأنه ، حتى إذا أمكن ترتيب استطراداته ، التى قصد بها إلى جلب انتباه القارىء ، على أى صورة من الترتيب ، فإن جميع ملاحظاته[١] — بوجه عام — تدل على أنه قسمها — متأثراً بروح عصره تأثراً سطحياً بحتا — حسب الفروق التى كانت قائمة بين الأسلوب الصحيح والأسلوب الخاطىء فى صورة الكتابة.

وإلى جانب الطبقات المحلية ، والاجتماعية ، وجدت طبقة أخرى أبرز الجاحظ ذكر خصائصها اللغوية فى مواضع مختلفة ؛ إنهم أولئك الذين يولعون بالتنوق والمبالغة فى مضاهاة كلام البدو باستعمال لغة متصنعة مستكرهة ؛ وهذا الشذوذ يطلق عليه الجاحظ اصطلاحات فنية كثيرة ، يفهم منها أنها راجعة إلى نوع من التعبير الجهير المفخّم الحافل بحروف الحلق . فالتقعير[٢] نوع من التعبير كأنما يستخرج من قعر بئر ؛ والتقعيب ، الذى يكاد يكون مرادفاً له ، نوع من التعبير يأخذ فيه الفم صورة القَعب[٣] والتفخيم يصور تأكيد التعبير والتنصيص عليه ؛ وكلمتا : التشدق والتشادق ، مأخوذتان من كلمة : شدق ، بمعنى زاوية الفم ، ومعناهما التكلم مع اتساع زاوية الفم ، وكانا يستعملان فى الأصل تعبيراً متعارفا ، على سبيل المجاز ، عن البلاغة ، دون معنى آخر من العيوب[٤] ، ولكنه نقل بعد ذلك إلى التصنع فى الكلام الذى يحتمل من الأعراب وحدهم[٥] . وقد نسب إلى الرسول [صلى الله عليه وسلم] تنبؤه بأن الثرثارين المتشدقين المتفيهقين أبعد الناس مجالس منه يوم القيامة[٦] ، كما نسب إليه : إياى

(١) انظر ياقوت : إرشاد ج ١ ص ٢١ .

(٢) انظر : Bräuulich, Well 43

(٣) ساق الجاحظ شواهد من الشعر على ذلك ، بيان ج ٢ ص ٤ س ١٤ — ١٦ .

(٤) بيان ١ ص ٥٢ س ٣ — ١٠ .

(٥) بيان ١ ص ٢١ س ١٠ ص ١٠٧ س ٨ ؛ انظر أيضاً Dozy فى المادة .

(٦) الترمذى فى كتاب البر ، والمواضع المختلفة فى : Wensinck, Concordance I. 290 وفى ابن قتيبة : أدب الكاتب ص ١٥ ؛ المبرد : كامل ص ٣ ؛ القالى ج ٢ ص ٢٩٥ ؛ تاريخ بغداد ج ٤ ص ٦٣ ؛ الرضى : المجازات النبوية ص ١١٨ ؛ كنز العمال ج ٢ ص ١١٤ .

والتشادق . وقد ذكر الجاحظ كلتا الروايتين فيما اختاره من أحاديث الرسول [صلى الله عليه وسلم][١] ، وساق مثلا لهذا (التشادق) الرسالة المشهورة التى كتبها يحيى بن يعمر على لسان يزيد بن المهلب إلى الحجاج — كما روى — ، والتى تشتمل على الكلمة الشعرية العالية : عُرعُرة ، أى ذروة الجبل ، وحضيض ، أى سفح الجبل ، وغير ذلك من غريب ألفاظ البدويين ؛ كما ذكر قولا عجيباً ليحيى بن يعمر ، إذ حكم بين رجل وامرأته[٢] . بيد أن النموذج الحق لهذا الأسلوب المتقعر هو شخصية الأسطورة المشهورة عن أبى علقمة[٣] ، الذى لم يصلنا شىء ثابت عن أطوار حياته . وقد اقترنت باسمه حكايات جَمّة ، جمعت — فى وقت متأخر — فى كتاب خاص[٤] . وفيها يذكر — عادة — كيف أنه كان يعبر بعبارات طَنّانة عن شئون مبتذلة تافهة ، على حين يكون المخاطب غالباً رجلا بسيطا ساذجاً من سواد الشعب ، لا يكاد يفهم مما يقول شيئا ؛ فإذا كان المخاطب رجلا ما كراً ذا ثقافة ، رد عليه بمثل ما أعطاه[٥] ؛ ومن هذا المحصول الكثير التداول أخذ الجاحظ قصتين فى كتابه : البيان[٦] .

على أنه لم يكن مجرد اختيار كلمات الأعراب الغريبة هو الذى كان يعطى لغة الحضريين مسحة من النفاسة وعلو القيمة فحسب ، بل لقد كان استعمال الإعراب والتصريف الكاملين — فى خارج المحيط العلمى — يعد كذلك تقعرا وتشدقا ، على عهد الجاحظ . وهذا يفهم — ضمنا — من تنبيهه — الذى ذكر آنفا — إلى ضرورة رواية نوادر الأعراب بالإعراب الكامل . بيد أنه يؤخذ نصاً من

(١) بيان ١ ص ١٥٩ فما بعدها .

(٢) بيان ١ ص ١٤٢ ص ٩ — ٢٢ ، وانظر ابن قتيبة : أدب الكاتب ص ١٤ ؛ المبرد : كامل ص ٤٤ ؛ ابن الأنبارى : نزهة ص ٢١ ؛ تاج العروس ج ٣ ص ٦٢٤ .

(٣) انظر ياقوت : إرشاد ج ٥ ص ٧٢ — ٧٧ ؛ سيوطى ؛ بغية ص ٣٢٥ .

(٤) نوادر أبى علقمة : فهرست ص ٤٣٥ .

(٥) انظر — زيادة على ياقوت فى الموضع السابق — ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ٢ ص ١٦٢ ؛ ١٦٣ ؛ المحاسن والأضداد المنسوبة للجاحظ ص ١٤ ؛ ابن عبد ربه : العقد ج ١ ص ٢١١ (١٣١٦ هـ) .

(٦) بيان ١ ص ٢٤٢ فما بعدها .

الـكلمات التى يسوّغ بها الطابع الذى طبع به كتاب : البخلاء [١] ؛ حيث يبين أنه تصنع اللحن ، وكوّن جملا مخالفة للنحو ، واستعمل صيغاً للـكلمات على خلاف القواعد ، وتنازل عن الإعراب ، كل ذلك مناسبة للموضوع ، إلا إذا حكى كلاماً لسهل بن هارون البخيل المتشدد المتقعر ، أو أمثاله . وهو يصور مثلا البخيل : محمد ابن أبى مؤمّل ، بأنه رجل صاحب تقعير وتفخيم وتشديق وهمز وجزم [٢] .

وكلما ندرت اللغة الفصيحة — إذ ذاك — بين الطبقات المثقفة ، ازداد الاستياء من كل خروج لغوى على لسان أولئك الذين لم يعودوا متمكنين فى الحقيقة من العربية ، بل يتصنعونها فحسب [٣] . وكثيراً ما سخر الناس من اللحن الذى حكاه الجاحظ [٤] عن المتكلم : بشر بن غياث المريسى (المتوفى ٢١٨/٩ هـ) أحد تلاميذ أبى يوسف ، حينما قال : [قضى الله لـكم الحوائج] على أحسن الوجوه وأهنؤُها ، بدلا من : وأهنئها ، حيث أخطأ فى حركة الإعراب ، وإن نطق الهمزة التى حذفت فعلا فى لغة الشعب . وقد حمل ذلك اللحن الشاعر الظريف : القاسم التمّار ، على إبداء الملاحظة الخبيثة من أنه قال هكذا وفاقا لقول الشاعر :

إنّ سُليمى واللهُ يكلؤها ضنّت بشىء ما كان يرزؤها

والأشعار على قافية الهمزة — مالم تـكن همزة الممدود — جد نادرة . والأمثلة القليلة من ذلك النوع ، تبدو فيها الصنعة كثيراً أو قليلا . وفى الفهرست ص ٢٤٢ س ١٢ (طبع الرحمانية) ، حيث عقد فصلا خاصاً للقصائد المهموزات ، ذكر مع قصيدة ابن هرْمة [٥] (التى منها البيت الآنف) ، قصيدة همزية أخرى فقط

---

(١) ص ٤٢ س ٦ — ١٠ ؛ فان فلوتن .
(٢) ص ١٠٢ س ١٢ .
(٣) بيان ج ١ ص ٦٢ س ٢٠ .
(٤) بيان ج ٢ ص ٣ ؛ ابن قتيبة ج ٢ ص ١٥٧ ؛ المحاسن المنسوبة للجاحظ ص ٨ ؛ تاريخ بغداد ج ٧ ص ٥٧ .
(٥) وتنم على ميله للتفنن قصيدته : المعطلة ، أى التى لا تشتمل على حرف معجم ؛ انظر الأغانى ج ٤ ص ١٠٦ .

لحفص الأموى [١] ، أو على رواية أخرى لأبى صعصعة العامرى ، على روىّ : تلألأ . ويوجد من هذه القافية أيضاً قصيدتان لأبى حزام العُكلى الذى لمع نجمه حوالى سنة ١٦٠ هـ ، قال إحداهما فى مدح وزير المهدى : معاوية بن عبيد الله الأشعرى ، على روىّ : مَجْؤُوَهْ ، وهى حافلة بالألفاظ القديمة المهجورة ، حتى يعدها النقاد المتأخرون مثالا مخيفاً للوحشى المتنافر من الأساليب [٢] ؛ والثانية قصيدة لغوية تعليمية على روىّ : اؤه [٣] ؛ وعدتها ٢٢ بيتاً ، تحتوى على ٨٠ كلمة مهموزة .

ومثال آخر يرينا كيف يُلقى رجال ، تهذّب إحساسهم اللغوى ، وزناً للدقائق أيضاً فى المسامرة والمحاورة . هاهو ذا علىّ بن الجهم ، المتوفى سنة ٢٤٩ هـ ، أحد رجال حاشية المتوكل ، يعتذر من تبكيره فى الانصراف عن جماعة كان يجالسها بالكلمات : إنه بلغنى شىء وأظننى مأزوراً فى قعودى . وبهذا خف وزنه فى نظر المبرد (٢١٠ — ٢٨٥ هـ) الذى كان حاضراً إذ ذاك ؛ لأن مأزوراً ، بدل : موزورا ، أى آثماً ، إنما يجوز استعماله على سبيل المجاراة للفظ : مأجور ، فحسب [٤] ؛ كما روى فيما نسب إلى الرسول [صلى الله عليه وسلم] أنه قال للنساء اللائى جلسن فى انتظار الجنازة : « ارجعن مأزورات غير مأجورات [٥] » . فإذا استعمل وحده قيل : موزور ، فقط [٦] .

والصورة التى يرسمها الجاحظ للعلاقات اللغوية فى عصره ، يمكن إكمال بعض خطوطها المتفرقة ، بوساطة روايات أخرى وصلت إلينا . فكون لغة الأعراب لم تزل بعدُ — كما كانت من قبل — تعدّ النموذج الذى لا يُدرك لكمال الفصاحة ،

(١) انظر ياقوت : إرشاد ج ٤ ص ١١٥ .
(٢) قدامة : نقد الشعر ص ٦٥ ، وذكره المرزبانى : موشح ص ٣٥٤ .
(٣) انظر : W. Ahlwardt, Sammlungen alter arabiseher Dichter I
(٤) انظر فى مثل هذه المجاراة : Brockelmann 7. Sem. 5,6 ff
(٥) ابن ماجه : باب ما جاء فى اتباع النساء الجنائز .
(٦) المرزبانى : موشح ص ٣٤٥ ؛ انظر أيضاً الحريرى درة ص ٥٢ ؛ الشهاب الخفاجى على الدرة ص ٨٢ ، وانظر : Rescher, ZA 23, 45 f. ؛ ويوجد أيضاً لفظ موزور مقروناً إلى : مأجور ، عند المبرد ص ٧٠٣ س ١٢ .

يقرّبه إلينا — بأوضح تصوير — مثال اللغوى : لُغْدة الأصبهانى ، المعاصر لأبى حنيفة الدينَورى المتوفى ٢٨٢ هـ . فهو يدين بمعارفه اللغوية ، التى لفت بها الأنظار فى بغداد ، لمخالطته للأعراب الذين نزلوا بأصبهان فى خدمة محمد بن يحيى ابن أبان ، ونصبوا خيامهم فى رحابه . فقد ألح فى سؤالهم عن جميع ما غمض عليه فى كتابات أبى زيد وأبى عبيدة والأصمعى — التى حفظها عن ظهر قلب فى صباه — ، واكتسب بذلك علماً غزيراً ، لم يضارعه فيه أحد بالعراق (١) .

بيد أن لغة الأعراب ، أيضاً ، يبدو أنها ، فى سبيل تطورها وانتشارها الطبيعى ، قد ظهرت عليها تجديدات مختلفة فى القرن الثالث — التاسع ، كان أصحاب « تنقية اللغة » يحسون بعدم جوازها . وهاهو ذا العالم اللغوى البصرى : أبو الفضل الرّياشى ، الذى مات عن ثمانين عاماً تقريبا ، عند استيلاء الثوار من الزّنج على البصرة سنة ٢٥٧ هـ ، يرى أن ينسب تقدم مدرسته البصرية على منافستها الكوفية إلى أن البصريين أخذوا اللغة عن البدو الخلص حَرَشة الضِّباب ، وأكلة اليرابيع ، على حين استمد الكوفيون لغتهم من أنصاف الأعراب من أهل السواد وأصحاب الكواميخ ، وأكلة الشوارز (٢) أى أصحاب المشهيات كالخل ونحوه ، واللبن الرائب .

ويقدم لنا مثالا من هذا النوع رجل من حفدة جرير ، هو عمارة بن عقيل . لقد عاش فى سهول البصرة ، وكان يعد عند علماء هذه المدينة حجة ثبتا فى أمور اللغة . وقرأ عليه المبرد أشعار جرير (٣) . ولا يندر أن يظهر شاهداً فى نقائض جرير والفرزدق . وعلى الرغم من ذلك فقد كان يجمع لفظ : ريح (من : رِوْح) على أرياح . واضطر بهذا أبو حاتم السجستانى (المتوفى ٢٤٨/٩ هـ) أن يعلّمه أن الصواب :

---

(١) ياقوت : إرشاد ج ٣ ص ٨٢ .

(٢) السيرافى : أخبار النحويين البصريين ص ٩٠ ؛ فهرست ص ٨٦ ؛ ابن الأنبارى : نزهة ص ٢٦٣ .

(٣) انظر مثلا : الكامل ص ٢٢ .

أرواح[1] . كذلك كان يستعمل بدلا من اسم الجمع : خيل ، صيغة الجمع : خيول[2] ؛ ويستعمل لفظ : ابن ، كما لو كانت همزته همزة قطع ثابتة ؛ على حين كان يحذف همزة المد فى لفظ : الدّهناء[3] ؛ وقرأ فى آية ٤٠ من سورة يٰس : سابقٌ النهار[4] ، بحذف التنوين ونصب النهار (القراءة الصحيحة : ولا الليلُ سابقُ النهارِ ، بالإضافة) كما قرأ فى آية ٨١ من سورة النمل وفى آية ٥٣ من سورة الروم : بهادٍ العمىَ[5] بالنصب (القراءة بالإضافة) . فهذه ثلاثة أحوال تدل على تراخ فى التمكن اللغوى — من حيث استعمال التنوين و إهماله — داع إلى التفكير .

وأكثر ما كان يطابق المثل الأعلى ، فى نظر النحاة العرب إبّان القرن الثالث فى لغة الشعر الرفيع . وشعر أبى تمام (حوالى ١٩٠ — ٢٣١ هـ) ، قبل كل شىء ، يمتاز باستواء وانسجام فاقد النظير ؛ وفى الحشد من المطاعن الكثيرة العدد ، التى تعرض لها الشاعر ، فى حياته و بعد وفاته المبكرة ، لا نكاد نجد مأخذاً عليه من ناحية اللحن . وقد لفتَ نظره مرة ، مع الاحتجاج بالنحوى الكوفى : ابن السكيت (المتوفى حوالى ٢٤٥ هـ) ، إلى أنه ينبغى أن يقول : شجٍ ، بدلا من : شجىّ ؛ ولكنه سرعان ما تخلص محتجاً — فى يسر — ببيت لأبى الأسود[6] . وكان أبو تمام يعانى حُبسة تعوق حرية تعبيره ، بيد أن هذا لم يؤثر فى أسلوبه . ولما بلغ خصم له من عدم اللياقة مبلغاً سمح له بأن يسخر منه ، مشيراً إلى هذه العاهة الخِلْقية ، لم يره أبو تمام أهلا للرد

(١) أغانى ج ٢٠ ص ١٨٥ س ٢٤ ؛ ص ١٨٧ س ٢٢ ؛ وقد اعترض الحريرى أيضاً على أرياح فى الدرة ص ٤٠ ، ودافع الشهاب الخفاجى جرياً على عادته عنها ص ٦٦ ، مع نقله رواية تنسب هذه الصيغة إلى لهجة بنى أسد .

(٢) المبرد : كامل ص ٩٤ .

(٣) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ص ١٧٢ س ٢٣ ؛ وفى نفس الشعر المذكور ، ستعمل لفظ : عامة بالتخفيف للضرورة .

(٤) المبرد : كامل ص ١٤٣ ؛ ياقوت : إرشاد ج ٥ ص ٢٧ ؛ نزهة الألباء ص ٢٩٦ ؛ ابن جنى : المحتسب فى الآية ؛ ابن خالويه فى الآية ؛ خزانة ج ٤ ص ٥٥٥ .

(٥) انظر البديع لابن خالويه ص ٩٢ .

(٦) البطليوسى : اقتضاب ص ١٩٧ فما بعدها ، حيث ساق بيتاً آخر مشتملا على لفظ : شجى بالتشديد لأبى دواد الأيادى .

عليه[١] . والذى يأخذه عليه نقاده هو ميله إلى الأصالة والغوص ، الذى لا يندر أن يسمو عنده إلى مستوى الغريب المهجور ، أو ينحدر إلى مستوى السوق المبتذل ، فيطبع أسلوبه بطابع المتعمل المصنوع . ومن هنا كانت سماتٌ وخصائصُ راجعة إلى الأسلوب ، تلك التى اتجه إليها النقد الصادر عن تذوّق الجمال بوجه خاص[٢] . فقد أخذت عليه شدة جرأته فى الاستعارة ؛ مثل جعله الأعمار المبكرة فى الانتهاء ، تنضج قبل نضج التين والعنب[٣] ؛ ومثل حديثه عن الهموم يكاد يتصدع منها الدهر[٤] ؛ وعن مشيب الفؤاد[٥] ؛ وعن ماء الملام[٦] . وتجديد آخر اصطدم بالرفض ، هو اقتضابه فى بعض القصائد[٧] ؛ فمثلا تبدأ مرثيته للقائد محمد بن حميد الطوسى — رأى أبو دلف الذى يعدّ حجة فى الحكم عليها ، إذ كان قائداً وشاعراً ، أن هذه المرثية تعير من قيلت فيه حياة خالدة[٨] — بدءا غير طبيعى بالكلمات :

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر .

كذلك كان فرط ولوع الشاعر بالجناس فى شتى صوره مدعاة إلى مآخذ كثيرة[٩] . وآخرون من النقاد يعيبون عليه[١٠] أنه استعمل كثيراً من الكلام البغيض ، والغريب المستكره من البدوى ، فكيف به إذا جاء من ابن قرية متأدب؛ مثل : الأجفلى ، أى الجميع[١١] ؛ ونقيضه النّقرى ، أى الأفراد . ولما كان يحتسب

---

(١) ابن رشيق : العمدة ١ ص ٧٠ .

(٢) انظر المرزبانى : موشح ص ٣٠٣ — ٣٢٩ ، وقد نقل أجزاء كثيرة عن ابن المعتز (٢٤٧ — ٢٩٦) .

(٣) موشح ص ٣٠٨ .

(٤) موشح ص ٣٢٠ .

(٥) موشح ص ٣٢٦ .

(٦) موشح ص ٣٢٣ .

(٧) موشح ص ٣٠٥ س ٣ — ١٠ .

(٨) عبد القادر : خزانة ج ١ ص ١٧٢ .

(٩) موشح ص ٣١٠ .

(١٠) الموشح ٣٠٨ .

(١١) وهذا هو الاسم الوحيد على وزن : أفعلى ؛ انظر سيبويه ج ٢ ص ٣٤٥ : (Derenfbourg)

نسبه من قبيلة طىء ، لم يكن غريبا أن يجىء فى شعره ألفاظ من لهجتها ، مثل : سدِك ، أى حريص مولع بالشىء[١] ؛ ومثل الاستعمال الخاص بها ، وهو وضع : ذو ، موضع : الذى[٢] ؛ وكذلك صيغة : اطّادت ، التى عدّها ابن الأثير[٣] عليه خطأ يبدو أنها صيغة إضافية ترجع إلى لهجة خاصة ، بدلا من صيغة : اتطدت ، متوقعة ، أى صيغة الافتعال من : وطد .

وعلى حين يحاول الشعر الرفيع ، كما يوجد فى قصائد الأعياد والمناسبات العظيمة ، أن يقترب من المُثُل العليا للكمال اللغوى ، تبدو أشعار الفرص والمصادفة أقوى تأثراً باللغة الدارجة . فمثلا توجد فى أشعار ابن زينب المراكبى الذى اشتهر فى عهدى المأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ) والمعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) ، أحوال مثل : بَقِى ، بإشباع كسرة القاف ، بدلا من فتح الياء ؛ و : هُو ، بإشباع الضمة ، بدلا من فتح الواو ؛ والمهنا بتحفيف الهمزة وإشباع الفتحة ، بدلا من : المهنأ ، والاستعمال الشعبى المحض : حِرْها[٤] . وكذلك الجماز البصرى الذى كان يخشى كثيراً لبذاءة لسانه ، يقول فى بيت يهجو به عبد الصمد بن المعذّل المتوفى ٢٤٠ هـ ، هُو ، بإشباع الضمة ، بدلا من فتح الواو[٥] . وفى شعر آخر يعامل فعل : قرأ ، على أنه يائى ، ويصوغ منه صيغاً مثل : تقرىّ ، تقرّيت ، وقِراة[٦] . كما أن مهجوّه ، وهو أيضاً هجّاء كبير ، يستعمل أيضاً فى رده عليه : هُو ، بالإشباع أيضاً[٧] . وفى شعر آخر سمى المدينة التى ينتمى إليها : البَصِرَة ، بكسر الصاد ، وقد عدّه المبرّد عليه لحناً[٨] ؛ وهذه الصيغة ،

---

(١) موشح ص ٣١٧ ، وورد لفظ : سدك فى شعر الأعرج الطائى ، انظر أمالى القالى ص ٢٠٨ .

(٢) انظر الكامل ص ٥٦٤ ، ومن الغريب استعماله أيضاً لفظ : الذ ، بدلا من : الذى ، موشح ص ٣١٠ .

(٣) المثل السائر ص ١٠ .

(٤) الأغانى ج ٢١ ص ٢٤٧ ، ج ١١ ص ٩٨ .

(٥) أغانى ج ١٢ ص ٦١ ، ج ١٥ ص ٦٢ .

(٦) الأمالى للقالى ج ٣ ص ٤٧ .

(٧) أغانى ج ١٢ ص ٦٢ .

(٨) الموشح للمرزبانى ص ٣٤٦ .

التى هى أصل : باسُورا Bassora الغربية ، قد دحضها أيضاً ابن قتيبة[١] ، وإن أجاز نسبة : البصرى ، بكسر الباء . وعلى النقيض من ذلك يعدّ من قبيل الرّخصة الشعرية ، إذا جعل عبد الصمد اسم العلم : رُهم[٢] ، ممنوعاً من الصرف . نعم يسمح البصريون ، وفى طليعتهم سيبويه والمبرد[٣] ، بمعاملة الممنوع من الصرف معاملة المنصرف لضرورة الشعر ؛ ولكن العكس أيضاً كثير — منذ وقت بعيد — بحيث لم يقرّ الكوفيون وحدهم للشعراء بهذه الحرّية فى ضرورة الشعر ، بل كذلك كثير من البصريين[٤] . واستعمل الحسن بن وهب الكاتب ، الذى لعب دوراً هاماً فى وزارة ابن الزيات (٢٢٥ — ٢٣٣ هـ) ، الفعل المضارع مرفوعاً بعد : أنْ ، مرتين فى قصيدة من أشعار الفرص[٥] ؛ وعلى النقيض من ذلك كانت رسائله معنياً فيها بتجويد الأسلوب ، بحيث جمعت وأخرجت فى صورة كتاب .

مثل هذه الأخطاء التى ذكرناها آنفاً ، ظهرت فى شعر الفرص والمناسبات لمختتم القرن الثانى — الثامن . وعلى النقيض من ذلك صارت اللغة الدارجة على ألسنة المثقفين فى القرن الثالث — التاسع تبتعد بصورة مطردة من النموذج الفصيح . والملاحظات التى يذكرها الجاحظ تدل على أن المحادثة السليمة الخالية من اللحن كانت تنتظر فقط من الأعراب الذين ينطقون عربية خالصة ، أو من بلغاء العلماء .

---

(١) أدب الكاتب ص ٤٥٧ (نشر : (Grunert) .

(٢) موشح ص ٣٤٦ .

(٣) انظر المفصل للزمخشرى وابن يعيش عليه ص ٨١ .

(٤) انظر ابن الأنبارى : إنصاف ص ٢٠٥ فما بعدها ؛ عبد القادر : خزانة الأدب ج ١ ص ٧١ فما بعدها .

(٥) ابن قتيبة : عيون ج ٤ ص ٣٢ بيت ٧ ، ٨ ؛ وقوله : أن يجيى بالإشباع ورد أيضاً فى شعر شبيب ابن البرصاء من عصر عبد الملك . انظر الأغانى ج ١١ ص ٩٥ (وإن كان يصح روايته بالمجهول) ، كما ورد أيضاً فى شعر الجاهلى : عوف بن الأحوص من شعراء المفضليات (قصيدة رقم ٣٦ بيت ٩) وساق قدامة بيتين دون تسمية قائلهما ، ولا يعلم العصر الذى قيلا فيه (ص ٤٥ س ٢) نقد الشعر : بأن أمسى ؛ وفى ياقوت معجم البلدان ج ٤ ص ٧٤٨ (أن يدرى ، و : بأن يفديك) وانظر أيضاً : Nöldeke Z. Grammatik

(٦) الفهرست ص ١٧٧ .

وبطبيعة الحال كانت ثمة فروق أيضاً فى لغة المحادثة ، وفقاً لثقافة المتكلم . وقديما ، فى عهد المأمون (حكم ١٩٨ — ٢١٨ هـ) ، يبدو أنه لم يكن من النادر أن يستعمل رجال فى مناصب رئيسة جملا وتراكيب مخالفة للنحو تماما فى صلاتهم الشفوية والكتابية . فقد روى أن ميمون بن إبراهيم ، كاتب إسحاق بن إبراهيم المصعبى ، ارتكب فى رسالة إلى المأمون هذا الخطأ الشنيع : وهذا المال مالاً يجب على فلان . فخط المأمون على : « مالا » ووقع بخطه فى حاشية الكتاب : أتكاتبنى بلحن يا إسحاق !. فاشتد ذلك عليه وأنب كاتبه . نعم صحّح النحوى ابن قادم (المتوفى ٢١٥ هـ) الذى كان حاضراً هذا التعبير ، جاعلا « مالا » منصوباً على التمييز ، ولكن ميمونا رأى من الخير له تعلم النحو [١] . وكذلك روى عن إسحاق بن ابراهيم المصعبى المذكور ، الذى كان يشغل منصباً هاماً ، إذ كان حاكما لمدينة بغداد من سنة ٢١٤ حتى مات سنة ٢٣٥ هـ [٢] ، أنه اضطر بسبب لحن وقع منه فى حضرة المأمون أن يتعلم [٣] القواعد على النحوى هشام بن معاوية (المتوفى ٢٠٩ هـ) . كما روى أيضاً [٤] أن أحمد بن أبى خالد [٥] (المتوفى ٢١٠ هـ) أول وزراء المأمون ، الذى كان يشاد بذكره [٦] لحسن خطه ، قرأ كثيراً من الكلمات فى رسالة قراءة محرفة لا يفهم لها معنى . وقصة أخرى [٧] تخبر عن كاتب — قيل إنه الفضل بن مروان الذى تولى وزارة المعتصم من ٢١٨ — ٢٢١ هـ ، أو خلفه ابن شاذى [٨] — قرأ رسالة على الخليفة ، ولم يستطع تفسير الجملة : ومُطرنا مطراً كثر منه الكلأ ؛ لأن لفظ الكلأ كان

---

(١) الصولى : أدب الكتاب ص ١٢٩ ؛ ياقوت : إرشاد ج ٧ ص ١٥ ؛ سيوطى : بغية ص ٥٨ ؛ قلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١٧٠ .

(٢) Zambaur, Manuel 129 f. . وانظر فى حسن تنظيمه للبريد ومعرفة الأخبار كتاب التاج المنسوب للجاحظ ص ١٧٠ ، وكتاب المحاسن للبيهقى ص ١٥٤ .

(٣) ياقوت : إرشاد ج ٧ ص ٢٥٤ .

(٤) الجواليقى : شرح أدب الكاتب ص ٥١ .

(٥) EI I 199

(٦) الفهرست ص ١١ ؛ الصولى : أدب الكتاب ص ٤٥ .

(٧) ابن قتيبة : أدب الكاتب ص ٧ .

(٨) الجواليقى : شرح أدب الكتاب ص ٤٩ فما بعدها ؛ خزانة الأدب ج ١ ص ٢١٥ فمابعدها .

غير معروف له . وفى الحق لقد كان الفضل بن مروان من رجال الإدارة الممتازين ، بيد أنه لم يكن ذا ثقافة عميقة [١] . وكون الخليفة المعتصم ، على النقيض من أخيه المأمون ، لم يكن مثقفاً ، أمر مشهور ؛ فقد كان يشعر بكره شديد فى صباه للتعليم ، ولم يصل إلى حذق يؤبه له فى القراءة والكتابة [٢] . وترسم القصة التالية [٣] الصورة التى كان يصوره بها الخلف من بعده ؛ فقد أمر يوما اشناس التركى القيّم على السلاح أن يحضر له كلباً للصيد ، ولكنه ردّه عليه ، لأنه كان به عرج ، فكتب إليه أشناس الأبيات المضطربة التالية :

الكلب أخذت جيد مكسور رجل جبت
رد جيد كما كلب كنت أخذت

فأجابه الخليفة أيضاً بالأبيات المتهافتة :

الكلب كان يعرج يوم الذى به بعثت
لو كان جاء مجبر أجبر رجل كلب أنت

وقد حصل الأتراك منذ عهد المعتصم — بكونهم من كبار رجال الجيش ، وحرس الخليفة الخاص — على نفوذ مطرد النمو فى سياسة دولة الخلافة ، ولم يكن هؤلاء الرجال متحلّين بثقافة علمية ، كما لم يكن لديهم اهتمام أصلا بالطموح إلى الأدب . ولم يسجّل شذوذا عن هذا العموم إلّا الفتح بن خاقان [٤] أحد أبناء الأتراك . لقد نشأ حيّ الفكر ، حاد الذهن ، عاقلا أريباً ، فاسترعى انتباه المعتصم إليه وهو غلام ، وانتظم بعد ذلك فى خدمة القصر ، وتمتع بنفوذ عظيم فى شئون الدولة ؛ إذ كان مؤتمناً ومستشارا للمتوكل الذى قتل معه سنة ٢٤٧ هـ . وكان واسع الثقافة ، وأمر على بن يحيى المنجم فأنشأ له مكتبة عظيمة ، وكان يكثر من دعوة

---

(١) الفهرست ص ١٨٤ .
(٢) تاريخ بغداد ج ٣ ص ٣٤٣ .
(٣) البيهقى : محاسن ص ٤٥٥ .
(٤) انظر الفهرست ص ١٦٩ ؛ ياقوت : إرشاد ج ٦ ص ١١٦ — ١٢٤ .

الأعراب والنحاة إليه ، كما حاول هو أيضاً تعاطى الشعر . وكان يرسم للعلماء دراسات فى الأدب فيصدرونها باسمه . وجمع له محمد بن حبيب (المتوفى ٢٤٥ ﻫ) كتابه عن قبائل العرب (١) . كما وجه إليه الجاحظ رسالته عن الأتراك (٢) . وكذلك وصْفه للآداب المتبعة فى قصور العباسيين (أخلاق الملوك) ألّف بتكليف منه ، وإن لم يكن مؤلفه الجاحظ الذى نُشر الكتاب باسمه ، بل محمد بن الحارث الثعلبى ؛ على الأقل نعرف عالما بهذا الاسم ، كان من حاشية الفتح ، وألف له مصنّفا يسمى : أخلاق الملوك (٣) . وفيما عدا ذلك كان قواد الأتراك الأجراء لا يمتّون فى الأعم الأغلب بصلة إلى الثقافة أصلا ؛ كما أسهموا فى خفض المستوى اللغوى فى دوائر القصور . وببلوغهم مناصب السلطان يبدأ فى تاريخ العربية عصر الانحلال .

---

(١) الفهرست ص ١٥٥ .

(٢) نشرها فان فلوتن فى : Triae Opusculae S . 1 56 1930

(٣) الفهرست ص ٢١٢ (الثعلبى) ، ويذكر الفهرست ص ١٧٠ فى الكتب المنسوبة إلى الفتح بن خاقان ، كتاب اختلاف الملوك . والظاهر أنه تحريف عن كتاب أخلاق الملوك ، الذى عمله ابن الحارث المذكور ، وذكر Flügel لقب محمد بن الحارث : الثعلبى ، بدلا من التغلبى .

(٧)

العربية تصير لغة الأدب الفصحى

فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى — التاسع الميلادى

وهذا عهد لم يكد يبلغ قرناً من الزمان ، امتد من وقت رجوع الخليفة المتوكل إلى مذهب أهل السنة المحافظين سنة ٢٣٥ / ٨٤٩ ، إلى مبدأ قيام الحكم العسكرى على يد أمير الأمراء : الرائق ، (سنة ٣٢٤ / ٩٣٦) ؛ ذلك الحكم الذى انتزع من يد الخليفة البقية الباقية من الاستقلال ، وطبع دولته بطابع الانحلال إلى دويلات تزيد على العشر . ولقد رأى ذلك العهد الانحلال المطرد الحلقات ، المتصل الخطوات فى دولة الخلافة التى ازدهرت أعظم ازدهار فى ظل المأمون والمعتصم . لقد أعلن انفصاله واستقلاله إقليم تلو إقليم ، فلم يعد يؤدى الأموال إلى بغداد. ولقد نالت هذه الخسارة من الخلفاء نيلا أشد وقعاً ، وأسوأ أثراً ، حينما اضطرتهم محاولتهم إعلان سلطانهم إلى بذل الجهود الحربية التى لم يكونوا لها أكفاء على طول الأمد من الناحية المالية . وقد اشترى المعتصم — فعلا — كثيراً من عبيد السلاح ، وألّف منهم قواته المحاربة . وأكثر القواد الأتراك الذين كانوا لا يقتصرون على رياسة هؤلاء الأجراء الأجانب ، بل يحملون أيضاً أعباء أجورهم وتدبيرها ، سرعان ما اكتسبوا نفوذاً عظيما فى السياسة ، حتى أدّى ذلك أخيراً إلى إنشاء الحكم العسكرى . وبالانحلال السياسى والاقتصادى انحطّ مستوى الثقافة العامة . والنزعة السُّنية المحافظة التى حدّدت اتجاه السياسة الثقافية لذلك العصر الانقلابى ، تبَيّن أنها أضعف من إيقاف ذلك الانحلال . وكانت نتيجة ذلك أن خسرت العربية فى هذه المرحلة الزمنية من مساحة أرضها ؛ على حين انتشرت الأساليب اللغوية المولّدة ، متغلغلة فى أرقى الأوساط .

والعمدة فى الشهادة على انحطاط المستوى العام للثقافة فى القرن الثالث — التاسع

هو أبرز الأدباء الممثلين للتجديد السنّى : ابن قتيبة (٢١٣ — ٢٧٦ هـ) الذى يشكو كثيراً فى كتبه من هذه الظاهرة ، والذى تعنى كتبه بأن تهيىء للكتاب ، أى القائمين على الخدمة فى الدواوين والشئون المدنية ، فى قالب واضح سهل المتناول ، تلك العدّة من المعارف الإيجابية التى لا غنى لهم عنها فى القيام بأعمالهم . وفى مقدمات تلك الكتب التى كان لها صدى بعيد وأثر عميق ، وصَف ، فى تصوير قريب ، الضرورات الملحّة فى هذا السبيل : ليس لدى الملوك مال للمطامح الثقافية ، ولا يجد العلماء (المحافظون) عوناً من قبلهم ؛ وفى أوساط المجتمع الراقى ذهبت حركة الاعتزال بكل إجلال للنزعة السنية المحافظة — أما أن المعتزلة قد أحيوا العلوم القديمة ، أعنى ذلك التراث العقلى للعصر القديم (الأنتيك) ، فهذا لا يعدّ شيئاً فى نظر ابن قتيبة — وعند ابن قتيبة لا يعد من علائم الثقافة المتنخلة الخاصة أن يتعاطى المرء شيئاً من المنطق أو جانبا من علم الفلك . نعم هو لا ينكر إنكاراً تاماً جهود المعتزلة فى ناحية القواعد النحوية ، وشرح الأشعار ، وتفسير القرآن ، ولكن بقدر رفقه بهم فى هذه الناحية اشتدت شكواه من أن المعتزلة جعلوا دراسة القرآن والحديث وأحكام الشريعة فى المرتبة الثانية . وقد وصف الجهل المنشور لواؤه ، حتى فى أرقى الأوساط ، بالتاريخ والأنساب . فالقرشيون لا يعرفون كيفية قرابتهم إلى الرسول ، والأشراف يجهلون شجرة أنسابهم . والأمراء من الفرس لا يعرفون تاريخ أسلافهم . وعلى النقيض من ذلك يستطيع حديثو العهد بالنعمة والمناصب الرفيعة أن يدّعوا انتسابهم إلى رجال انقرضت أسرهم منذ زمان طويل . وليس الحال بأحسن من ذلك فى المعارف الخاصة ؛ فعلى أحسن الفروض نجد الرجل مغلّباً فى فنه الذى اختص به . كما أنه ليست له ثقافة عامة . ومن يستطيع أن ينشد أبياتاً من الشعر يعدّ عالماً ؛ ولا يعرف الكاتب مطمحاً أسمى من أن يكتب خطاً جميلا .

وينضم إلى ذلك انحطاط المستوى العام للثقافة اللغوية الذى امتد إلى كتّاب

الدولة ووزرائها ، والذى ألف ابن قتيبة كتابه : أدب الكاتب [١] . لعلاجه وكفاحه وهو كتاب يعلمنا كيف ينبغى للمسلم المثقف فى القرن الثالث أن يعبر عن أفكاره بالنطق والكتابة ، ويبيّن لنا — بوجه خاص — الأخطاء التى يجب عليه أن يتجنبها. وفى هذا يباشر ابن قتيبة بحوثه — على خلاف الجاحظ — بدقة تحفل بالصغائر. ولئن فقدت توضيحاته وبحوثه المفصلة ذلك الظرف المتوثب الخفيف الروح ، الذى يجعل استطرادات الجاحظ أخاذة ساحرة ، إنه ليفيدنا بفضل أسلوبه المتعمق الجزل كثيراً من التفاصيل عن الاستعمال اللغوى فى عصره ، على الرغم من أنه ليس من عادته — بوجه عام — أن يسمى الأسلوب أو القالب الذى ينتقصه تسمية واضحة. وهو فى ذلك ، كما أثبته شارحه البطليوسى ، ينصب نفسه محامياً عن مبدأ « تنقية اللغة العربية » المتطرف . والأصمعى — بوجه خاص — عمدة من يحتج بهم من الرجال؛ وهو لا يحيد عن آرائه إلا فى أحوال نادرة كما أنه نقل — فى موضع من الكتاب — كتاب الديباجة لأبى عبيدة برمّته [٢] . والأبواب من ص ٥٨٤ مأخوذة من كتاب المعانى لابن السكيت [٣] مما جرّ عليه لوم البطليوسى ونقده [٤] . ولا تنقص الكتاب أيضاً صور من الجمع والخلط — لا يعتمد عليها — بين أنظار المدرستين : البصرية والكوفية [٥] كما لا ينقصه كثير من السهو [٦] والتضارب [٧] . بيد أن هذه المعايب

---

(١) نشره : Gruenert Leiden .

(٢) انظر البطليوسى : الاقتضاب ص ١٤٠ — ١٤٢ .

(٣) انظر الاقتضاب ص ٢٤٣ س ١٥ ؛ ص ٢٥٧ س ١ ؛ ص ٢٦٥ س ١٥ .

(٤) اقتضاب ١٧٤ ؛ وانظر ص ٢٥٥ ؛ ٢٥٧ .

(٥) اقتضاب ص ١٧١ س ٥ ؛ ص ١٧٣ س ٢ .

(٦) اقتضاب ص ١٠٧ س ٣ ؛ ١٣٩ س ١٣ ؛ ١٤١ أسفل ؛ ١٤٨ س ١ ، ١٥٣ س ١ ١٦٢ س ٩ ؛ ١٧٨ س ٦ ؛ ١٨٢ أسفل ؛ ١٨٣ أسفل ؛ ١٩٩ س ٨ ؛ ٢٣٠ س ٩ ، ١٥ ؛ ٢٣٠ ؛ ٢٣٥ س ١٠ ؛ ٢٧٠ س ٢ ، ١١ ؛ ص ٢٧٣ س ٢ ؛ ٢٧٩ س ١٤ .

(٧) اقتضاب س ١٢٣ س ١٢ ؛ ١٢٧ أسفل ؛ ١٣٣ س ٦ ؛ ١٥٠ س ٨ ؛ ١٥٤ س ٣ ؛ ١٧٥ أسفل ؛ ١٧٦ س ٢ ، ٨ ، ١٨ ؛ ١٧٧ س ١١ ، ١٦ ؛ ١٧٨ س ٢ ؛ ١٨١ س ١٦ ، ١٩ ؛ ١٨٢ س ٣ ؛ ١٨٣ س ١٠ ، ١٢ ؛ ١٨٤ س ٣ ، ١٩ ؛ ١٨٧ س ٣ ، ١٠ ، ٢٠ ؛ ١٨٨ س ١٠ ؛ ١٨٩ س ٨ ، ١٢ ، ١٥ ؛ ١٩٠ س ٣ ، ٩ ؛ ١٩٢ س ١٢ ، ٢١ ؛ ١٩٤ =

لا تغضّ كثيراً من قيمة كتابه ؛ فهو باق أحد الكتب الأساسية الأولى لمبدأ التنقية اللغوية ، ولا يزال يدرس حتى اليوم بعناية واجتهاد ، لغزارة مادته ، فى العالم العربى .

وهكذا يحتوى القسم الأول من كتابه ، وهو « كتاب المعرفة[١] » فى الستة والخمسين باباً التى يشتمل عليها ، على مادة غنية لمعرفة الكنز اللغوى ، وفى ذلك يقف على اختلافات المعانى التى احتملتها بعض الألفاظ إلى القرن الثالث ؛ فمثلا يستعمل الناس لفظ : مأتم ، بمعنى المصيبة أو الاجتماع على المصيبة ؛ وليس هذا معناه الأصلى ، و إنما هو النساء يجتمعن فى الخير والشر[٢] ؛ ومثل لفظ : الفَىْء معناه الظل مطلقاً ، لا ظل ما بعد الظهر كما هو الأصل[٣] ؛ ومثل لفظ : المَلَّة ، يستعمل فى الخبز ، وكان معناه الرماد الحارّ الذى يخبز فيه[٤] ؛ ومثل : تنزّه ، يستعمل بمعنى ذهب إلى البساتين ، وكان معناه ابتعد عن الماء والزراعة[٥] . ولم يعد يفرق أحد تقريباً بين الآل والسراب[٦] ، ولا بين الفقير والمسكين[٧] ، ولا بين الأعرابى ، أى البدوى (وإن عاش فى الحضر) والعربى ، أى واحد العرب وإن كان غير بدوى[٨] .

ويلقى بعض الضوء أيضاً على الاستعمال اللغوى فى القرن الثالث ، تلك التعبيرات التى يشرح بها ابن قتيبة بعض الألفاظ الفصيحة ؛ فكثيراً ما يستعمل فى تفسير أسماء النباتات العربية القديمة (ص ١٠١ — ١٠٥) ألفاظاً فارسية بمعناها . كذلك يبين

= س ٢ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٨ ؛ ١٩٥ س ٣ ؛ ١٩٦ س ١٨ ؛ ٢٠١ س ١٥ ؛ ٢٠٤ س ٨ ؛ ٢٠٥ س ١٠ ؛ ٢٠٦ س ٤ ؛ ٢٠٧ س ١٧ ؛ ٢١٠ س ٤ ، ٧ ؛ ٢١١ س ١ ، ١٠ ؛ ٢١٢ س ٢ ؛ ٢١٤ س ١ ، ٨ ؛ ٢٢٣ أسفل ، ٢٢٦ س ٣ ؛ ٢٢٧ س ٨ ؛ ٢٢٩ س ١٣ ؛ ٢٣٠ س ٩ ؛ ٢٣١ س ٦ ؛ ٢٦٦ أسفل ؛ ٢٦٦ أسفل ، ٢٦٧ س ٤ ، ١٢ ، ١٥ .

(١) ص ٢١ — ٢٣٣ .

(٢) ص ٢٤ م

(٣) ص ٢٧ س ١ .

(٤) ص ٣٨ س ٦ .

(٥) ص ٣٩ س ١١ .

(٦) ص ٢٨ س ٨ .

(٧) ص ٣٥ س ١

(٨) ص ٤٠ س ٦ .

الباب الذى عقده للكلمات الأعجمية فى كلام العرب (ص ٥٢٦ — ٥٣٣) إلى أى حد حفلت اللغة الدارجة بالعناصر الفارسية . وأكثر إفادة (فى هذا المضمار) القسم الثالث الأساسى ، وهو كتاب تقويم اللسان (ص ٣٣٣ — ٤٦٠) بما اشتمل عليه من طوائف من الكلمات التى يعدّها المتزمّتون اللغويون من قبيل اللحن الردىء . وفى هـذا يرتب ابن قتيبة — ترتيباً سطحياً بحتاً — الأحوال المختلفة الظروف الناشئة من صورة الكتابة بين الصحيح والخطأ ، بحيث إن الأحوال التى ترجع إلى مجموعات مختلفة من جهة التكوين الصوتى ، والصيغ والقوالب ، والمعنى النحوى ، تضم بعضها إلى بعض دون فرق بينها . فهو يرى من ناحية الصوت أن إسقاط الهمزة ، أو تحويل ما فاؤه همزة من الأفعال إلى ما فاؤه واو ، أو ما لامه همزة إلى ما لامه واو أو ياء ؛ كل هـذا يؤدى إلى نشوء صيغ وقوالب جديدة معيبة عند المعنيين بتنقية اللغة . ومن ناحية القوالب والصيغ يذكر ما تُشدّده العوام وما تخففه أو العكس ، مثل الياء فى آخر الكلمة ، وإبدال فعاليل بفعالل فى جمع الرباعى والصيغ المخترعة مثل : أخير وأشر ، بدلا من : خير وشر ، واطّراح الفرق المعنوى بين اسم المرّة : فَعلة ، واسم الهيئة : فِعلة ؛ وما يضم والعامة تكسره ، أو يكسر والعامة تفتحه أو تضمه ، إلى غير ذلك . ويعرض كتاب الأبنية (ص ٤٦٠ — ٥٥١) نظرة عامة فى صيغ الأسماء والأفعال ، إذ يعقد فيه بعد تحديد كل نوع سلسلة من الأبواب ، يبحث فيها هذه الصيغ ، مرتبة فى طبقاتها المعنوية ، ويعقد فى ذلك باباً خاصاً بالحروف ، يعرض فيه ما يتعدى بحرفين ، والأحوال التى يستعمل فيها حرف مكان آخر ، وتعاور الأفعال اللازمة والمتعدية (ص ٥٣٤ — ٥٥١ الخ) .

ولا يعرج ابن قتيبة فى كتبه الأخرى على مسائل اللغة والتربية اللغوية إلا عرضاً . ففى كتابه : عيون الأخبار ، يعقد لمسألة التعبير الصحيح والخاطئ ؛ باباً خاصاً (باب الإعراب واللحن ج ٢ ص ١٥٥ — ١٦٠) يحتوى — فى سياق مختلف الألوان — على حكم وأشعار فى الإشادة باللغة الصحيحة الفصيحة ، والحث على

دراسة القواعد والنحو ، كما يشتمل على قصص وأمثلة للحن المختلف الأنواع ، ومخالفة الصواب فى قراءة القرآن ، وبعض المفارقات الناشئة من سوء الفهم لاصطلاحات النحو ، وعقب ذلك تباعاً يذكر ابن قتيبة نماذج من الأسلوب الدقيق (التشادق) ، واستعمال المهجور الغريب من مادة اللغة . وفى كتابه : الشعراء[١] ، يتتبع بالتفصيل ما أخذ على أبى نواس من اللحن .

هذا على أن المطالب التى فرضها ابن قتيبة لمراعاة صحة اللغة وسلامتها لم يؤدها معاصروه على وجه الدقة ، بل هو نفسه قد اصطدم هنا وهناك مع قواعده ، وحتى الشعر الرفيع فى عصره لم يف بمطالب مبدأ «تنقية اللغة» ؛ فإن لغة البحترى (حوالى ٢٠٤ — ٢٨٤ هـ) ، لم تعد من حيث فصاحتها مساوية للغة معاصره السابق عليه بقليل ، وابن قبيلته أيضاً : أبى تمام . حقاً إنها لمبالغة حاقدة ، إذا وسمه ابن أبى طاهر[٢] (٢٠٤ — ٢٨٠ هـ) ، فى شعر يهجوه به ، بأنه : لاحن جاهل[٣] ؛ لا سيما وقد قيل عن هذا الخصم إنه كان عامياً كثير التصحيف ، وإنه أنشد شعراً واحداً فلحن فى بضعة عشر موضعاً منه[٤] . وأرجح من هذا وزناً ، أن أحد المعجبين بالشاعر ، وهو الوزير أبو الفضل بن العميد ، يسلّم أنه تعرض له أخطاء ، وأن فى شعره الكسر والإحالة واللحن[٥] ؛ وقد استعمل مثلا : نَسِيه[٦] ، بإشباع الياء بدلا من فتحها ، بسبب القافية ، ووضع صيغة المرفوع : مُثْنٍ ، بدلا من صيغة المنصوب : مثنياً ، فى البيت :

يا مادح الفتـــح ويا آمله   لست امرأً خاب ولا مثْنٍ كذب[٧]

---

(١) Liber poesis 516, 7 - 530, 9

(٢) هو مؤلف كتاب : أخبار بغداد ويعرف بابن طيفور (فهرست ص ٢٠٩) . وقد أخرج جزءاً منه مع ترجمته إلى الألمانية : H. Keller

(٣) المرزبانى : موشح ص ٣٣٣ .

(٤) الفهرست ص ٢٠٩ .

(٥) الصاحب بن عباد : الكشف عن مساوى المتنبى (القاهرة ١٣٤٩) ص ٨ .

(٦) فى الموضع السالف ص ٩ س ١ .

(٧) الموشح : ص ٣٣٣ س ١٤ .

كما قال : مساعيك ، بالإشباع ، بدلا من نصب الياء .

ولو أنصف الحسّاد يوماً تأملوا مساعيك هل كانت بغيرك أليقا[١]

واستعماله لفظ : طلحات[٢] ، بسكون اللام بدلا من فتحها ، فى جمع طلحة ، يمكن الاعتذار منه — على أسوأ الاحتمالات — برخصة الشعر . وقد حملت المماحكات وضيق العطن خصومه على أن عدّوا عليه بعض تعبيرات أخرى من اللحن ، مثل التهافت فى مطلع إحدى القصائد :

محل على القاطول أخلق دائره[٣]

فإذا كان دائراً فكيف يخلق ؟ على أنه لاجرم كان يعنّى نفسه فى سبيل صحة اللغة وسلامتها ، كما كان يلقى أشعاره فى تصنع و إعجاب بنفسه[٤] .

وشاعر آخر لم يكن أقل شهرة فى هذا العصر ، وهو ابن الرومى (٢٢١ — حوالى ٢٨٣ هـ) يعتذر فى قصيدة له من أخطاء لغوية زلقت من قلمه فى رسالة كتبها إلى صديق[٥] . كما أن أحمد بن المدبر ، الذى كان يتقلد إدارة الأموال فى دمشق حوالى سنة ٢٤٠ هـ ، ثم نقل إلى مثل هذا العمل بمصر سنة ٢٤٧ هـ[٦] ، ذكر فى قصيدة واحدة لفظ : رضى ، بإشباع الكسرة بدلا من : رضَى بفتح الياء ، ورفَع المضارع ثلاث مرات بعد أداة النصب[٧] .

---

(١) الموشح ص ٣٣٢ س ١٦ .

(٢) عبد القادر : خزانة الأدب ج ٣ ص ٣٩٤ .

(٣) الموشح ص ٣٣٧ س ١٨ .

(٤) انظر عرض أبى الفرج وتصويره فى الأغانى ج ١٨ ص ١٧٣ ؛ وذكره ياقوت : إرشاد ج ٦ ص ٤٠٤ .

(٥) الصولى : أدب الكتاب ص ١٣٣ .

(٦) انظر فى منصب إدارة الأموال بمصر C. H. Becker, Beitraege Zur Geschichte Aegyptens II 142 - 148, 154 - 161

(٧) الموشح ص ٣٤٩ ؛ أما أن ابن المدبر أرسل بهذه القصيدة إلى ديك الجن الشاعر ، المتوفى (كما فى ابن خلكان ج ١ ص ٥٢٥) سنة ٢٣٥/٦ هـ ، على حين كان ابن المدبر المذكور والياً لابن طولون على دمشق ، فهذا لايتأتى ، لأن ابن طولون لم يستول على سورية إلا سنة ٢٦٤ هـ

وكثير الإفادة — بوجه خاص — مثل على بن محمد الحِمَّانى العلوى[١] . لقد كان حفيدا لجعفر الصادق ، وابنا لمحمد الديباجة ، الذى دعا لنفسه بالخلافة فى مكة سنة ٢٠٠ هـ ؛ بيد أنه غُلِب على أمره ، وحُمِل إلى بغداد ، ثم مات بعد ذلك بقليل فى منفاه بخراسان . وعلى بن محمد نشأ بالكوفة فى حىّ بنى حِمَّان — ومن هنا نسبته —[٢] ، ونُصِّب فى وقت متأخر نقيباً للأشراف العلويين . ولقد كان من الشعر على عرق ؛ وكثيراً ما تخطر له خواطر جيدة ؛ وكان يبكى قتلى بيته فى أبيات مؤثرة ، حتى عدَّه بعض الشيعة المتحمسين أشعر شعراء قرنه ؛ بيد أنه لم يتلق دراسة منتظمة فى النحو ؛ وكان يستحيى ، وهو كبير السن ، أن يسأل غيره ؛ ولهذا وجدت فى شعره أخطاء شنيعة ، كما يقول فى محيا جميل :

[فى وجه ذاك أخاطيط مسوَّدة] وفى مضاحكِ هذا الدرّ منثور

فالوجه أن يكون : منثوراً[٣] . وله شعر آخر[٤] ، ادّعاه عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر لنفسه ، يقول فيه :

* أرقت وما ليل المضام بنائم * فيستعمل صيغة مفعول الرباعى ، المستعملة فى اللغة الدارجة ، بدلا من مفعول الثلاثى : مَضيم .

وكان حال اللغة الدارجة أسوأ من ذلك كثيراً . وقد كان لابد أن ينحط مستواها إذ كان عوامّ الأتراك هم أصحاب الكلمة فى القصر . فقد وصل الأمر أخيراً إلى أن صار الوزير نفسه يتكلم اللغة الدارجة : روى أن إسماعيل بن بلبل ، الذى ولى الوزارة فى حكم المعتضد ، من سنة ٢٦٥ — ٢٧٧ هـ قال فى أحد المجالس : قد كان أُنق ، بضم الهمزة ، بدلا من : قد كان نُق . وقد أضاف خصمه ابن ثوابة

(١) المسعودى ج ٧ ص ٣٣٦ — ٣٤٢ .

(٢) كذلك فى البصرة نسب من سكن فى حى بنى حمان وإن لم يكن منهم ، إليهم ؛ انظر ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣٣٠ .

(٣) الموشح ص ٣٤٦ وهو يجوز أن يكون خبراً تعلق به الجار والمجرور ، والدر مبتدأ .

(٤) الموشح ص ٣٥٦ .

إلى كلامه : فى الخرء ، بصوت غير مسموع ، كما لو كان قد قال : قد كان أنى فى الخرء[1] ؛ وجلب على نفسه بذلك ازدياد كره الوزير إياه . واستعمال صيغة الرباعى بدلا من صيغة الثلاثى ظاهرة مألوفة فى اللغـة الدارجة ، بحيث لم يزل البصريون والـكوفيون ، منذ عهد الأصمعى وقطرب ، يعالجون دائما موضوع فعلت وأفعلت[2] . وبطبيعة الحال كانت هنا أيضا فروق عظيمة فى طريقة التعبير اللغوى ترجع إلى التربيـة ، والنسب ، والمركز الاجتماعى . فرجال ، كالطاهريين ، كانوا لايزالون يلقون باطراد وزناً للغة الفصيحة . وقد كان جدهم طاهر بن الحسين (١٥٩— ٢٠٧ هـ) خراسانياً ، ولغته الأصلية الفارسية ؛ ويروى أن آخر ما قاله هو : دَرْمَرْج نيز مَرْدى فَايَدْ[3] (حتى فى الموت يجب أن يكون الإنسان رجلاً) . وروى إسحاق ابن إبراهيم الموصلى ، الذى عُمِّر طويلا (١٥٠ — ٢٣٥ هـ) ، على لسان إسحاق بن إبراهيم المصعبى ، من رهط طاهر المذكور ، أنه قال بالفارسية فى قصيدة له من أخريات قصائده : * يا مَرْدْ مَىْ خَرْ[4] * (يارجل اشرب خمرا) . وإلى جانب هذا تمكن طاهر من العربية تمكناً تاماً باللسان والقلم . وقد اشتهرت بصورة خاصة رسالته يهنىء المأمون عند دخوله إلى بغـداد[5] ، وكتاب مطول له حافل بالنصائح الغالية لابنه عبد الله عند ما نُصِّب هـذا والياً على ديار بكر[6] . ويروى أنه استاء أشد الاستياء عند ما خاطبه أحد الـكتّاب بعبارة سقيمة ملحونة[7] . والآن ، بعد جيلين من ذلك العهد ، كان حفيده محمد بن عبـد الله(٢٠٩ — ٢٥٣ هـ) يحتسب فى عداد أعلم الرجال وأوسعهم ثقافة فى الدولة . ولما دعاه المتوكل إليه سنة ٢٣٧ هـ

---

(١) ياقوت : إرشاد ج ٢ ص ٣٩ .

(٢) انظر الفهرست فى أخبار النحويين واللغويين وأسماء كتبهم فى الفنون الثلاثة من المقالة الثانية

(٣) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٠٦٣ .

(٤) الأغانى ج ٥ ص ٨٥ .

(٥) الفهرست ص ١٧٠ .

(٦) ذكره الطبرى : تاريخ ج ٣ ص ١٠٤٦ — ١٠٦٢ ؛ ابن أبى طاهر : كتاب بغداد ص ٣٦ ؛ ابن الأثير ج ٦ ص ٢٥٨ .

(٧) ياقوت : إرشاد ج ١ ص ٢٤ .

من خراسان إلى العراق ، وَلاهُ ولاية مضاعفة ، إذ جعله والياً على الشرطة ببغداد ، وقيّماً على الجِزْية والخَراج ؛ ولما كان نزيهاً فى علاقاته ، واثقاً من نفسه ، لبقاً فى مواقفه ، وإلى ذلك مسامراً حلو الحديث ، فسرعان ما انتهت إليه الكلمة فى مجتمع القصر . ولقد كان يقيم وزناً للغة المتخيرة ؛ وآخذ مرة حاجبه محمد بن أبى عون ممازحاً له ، على كثرة استعماله لفظ : قد ، فى البيتين التاليين اللذين بعث بهما إليه مع أنوار من بستانه وريحان :

قــد بعثنا بطيِّبِ الريحان خير ما قد جُنى من البستان
قد تخيَّرته لخــــير أمير زانهُ الله بالتُّقَى والبيان

[حيث وقَّع على ظهر رقعته :

عون ياعون قد ضلت عن القصد وعميت عن دقيق المعانى
حشو بيتيك « قدوقد » فإلى كم؟ قدّك الله بالحسام اليمانى] (١)

ومع هذا فقد كان محمد بن عبد الله نفسه متوتر العلاقة مع قواعد النحو ، مثلا فى قواعد أسماء العدد ، فهو لم يكن يكتب : ألف درهم واحدة ، فحسب ، بل كان يغيّر الصيغة على هذا الوجه أيضا كلما وقعت عينه على التعبير الصحيح : ألف درهم واحد ، فى كتاب ، بل وكان كتّابه إذا أنكروا ذلك عليه يُغلظ عليهم ويهابونه فلا يبتدئونه فيه بشىء ، ولم يستطع إلا ثعلب (٢٠٠ — ٢٩١ هـ) أن يرشده — عرضاً — إلى الصواب ، حينما علم بذلك ؛ فقد أخبره الأمير يوماً أن الفراء ألف كتابه : البهى ، لعبد الله أبيه ، بأمر من طاهر جده ، فذكّره ثعلب بكتاب : المذكر والمؤنث ، الذى ألّفهُ الفراء أيضا لآل طاهر ؛ ولما سأله محمد — دون شعور — عن موضوع هذا الكتاب ، تعلّم ، بهذه المناسبة ، من ثعلب ، أنه ينبغى أن يقال : ألف درهم واحد (٢) . وأسوأ من هذا أن أخاه سليمان بن عبد الله — صاحب الشرطة

(١) الموشح ص ٣٤٩ فما بعدها .
(٢) ياقوت : إرشاد ج ٢ ص ١٣٧ .

ببغداد ٢٥٥ — ٢٦٥ هـ — صاغ مثنى لاسم العدد : عشرون ، فى شعر له :

* وقد مضت لى عشرونان ثنتان[١] *

كما أن آخر النابهين من الطاهريين ، وهو الرفيع الثقافة : عبيد الله بن عبد الله (٢٣٣ — ٣٠٠ هـ) — كان نابه الذكر فى تلحين الأغانى بوجه خاص[٢] — جلب لنفسه المؤاخذة على شتى أنواع التساهل فى أشعاره ، مثل استعمال : رضى ، بالإشباع بدلا من فتح الياء[٣] .

هذا ، فالتربية النحوية ، والإلمام الراسخ باللغة الفصحى ، لم يكونا بعدُ إذ ذاك حتى فى الأوساط الراقية للمجتمع الإسلامى ، أمراً مفهوماً بالبداهة ؛ فقد صار الكلام على طريقة البدو ، أى بالمحافظة على جميع ظواهر الإعراب — الأمر الذى كان يعد فى القرن الثانى منتهى التقريظ لتعبير أحد البلغاء — يعتد نسجاً على الطراز القديم الذى لا يساير روح العصر . ولما زار الخليفة المعتضد مدينة البصرة سنة ٢٨٣ هـ مع وزيره القاسم بن عبد الله ، استقبله أعيان المدينة وجم غفير من الشعب على القوارب والسفن . وقد تقدم إذ ذاك أبو خليفة الجمحى الطاعن فى السن (حوالى ٢٠٥ — ٣٠٥ هـ) ابن أخى العلامة اللغوى : ابن سلام الجمحى ، وتلميذه ، فألقى شكاته بحضرة الخليفة من البلاء الشديد الذى قاسته المدينة من ثورة الزنج ، فى لغة من ذلك الطراز القديم البالى — إذ اعتاد الإعراب منذ صباه ، حتى صار فطرة ثانية له — بحيث دُهش جميع الحاضرين[٤] . كما أثبت أبو خليفة أيضاً أنه لغوى متزمت ، باعتراضه على استعمال الكلمة الفارسية : هَمْ ، بمعنى أيضاً[٥] . ومع هذا ، فليس أوضح دلالة على تلك الهوّة السحيقة ، التى قامت فى حياة الفكر على ممر القرن الثالث — التاسع ،

(١) موشح ص ٣٥٧ .
(٢) أغانى ج ٨ ص ٤٤ — ٥٥ .
(٣) الموشح ص ٣٥٧ .
(٤) المسعودى (١٣٤٦ هـ) ص ٣٥٧ .
(٥) تاريخ بغداد ج ٤ ص ١٩٤ .

بين العربية القديمة الفصحى ، والعربية المولّدة الآخذة فى الانتشار ، من أن النحويين أنفسهم فى ختام القرن المذكور ، لم يكونوا يستعملون اللغة الفصحى فى مسامراتهم ومحاوراتهم .

فها هو ذا ثعلب (حوالى ٢٠٠ — ٢٩١ هـ) لم يجر فى محاضراته على قواعد الإعراب ، إذ كان يدخل المجلس ، فيقوم له تلاميـذه ، فيقول لهم : أقعدوا ، بفتح الهمزة [١] ، كما فى اللهجة الدارجة إذ ذاك ؛ بيد أن العالم المحدّث الكبير : ابراهيم الحربى (المتوفى سنة ٢٨٥ هـ) لم يجد فى ذلك شيئاً [٢] . ولم يراع ثعلب النحو حتى فى رسائله ؛ فقد كان إذا كتب كتاباً إلى بعض إخوانه من أصحاب السلطان لا يخرج عن طبع العامة [٣] . وعلى الرغم من ذلك ، كان ثعلب أبرز ممثلى مدرسة الكوفيين فى عصره . وكتابه : الفصيح [٤] ، الذى يحتوى فى ترتيب واضح ، وأسلوب مختصر ، على طائفة كبيرة من قوالب اللغة الفصحى التى كانت تهددها إذ ذاك قوالب أقل منها فصاحة ، أو قوالب من لغة العامة ، هو من أكثر الكتب الأساسية فى مبدأ « تنقية اللغة العربية » تداولا بين القراء . وكان له تأثير باقى الأثر بعيد الخطر ، بعد قرون طويلة ؛ على الرغم من سوء حكم ابن الأثير عليه [٥] . وروى عن نحوى آخر فى هذا العصر ، هو الكوفى محمد بن الحسن الأحول أنه كان لحاناً يستعمل صيغاً من لغة العامة ؛ وقد سمعه نفطويه (٢٤٠ — ٣٢٣ هـ) يقول مثلا : لم يزلوا بدلا من : لم يزالوا [٦] .

وهذا هو الأخفش الأصغر (حوالى ٢٣٥—٣١٥ هـ) الذى اشتهر قبل كل شىء بإخراج كتاب الكامل لأستاذه المبرد ، وكتاب النوادر لأبى زيد ، يستعمل الاسم

---

(١) ياقوت : إرشاد ج ٢ ص ١٣٩ .

(٢) تاريخ بغداد ج ٥ ص ٢٠٦ .

(٣) ياقوت إرشاد ج ٢ ص ١٤٢ .

(٤) نشره : J. Barth ، فى Leipzig 1876

(٥) المثل السائر ص ١٧٥ .

(٦) ياقوت : إرشاد ج ٦ ص ٣١٦ .

المنسوب ، فى شعر نظمه ارتجالا ، كما لو كان غير متمكن من الإعراب [١] ! وقد فعل مثلا ذلك أيضاً — على غير أهبة واستعداد — معاصره المفجّع ، (المتوفى ٣٢٧ هـ) ؛ على حين أنه راعى التنوين فى إحدى قصائده الفاخرة مراعاة دقيقة [٢] .

وبهذا توطد الحد الفاصل ، أيضاً فى الأوساط المثقّفة — بصورة حاسمة — بين العربية الفصحى التى صارت منذ ذلك العهد لغة العلم والأدب ، والعربية المولّدة الدارجة ، حوالى نهاية القرن الثالث .

---

(١) ياقوت : إرشاد ج ٥ ص ٢٢١ .

(٢) ياقوت : إرشاد ج ٦ ص ٣١٩ .

(٨)

عربية الأدب فى القرن الرابع الهجرى — العاشر الميلادى

أخذ النمو والانتشار اللغوى ، فى مجرى القرن الثالث — التاسع ، يطارد العربيه الفصحى التى نظم النحاة قواعدها ، والتى قامت على أساس لغة الأعراب ، ويمعن فى عزلها باطراد من جميع مناطق اللغة الدارجة . بيد أنها ظلت فى الأدب المليكة المتوّجة التى أقسم لها يمين الطاعة كل من ادّعى إلى الثقافة بسبب أو نسب . لقد منحت كل أثر أدبى ثوبه اللائق به ، وإن كانت فروق الأسلوب بين الشعر الرفيع ، وأبيات الفرص والمناسبات ؛ وبين النثر الفنى المنمّق ، وأدب المسامرة والمحاورة ؛ وبين كتابة العلماء ، وكتب الأدب الاختصاصى ؛ قد صبغت التغيير اللغوى بشتى الأصباغ والألوان . بيد أنها مع ذلك كله لم يعد يسمع رنينها فى الخطاب الحىّ . وإن لهجات الأعراب أنفسهم لتعدّ ، إلى جانب خلوصها المضاهى للقديم ، خشنة غير مهذّبة . وعلى الرغم من ذلك فقد تركت — لأنها وحدها كانت ذات قواعد ثابتة ، ومعايير مقدّرة — أثراً خفياً فى اللفظ المنطوق ، وإن كان مختلف الصور بحسب درجة المتكلم من الثقافة ، وباختلاف الوسط الذى يتردد فيه اللفظ .

والنتائج ، التى ترتبت على النمو اللغوى المذكور بالنسبة للأسلوب ، أبرزَها قدامة بن جعفر فى الحد الزمنى الفاصل بين القرنين الثالث والرابع ، فى كتابه : نقد النثر . إنه يتحدث ، لا عن رأى نظرىّ فحسب ، بل لقد استفاد من التجارب العملية لكاتب لم يزل يتردد فى أوساط الخِدَم الديوانية بدار السلام ، ويترقى إلى أن صار كاتب الدولة فى إحدى وزارات بغداد ، وعرف ما يُنتظر من كاتب جيد الأسلوب ، وهو يفرق فى الأسلوب بين السخيف الملحون ، والجزل الفصيح (ص ١٢٠) ؛ فهذا من سمات الطبقات الحصيفة المثقفة من العلماء والحكماء ، وذلك من كلام

الرّعاع والعوام ، إلا أن الحكماء ربما استعملته فى خطاب من لا يعرف غيره طلباً لإفهامه ؛ وللّفظ السخيف موضع آخر لا يجوز أن يستعمل فيه غيره ، وهو حكاية النوادر والمضاحك وألفاظ السخفاء والسفهاء ؛ فإنه متى حكاها الإنسان على غير ما قالوه خرجت عن معنى ما أريد بها ، وبردت عند مستعملها ، وإذا حكاها كما سمعها وعلى لفظ قائلها ، وقعت موقعها وبلغت غاية ما أريد بها (ص ١٢٠ س ٤ — ٨).

أما فى الصّلات بين الخاصة والعلماء ، والعرب الفصحاء ، والكتاب الأدباء ، فالمقام للأسلوب الجزل ، وهو يُتعلّم بمجالسة الأدباء ، ومعاشرة الخطباء ، وحفظ أشعار العرب ومناقلاتهم ، والمختار من رسائل المولدين الأدباء ومكاتباتهم . وللمران على ذلك ينبغى التبكير بتعليم الأولاد كتابة الرسائل ، ورواية أشعار القدماء ، وحفظ القرآن (ص ١٢٠ أسفل الصفحة) .

كذلك يتخذ قدامة موقفاً خاصاً تجاه خلوص اللغة ، واللحن فيها : فهو يرى أن الفصاحة الكاملة ، وصحة الإعراب ، لاتتم إلا لأعرابى بدوى نشأ حيث لا يسمع غير الفصاحة والإصابة ، فيتكلم حسب عادته وسجيّته . نعم قد فقد بعض هؤلاء قوة السيطرة على لغتهم ، فوقعوا فى اللحن لقربهم من الحاضرة ، ونزولهم على طريق السابلة ، فسقطت عند أهل اللغة منزلتهم ، ودُنّت ورُفضت لغتهم . أما الأعراب الخُلّص فإنهم متى خوطبوا باللحن لم يفهموا . وفيما عدا هؤلاء لا توجد اللغة الفصيحة إلا عند المولّدين الذين تأدبوا ونظروا فى النحو واللغة ، وأخذوا بهما أنفسهم ، ومرروا عليهما لسانهم حتى صار ذلك عادة لهم . أما لغير هذين النوعين فليس يصح إعراب ، ولهذا كثر الخطأ فى النحو ، وانتشر اللحن ، بحيث أصبح مغتفراً بوجه عام .

نعم يرى قدامة أنه يجب أن يُستعمل اللحن ويُتعمّد له عند الرؤساء والملوك الذين يلحنون ولا يعربون ؛ فإن الرئيس والملك لا يحب أن يرى أحداً من تبّاعه فوقه ؛ ومتى رأى أن أحداً منهم قد فضله فى حال من الأحوال نافسه وعاداه

وأحب أن يضع منه ؛ كما صوّب قدامة رأى رجل تكلم فى مجلس بعض الخلفاء الذين كانوا يلحنون ، فلحن ، فعوتب على ذلك ، فقال : لو كان الإعراب فضلا لكان أمير المؤمنين اليه أسبق (ص ١٢٤) ؛ كما يذكر أن اللحن قد يستملح من الجوارى والإماء ، وذوات الحداثة من النساء ، لأنه يجرى مجرى الغرارة منهن وقلة التجربة . وفيما عدا ذلك يطاب ، إذ كان من المتزمتين من رجال اللغة ، أن يتحرى الكاتب تجنب اللحن ، على الأقل فى اللفظ المكتوب ، الذى لا يغتفر فيه اللحن ؛ لأن الطرف يتكرر فيه ، والروية تجول فى إصلاحه ؛ وليس كمثل الكلام الملفوظ الذى يجرى أكثره على غير روية ولا فكرة (ص ١٢٤ س ٤) .

وقد أضاف قدامة إلى مطالبه النظرية فى « نقد النثر » الإرشاد العملى إلى الأسلوب الجزل فى كتابه « جواهر الألفاظ [(١)] » . ففى المقدمة (ص ٢٠٨) يبين فى لفظ قليل دال ، المطالب التى ينبغى أن تتحقق فى الأسلوب الجزل ، ويوضح أقواله بأمثلة أحسن اختيارها .

ولما كان يعيش فى عصر شهد النثرُ المسجوع فيه باكورة ازدهاره ببغداد [(٢)] فقد رأى من الطبيعى أن يستخدم الكاتب الناثر السجعَ من حيث هو أداة من أدوات الأسلوب ، وألقى وزناً راجحاً لكمال الأسلوب من حيث الغالب : فى الترصيع ينبغى أن تكون الألفاظ متساوية البناء ، متفقة الانتهاء ، سليمة من عيب الاشتباه ، وشين التعسف والاستكراه ، يتوخّى فى كل جزأين منها متوالين أن يكون لهما جزءان متقابلان : يوافقانهما فى الوزن ، ويتفقان فى مقاطع السجع ، من غير استكراه ولا تعسف ، كقول بعضهم : « حتى عاد تعريضك تصريحاً ، وصار تمريضك تصحيحاً » .

---

(١) طبع بالقاهرة سنة ١٣٥٠ هـ — ١٩٣٢ م .
(٢) انظر : Mez die Renaissance des Islames 231 .

وينبغي أن يتسق البناء والسجع ، اتساقاً فنياً دقيقاً ، كما فى الحديث المنسوب إلى النبى [صلى الله عليه وسلم] أنه قاله لجرير بن عبد الله البجلى (١) :

« خير الماء الشَّبِم ، وخير المال الغنم ، وخير المرعى الأَراكُ والسَّلَم ، إذا سقط كان لَجِيناً ، و إذا يَبِس كان دَرِيناً ، وإذا أُكل كان لبيناً » .

كما ينبغى اعتدال الأوزان ، كما فى قولك : « اصبر على حَرِّ اللقاء ، ومَضَض النزال ، وشدة المِصاع ، ودوام المِراس » على حين أنه لو قال : على حر الحرب ، ومضض المنازلة ، وشدة الطعن ، ومداومة المراس ، يفقد ذلك التوازن .

ولكن قدامة لا يكتفى قط بهذه المطالب المتعلقة بالأسلوب السطحى ، بل يعنى أيضا عناية فائقة بالموضوع . فمثله الأعلى هو الانسجام بين القالب والمادة ، وهذا الانسجام يظهر أولا فى صحة التقسيم بحيث يتعانق التعبير اللغوى تماماً مع مجرى التفكير دون نقص ولا زيادة .

وفوق هذا يفترض هذا الانسجام أن يكون كل مقطع جزءاً من المعنى ، ويستقل فى ذاته (توفير تمام الأقسام) ، كما أن الجمل المترادفة تتقابل أيضاً فى التفكير (تصحيح المقابلة) ؛ كما فى المثال : « أهل الرأى والنصح ، لا يساويهم ذوو الأفن والغش ؛ وليس من جمع إلى الكفاية الأمانة ، كمن جمع إلى العجز الخيانة » .

وكذلك فى وسائل التعبير ينصح قدامة ، إلى جانب ما يتصل بالقوالب ، كمراعاة الاشتقاق فى الجناس مثلا ، استخدام ما يتعلق بالمعنى أيضاً ، فيبرز الفكرة إبرازاً جميلا كالاستعارة ، والمبالغة ، والتمثيل ، وما سمّاه : إرداف اللواحق ، وهو نوع من الكناية فسّره بأن تراد من اللفظ دلالة على معنى ، فلا يؤتى باللفظ الخاص بالدلالة على ذلك المعنى بنفسه ، بل بلفظ هو ردفه وتابع له ضرورة ، ليكون ذلك التابع دلالة على المتبوع .

حقاً يحمل النثر الفنى فى طياته دائماً مظنة تغلُّب الأسلوب اللفظى على تسلسل

---

(١) كنز العمال ج ٨ ص ٤٤ ؛ السيوطى : الجامع الصغير ، وهو ينقله عن : غريب الحديث لابن قتيبة .

الأفكار واتصالها . وقدامة نفسه لم يحتط لذلك ، بل ساعد عليه — من حيث لا يشعر — على الرغم من شدة حرصه على الانسجام الحقيقي بين الصورة والمادة ، إذ جعل مكاناً فى وسائل الأسلوب لكل من : « العكس » فى نظم البناء ، أى صوغ الألفاظ ، و « تكافؤ » المعانى فى المقابلة والتوازى من جهة اللفظ أيضاً ؛ ففى كلتا الحالتين يخضع المعنى للفظ ، ويكون موقوفاً عليه ، صادراً عنه ؛ فمثل : اشكر من أنعم عليك ، يقتضى فى العكس : وأنعم على من شكرك ؛ ويبقى بعد هذا النظر فيما إذا كان ذلك التعبير ذا معنى مقبول . وقد تتولد أفكار عميقة على هذا النحو ، كما تدل عليه الجملة التى ذكرها قدامة عن عمرو بن عبيد : اللهم أغننى بالفقر إليك، ولا تفقرنى بالاستغناء عنك .

والأمر كذلك فى حالة « التكافؤ » ، إذ يعيّن عنصر المقابلة فى الألفاظ مادّة التفكير ، كما فى قوله : كدر الجماعة ، خير من صفو الفرقة ؛ فإن التركيب الأول بكلا شقيه ؛ يتطاب التركيب الثانى بكلا شقيه أيضا . وهذه الجملة تفيد — على سبيل الاتفاق — معنى مقبولا ، ولكن الأمثلة الأخرى التى ساقها قدامة تدل على مبلغ المسخ غير الطبيعى للأفكار ، الذى تؤدى إليه هذه الوسائل اللفظية ، إذا رفعت إلى مرتبة المبدأ والمذهب فى الأساليب .

فمثلا تستدعى صورة الممدوح الذى يحصد بسيفه من يكفر نعمه ، عكس هذه الصورة ، أى أن يزرع بنعمه من يشكره : إنما هو مالُك وسيفك ، فازرع بهذا من شكرك ، واحصد بهذا من كفرك .

وهنا تظهر الخطوات الأولى لذلك التطور الذى جعل النثر العربى المسجوع يتحول إلى تلاعب لاطائل تحته بالألفاظ الجوفاء ، ينمّى تورّمه وانتفاخه كل فكرة طبيعية نمواً غير طبيعى ، ويهوى بها أخيراً إلى الفناء .

وعلى أثر هذه المقدمة يسوق قدامة فنونا وألوانا من المترادفات العربية ، على أنها مادة الكتاب الأساسية ، تجمع فى ترتيب عملىّ تلك الألفاظ التى يجوز لصاحب الأسلوب الجيد أن يستخدمها .

على أن وضع الكنز اللغوى فى ترتيب عملى لم يكن فكرة مبتكرة ، ولا سنة جديدة ؛ فمنذ القرن الثانى — الثامن ، وضع كثير من العلماء شتى الموضوعات لعلم المفردات ، وجمعوا الكنوز اللغوية الخاصة فى مجموعات متفرقة . ولكن موازنة بين كتاب قدامة ، وبين المترادفات الناضجة تمام النضج إبان القرن الثالث ، فى « كتاب الألفاظ[١] » لابن السكيت الكوفى ، تدل ، مع التوافق التام المتجلى فى تشابه المادة وتوافق الغرض ، على فروق عميقة الصدى على الرغم من ذلك .

فابن السكيت يجمع فى طائفة من الموضوعات — يبدو أنه لم يمل عليه اختيارها نظره إلى الحاجة العملية لاستعمالها — ذلك الكنز اللغوى الخاص من لغة الأعراب البدويين ، ويذكر فى ذلك كثيرا من العبارات الغريبة ، النادرة ، الخارجة عن دائرة الاستعمال ، مع كثرة استشهاده على ذلك ، إلى جانب الشعر القديم ، بأدب الأراجيز . على حين أن قدامة الذى يعرف الضرورات العملية حق معرفتها ، يقتصر على الكنز اللغوى العام بالمستوى الذى يحتاج إليه الكاتب الإدارى فى القسم الأعظم من رسائله الرسمية ، ويختار الموضوعات التى تتفق عناوينها المختلفة مع ذلك الغرض طبقاً لذلك . يضاف إلى هذا انتقاؤه فى كل موضوع ألفاظا وعبارات مطابقة للمقاييس الشديدة المتزمتة فى مذهبه اللغوى المتطرف .

وبينما يعرض ابن السكيت مجموعة زاخرة بماء الحياة ، ومادة دسمة قوية من لهجات الأعراب الحية ، حتى فى باب الفحش والسباب ، ويستمد من نبع لغوى معين ، أجرتْ سلساله فرص الخواطر وانفعال مختلف المؤثرات ؛ إذا بنا لا نجد عند قدامة لفظاً بعيداً ، ولا استعمالا غريباً ؛ بلهَ كلمة نابية غير شريفة ، أو عبارة مستهجنة غير متخيرة ، ولا متنخلة . بل عملياً واقعياً ينظم قدامة فى سلك كل عنوان ما يصح ويحسن فى نظره من الألفاظ والعبارات ، واضحة مستنيرة بعضها إلى جانب بعض ، مع الاختصار فى سياق الشواهد والمصادر وكثيراً ما يعرض فى ذلك أسجاعا مزدوجة

---

(١) أخرج فى صورة كتاب : « تهذيب الألفاظ » للتبريزى ، بيروت ١٨٩٦ — ١٨٩٨ .

لكيلا يقتصر المُراجع على استخدام اللفظ الذى يحتاج إليه ، بل ليجد كذلك لفظاً آخر ينتظم معه فى قَرَن .

ولم يكن قدامة — أيضاً — أول من كتب مترادفات عربية لسدّ حاجات الكاتب العملية ؛ فهو ينقد فى عبارة مختصرة من المقدمة ، كتاباً على هذا الطراز يبدو أنه ظهر قبل ذلك بقليل . ويستطيع القارىء بسهولة — وإن لم يصرح بما يعنى — أن يعرف فى ذلك « كتاب الألفاظ الكتابية [١] » لعبد الرحمن بن عيسى الهمذانى . ففى الباب الأول من ذلك الكتاب توجد جميع الأمثلة التى نقدها قدامة فى مقدمة كتابه . وفوق هذا يظهر فى كلا الكتابين ، وفى الترتيب الاختيارى الذى سلكاه ، توافُق بعيد المدى ، بحيث إنه لا بد أن يكون أحدهما متوقفاً على الآخر ، إذا لم نركن إلى افتراض أنهما جميعاً يتبعان نظاماً واحداً لكتاب مشترك بينهما ، على الرغم من أنهما لا يتساويان فى الحجم ، وأنهما أيضاً فى الموضوعات المتشابهة التى يعرضان لها [٢] قد اختارا عناوين تختلف تماما فى مدلول ألفاظها .

ويظهر أن الهمذانى كان معاصراً لقدامة أكبر سناً منه ؛ إذ كان كاتباً [٣] لبكر بن عبد العزيز بن أبى دلف [٤] الذى مات فى طبرستان ٢٨٥ هـ . وكانت وفاته فى سنة ٣٢٧ [٥] . وكتاب الألفاظ الكتابية لم يبق على صورته الأصلية ، بل تبدو فيه زيادات ترجع إلى النحوى ابن خالويه [٦] (المتوفى ٣٧٠ هـ) ، ولكن لا على أنها تجديد أو تتميم للكتاب ، بل مجرد تعقيبات [٧] وتصحيحات [٨] .

---

(١) بيروت ١٨٨٥ .

(٢) عارض قدامة : جواهر الألفاظ ص ٢٧ — ٤٥ بالألفاظ للهمذانى ص ٥ — ٢٢ ؛ وقدامة ص ٥٢ — ٨٣ بالهمذانى ص ٢٨ — ٤٦ وقدامة ٣٦٢ — ٣٦٨ بالهمذانى ٢٤٥ — ٢٥٦ .

(٣) تاريخ الطبرى ج٣ ص ٢١٨٥ .

(٤) الفهرست ص ١٩٧ .

(٥) هكذا فى ترجمته التى كتبت فى نسخة بيروت مع ملاحظة أنه قيل أيضاً غير ذلك .

(٦) مثل ص ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٥ من الألفاظ الكتابية .

(٧) انظر الألفاظ ص ٢٠٣ س ١ — ٤ ؛ ص ٢٠٦ س ٦ — ١٤ ؛ ٢٦٧ س ٨ — ١٤ .

(٨) انظر الألفاظ ص ١٠٢ ، ١٠٤ ، ٢٧٥ .

ويؤخذ من المقـدمة أن الباعث للمؤلف إلى تأليف كتابه هو أنه وجد من المتأخرين فى الـكتابة قوماً أخطأهم الاتساع فى الـكلام ، فهم متعلقون فى مخاطباتهم وكتبهم باللفظة الغريبة ، والحرف الشاذّ ، ليتميزوا بذلك من العامّة ، ويرتفعوا عند الأغبياء عن طبقة الحشو ؛ ووجد آخرين قد توجّهوا بعض التوجّه ، وعلَوْا عن هذه الطبقة ، غير أنهم يمزجون ألفاظاً يسيرة قدحفظوها من ألفاظ كتّاب الرسائل ، بألفاظ كثيرة سخيفة من ألفاظ العامّة ، استعانة بها ، وضرورة إليها ، لخفة بضاعتهم . ولمساعدة كلتا الطائفتين جمع طائفة من ألفاظ كتاب الرسائل والدووابن البعيدة من الاشتباه والالتباس ، السليمة من التقعير ، المحمولة على الاستعارة والتلويح ، الجارية على مذاهب الـكتّاب وأهل الخطابة ، دون مذاهب المتشدّقين والمتفاصحين ، من المتأدبين والمؤدِّبين المتكلفين .

وهو يريد بهذا أن يرسم نماذج من كتب الرسائل وأفواه الرجال ، وعرصات الدواوين ، ومحافل الرؤساء ؛ أى صوراً تحتذى لا فى كتابة الرسائل الخاصة فحسب ، كالتهانى والتعازى والبشارة ، والوعد والوعيد ، والاحتجاج والاختصار ، والتذكرة ، والإنذار ، والاعتذار ؛ بل كذلك فى كتابة الرسائل الرسمية والوثائق ؛ ما لم يكن موضوعها ذا طابع فنى خاص .

وكـكتاب « قدامة » يحتوى أيضاً كتاب الهمذانى ، فى أبوابه الستة والستين والثلاثمائة ، على عبارات الأدب الجزل بصورة تجمع فى كل باب ما يتصل بناحية معنوية معينة من المترادفات ، وصيغ الاستعارة ، والأمثال . ونُثرت الشواهد فى الـكتاب باقتصاد . وأحياناً تساق حكمة مثالية لعظيم ، أو آية من القرآن ، أو حديث للرسول [صلى الله عليه وسلم] . والنصوص النحوية جدّ نادرة . وقد يحذّر من عبارة مستكرهة بقوله : لا يقال (١) ؛ أو قوله مثلا (٢) : كاد يفعل

(١) مثل ص : ٢١ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ١٠٣ ، ١١٤ ، ١٦٤ .
(٢) ص ٢٣٣ .

ذلك ، وكاد أن يفعل لغة ضعيفة ؛ أو قوله مثلا (١) : « أغلفة السيف » غير مستعمل ؛ وينبغى أن يميز المرء بين الإفراط والتفريط (٢) .

أما أنَّ كتاب الألفاظ الكتابية للهمذانى قد جمع أصفى لآلىء الإنشاء فى صفحات قليلة ، فقد صرّح بذلك الصاحب بن عبّاد ، الذى كان هو نفسه أحد كبار الكتاب فى القرن الرابع ؛ ولكن أدعى إلى الدهشة ذلك اللوم الذى عقّب به على ذلك المدح : لقد جمع شذور العربية الجزلة فى أوراق يسيرة ، فأضاعها فى أفواه صبيان المكاتب ، ورفع عن المتأدبين تعب الدروس ، والحفظ الكثير ، والمطالعة الكثيرة الدائمة (٣) .

وهذا الحكم ، على لسان خبير ، يبين كيف أنه سرعان ما تحول النثر الفنىّ إلى بريق لفظىّ أجوف فى القرن الرابع — العاشر . فليكن كتاب الهمذانى قد قدم للكتّاب ، السطحيين الساذجى التفكير ، المادة اللازمة لتعبيرهم ؛ فإن سبب الانحطاط لم يكن راجعاً إليه ، بل إلى اتجاه الذوق الأدبى فى ذلك العصر ، ذلك الاتجاه الذى أعلى مرتبة القالب على المادّة ، لمجرد الإعجاب برونق اللفظ ولمعانه .

على أن هذا التلذذ الذوقى باللغة ، من حيث جرس الألفاظ ورنينها ، ووزن لحنها الموسيقى ، كان دأبا وديدناً للعرب منذ عهد سحيق . ففيما قبل الإسلام كان للخطيب إلى جانب الشاعر مقام عظيم ، إذ كان صاحب الكلمة العليا فى القبيلة ، ولم يكن من النادر أن يستخدم النثر المسجوع (٤) . وقد كان السجع يرفع الفَوْرات الانفعالية لدى الكهان القدماء فوق مستوى اللغة العادية ؛ كما كان أداة الأسلوب التى ميزت القرآن من ناحية الصورة ، من حيث هو كلام الله ، عن كلام الناس .

وكانت نتيجة كلتا الحالتين أن منع الأتقياء من استعماله حلية فى كلام الناس .

---

(١) ص ١٢١ .

(٢) ص ١٤٠ وانظر : دوزى فى المادة ؛ وخزانة الأدب ج ١ ص ٢٨١ .

(٣) انظر ترجمة الهمذانى فى مطلع كتاب الألفاظ الكتابية ؛ بيروت ١٨٨٥ .

(٤) انظر : Pedersen : E1, 2, 995 .

ولكن ، كما يحوط النغمة الرئيسة السائدة فى الموسيقى إيقاع دائم متنقل ، بين أنصاف الأصوات وأرباعها ، مع ما فى ذلك من تعاقب مختلف الأوزان والألحان ، وتنوّع نغمات الختام ، إلى غير ذلك من الترديدات والتعقيدات ؛ وكما يملأ الوشى والحلى من النقش الزخرفى ، الصادر عن حرية الرسام وذوقه المفتنّ ، لوحات الرسم فى العمارة الهندسية الخاضعة لقوانين دقيقة الخطوط ؛ كذلك وجد مثل الجمال الأعلى فى الكلام المنثور أعلى درجات كماله فى النثر الفنىّ ، الذى يصور السجع فيه النقاط الثابتة الهادئة محفوفة بالترصيعات وتساوق الألحان ، واللعب بالألفاظ ، وفواصل الكلام وأجزائه المختلفة .

ولهذا علت كلمة النثر المسجوع تدريجاً على الرغم من كل الشُّبه والمعارضات الدينية ، وانعقد له إكليل النصر فى كافة العالم الإسلامى فى القرن الرابع — العاشر . ومنذ ذلك العهد لم يتنازل عن السجع كتاب نثرى يريد أن يدّعى بحق من الأسلوب الفنى .

وبهذا صار التعبير اللاشعورى الذى كان يوحى به التأثير النفسى العميق ، تعبيراً إرادياً محضاً ، تصوغه الصنعة والفن الرفيق . وهنا كان الأدباء الخصيبو الذهن ، الذين ملكوا زمام فنهم ، وحذقوا صنعتهم ، يصقلون ويقوّمون ثقاف السجع لنثرهم عن تعمّد وقصد .

وهذه الكتب المختصرة ، مثل كتاب الهمذانى ، كانت تقدم لهم فى ذلك أجلّ الخدمات .

(٩)

العربية ولهجات البدو

فى القرن الرابع الهجرى — العاشر الميلادى

أعلَن مبدأ « تنقية اللغة العربية » ، منذ أول ظهوره فى مختتم القرن الأول — السابع ، لغة الأعراب مثلا أعلى ، يجدر بالمسلم المثقف أن يتخذه قدوة وإماما . وكانت لهجات الأعراب ، حتى أواسط القرن الثالث — التاسع ، هى النبع القراح الخالد ، الذى يستقى منه النحاة وعلماء اللغة معارفهم عن العربية الفصحى .

وبنفس المستوى الذى نضحت به طرق التعبير فى العربية المولدة بين الطبقات الوسطى والدنيا على لغة المجتمع الرفيع ، تغيّر نظر المثقفين إلى لهجات البدو من الأعراب . الاحتذاء التام للغة البدو ، الذى كان حتى مختتم القرن الثانى ، أسمى مطامح الحضريين المثقفين ، صار على ممر القرن الثالث نوعا من التقعير الذى يختلف باختلاف الأحوال ، بين أن يكون مطلوبا ، أو داعيا إلى السخرية ، أو غير لائق .

وهكذا صارت العربية الفصحى ، فى بداءة القرن الرابع — العاشر ، لغة الكتابة قطعت جميع أشواط نموّها وتكوينها ، ولم تعد قابلة لزيادة من النموّ الحىّ . لقد غدت نموذجية مثالية ، وتغلب إشعاع الجمال الفنى فى قوالبها على الفاقة الخشنة ، والعراء المستكره ، فى لهجات الأعراب المعاصرين .

حقاً لقد كانت لغة البدو إذ ذاك أيضاً فى مستوى من الخلوص والنصاعة لا تدانيه لغة الزراع والحضريين ، لاسيما إذ كانت ألسنتهم لا تزال محتفظة بمظاهر الإعراب والتصريف القديمة . بيد أنه فى كل مكان كثر فيه اختلاط البدو بغيرهم من طبقات السكان ، وكذلك عند تحولهم بوجه خاص إلى الإقامة والاستقرار ، وبهذا إلى

الاتصال الذى لاغنى عنه بالسكان الزراع الذين كانوا يجدونهم أيةً سلكوا؛ فقدت لغتهم من صفائها وخلوصها فقدانًا كبيرا .

وإلى أى حد كانت الأحوال متشابكة معقّدة ؟ هذا ما يكشف عنه بيان الهمدانى (المتوفى ٣٣٤ هـ) عن العلاقات اللغوية فى جنوبى الجزيرة العربية حوالى نهاية القرن الثالث[١] . فهنا كانت اللغة الحميرية الأصلية لا تزال تمعن فى الاختفاء أمام عربية الشمال . ويقول الهمدانى[٢] إن اللغة الحميرية القُحّة المتعقدة كانت سائدة بعد فى المنطقة الممتدة من حَقل قتاب (عند يَرِيم الحالية) إلى ذَمَار . وقد كانت هذه هى المنطقة المحيطة بظفار عاصمة دولة الحميريين القديمة . أما فى العاصمة الجديدة للإقليم وهى : صنعاء ، ففى أهلها بقايا من العربية المحضة ، ونبذ من كلام حمير (ص١٣٥س٢٥) . ومدينة صنعاء مختلفة اللغات واللهجات ، لكل بقعة منها لغة ؛ لأنها كانت مدينة هامة إذ ذاك أيضاً . وعلى النقيض من ذلك يقع غربى صنعاء مركز ثان للغة الحميرية الخالصة (الحميرية المحضة ص ١٣٦ س ١) يمتد بين شِبام أقيان عبر سلسلة جبال المصانع حتى جبل : تُخلَى .

وكذلك كانت الحميرية كثيرة فى منطقة : خَيْوان ، الواقعة بعيداً نحو الشمال من صنعاء إلى ناحية صَعْدة (ص ١٣٥ س ١٥) التى كانت تسود فيها عربية الشمال .

وفيما عدا هذا اختلطت الألسنة الأصلية بعربية الشمال شتى وجوه الاختلاط ، إذا لم تكن قد قضى عليها تماما من قبل الداخلين .

وقد ضاعف من عناء الهمدانى وتعبه فى تصوير هذه الأخلاط من اللهجات أنه لم يكن يرى فقط أن لغة الكتابة هى القدوة والمثال ، بل كان يرى فوق ذلك أنها تصور اللغة الأصيلة الخالصة البعيدة عن التغيير والتبديل ، والتى تفرعت منها تدريجا الألسنة واللهجات التى كانت سائدة فى عصره بالفساد والتحريف .

وعلى هذا النحو وحده يتضح كيف استطاع أن يفترض (ص ١٣٥ س ٢٥)

(١) صفة جزيرة العرب ص ١٣٤ — ١٣٦ .

(٢) ص ١٣٥ س ٤ وفى كلمة : المتعقدة انظر الفهرس اللغوى الذى عمله : دى غويه للكتاب .

من صنعاء كانت فيهم بقايا من العربية المحضة ، أو أن يلاحظ أن أهل عدن لغتهم رديئة (ص ١٣٤ س ٢٤) ، وأن فى بعضهم نوكا وحماقة إلا من تأدب منهم .

ولا نستطيع أن نستنتج من مثل هذا الأسلوب فى ملاحظة علاقات اللهجات إلا أن الهمدانى يقيس كل لهجة بمقاييس النحو ، ويحكم عليها من حيث الفصاحة والغتمة من وجهة نظر واحدة ، هى مطابقتها أو مخالفتها للقواعد .

وهو ينظر بعد هذا ، هل هى معقدة صعبة الفهم على من خرج عن محيطها ؟

وهكذا نراه لا يفترض أن للهجتين : المهرية والشحرية ، أساساً من لغة أخرى ، تبتعد من عربية الشمال إلى حد يتعذر معه التفاهم ؛ بل يصور سكان الشحر والأسعاء على أنهم قوم لا ينطقون نطقاً فصيحا ، والمهريين على أنهم غُتم يشاكلون العجم .

ولا يذكر أكثر من ذلك عن لهجات حضرموت ، فهو يكتفى بأنهم ليسوا فصحاء ، وربما كان فيهم الفصيح ، وأفصحهم كندة وهمدان وبعض الصدف (ص ١٣٤ س ١٨)

وهو يعدّ فصيحة أيضا لتلك اللهجات التى يتكلم بها فى سَرْو مذحج ، ومأرب وبَيْحان ، وحَريب ؛ ففى هذه المناطق الواقعة على طريق العطور والتجارة ، التى كانت تمتد من مأرب عاصمة الدولة السبئية القديمة نحو الشمال الشرقى ، كانت اللغة الرديئة أمراً نادراً (ص ١٣٤ س ١٩) .

وكانت فصيحة أيضا لهجة المنطقة بين مأرب وذَمار ، التى يحددها الهمدانى على الصورة التالية : جبل إسبيل الواقع فى الشمال الشرقى من ذمار ، وإقليم كَوْمان المتاخم له من الشمال الشرقى أيضا ، وإقليم الحَدَاء المجاور له ، وجبل دِقْرار الواقع فى منطقة مأرب ، وأخيرا منطقة « قائفة » التى تعد من مناطقة « مراد » (١٣٥ س ٥) . وسكان كومان حميريون فى الأصل ، ولكنهم صاروا على عهد الهمدانى من قبيلة مذحج [١] ؛ مما يدل على أن خلوص اللغة لا يرجع إلى الدم والنسب .

---

(١) انظر الهمدانى س ٩٢ س ٢٢ (وأصلهم حميرى وهم يتمذحجون اليوم) .

ويعد الهمدانى أيضا فيمن يتكلمون بفصاحة أقساماً من منطقة همدان [١] الممتدة إلى الشمال الشرقى من صنعاء ومأرب حتى نجران ، وما جاور هذه الأقسام أيضا ، حيث تسكن قبائل بَلْحارث فى الرحبة ؛ على حين أن صَنَاف بالجوف الأعلى دون ذلك فى الفصاحة (ص ١٣٥ س ٢٠) .

كذلك يعد من الفصحاء سفيان بن أرحب ، وهو شعب من همدان ، على الرغم من أنهم يتخذون : أم ، بدلاً من : أل ، أداة للتعريف [٢] . ويستعملون المثنى بالألف فى جميع الحالات [٣] .

وبنو حرب ، فخذ من همدان فى بلد : وادعة ، وهم أهل إمالة فى جميع كلامهم ؛ على حين أن بنى عمهم [٤] بنى سعد أفصح .

على أن المنطقة العظمى التى تغلب فيها الفصاحة تبدأ فى الشمال من حدود اليمن الحقيقية عند وادعة ، وتمتد عبر سلسلة السروات على الساحل إلى غربى شبه الجزيرة .

وقد ذكر الهمدانى فى ص ١٣٦ س ٣ من القبائل التى تسكن هذه المنطقة التى يخترقها طريق القوافل ، بعض أفخاذ من مذحج (جَنْب وزُبيد) ، وقضاعة (سِنْحان ونهد) وأزد شَنُوءة (بنى أسامة [٣] وعنز) ، ثم من خثعم [٥] ، وهلال وعامر بن ربيعة ؛ ثم بعد هذا مرة أخرى فصائل من الأزد (الحِجْر [٦] ودَوْس

---

(١) يؤخذ من ص ١٣٥ س ١٩ أن هؤلاء هم : عذر ، مطرة ، نهم ، مرهبة ؛ ذيبان ، وهو مخالف لما ذكره فى س ١٢ من نفس الصفحة . وانظر فى هذه القبائل : J. Schleifer, EI II 302 B .

(٢) يعد هذا من خصائص لغة اليمن : انظر ابن يعيش على المفصل ص ١٢٢٠ ؛ العينى ج ١ ص ٤٦٥ ؛ ووردت أيضاً فى مسند أحمد ج ٥ ص ٣٤٣ فى الحديث : ليس من امبر امصيام فى امسفر » (وفى البخارى : بأداة التعريف المعتادة أى الألف واللام) ؛ ويسميها آخرون لغة حمير ، وهى التسمية المشهورة .

(٣) ذكر ابن جنى أن هذه لغة بلحارث ؛ انظر : O. Rescher, ZA 23 S. 23

(٤) انظر الهمدانى ص ٩٠ س ١ .

(٥) انظر الهمدانى ص ١٣٤ س ٢١ (ويجرون فى كلامهم ويحذفون)

(٦) انظر ص ١١٩ س ٧ .

وغامد ويشكر) ، ثم من فهم فثقيف فبجيلة ، وأخيراً طائفة يسميها بنى علىّ . ولكنه ينبه بوجه خاص إلى أن المجموعات التى تسكن سفوح الجبال الغربية من هذه القبائل (تجاه تهامة) أقل فصاحة ممن يعيشون فى أعالى الجبال . وكما أثّر جوار تهامة تأثيراً سيئاً فى فصاحة اللغة فى هذه المناطق ، أثر أيضاً نفس التأثير فى إقليم الجوف ، كما يرى الهمدانى (ص ١٣٥ س ٢١) إذ يقول إن سكان الجوف فصحاء إلا من خالطهم من جيرة لهم تهاميين .

أما أن أهل تهامة ينطقون عربية رديئة فهذا ما يستفاد بوضوح من ملاحظته (ص ١٣٥ س ١٠) ، حيث يقول إن بلد الأشعر وعك وحكم (من بنى سعد العشيرة) من بطن تهامة لا بأس بلغتهم إلا من سكن منهم القرى (١) ، وكما يقول فى ص ١٣٤ س ٢٥ ، يوجد قبيلتان أخريان فى جوار الأشعريين ، هم بنو واقد ، الذين يعدون من ثقيف (٢) ، وبنو مجيد الحميريون فى الأصل (٣) ، وهما فصيحتان أيضاً .

كذلك فى ناحية صعدة توجد العربية الفصيحة فقط عند بنى خولان الذين يخيمون فى السهل ، على حين أن بنى قبيلتهم الساكنين بالمنخفض (الغَوْر) غُتم غير فصحاء (ص ١٣٦ س ٢) .

ويصف الهمدانى لهجات أخرى بأنها غير فصيحة ، كاللهجات الجارية بين ذمار وصنعاء (١٣٥ س ٢٤) ولهجة السكاسك التابعين لكندة .

ويعد وسطاً فى الفصاحة ، والى اللُّكنة أقرب ، لهجات بعض بقاع تقع فى المنطقة الجبلية ألْهان وأنيس ، (غربىّ ذَمار) ؛ والى اللُّكنة أقرب أيضاً ما جاور ذلك فى جبال حَراز ، وإن كان بينها ما هو متوسط بين الفصاحة واللكنة ؛ على أن بينها أيضاً ما هو أدخل فى الحميرية المتعقدة ، لا سيما فى القبائل الساكنة بمنطقة جبال الحُضُور .

---

(١) كرر الهمدانى فى ص ١٣٥ س ١٨ أن « الأشعر وعك وبعض حكم ... فصحاء » .

(٢) ص ٥٣ س ٢٥ .

(٣) ص ٥٣ س ٢٠ .

وعن الجحادب الذين يدخلون ضمن القبائل الأخيرة يقول الهمدانى فى ص ١٠٦ س ١٨ إن أصلهم حميرى : والجحادب من حمير وقد يتهمدنون .

وأبعد من ذلك نحو الشمال ، فى همدان ، كما يقول الهمدانى فى ص ١٣٥ س ١٢ هناك إلى جانب عُذَر ، وهِنَوْم ، وحَجور الفصحاء ، يوجد غُتْم أيضاً مثل بعض قُدَم ، و بعض الجَبَر . كذلك فى النجد من همدان ، تسود عربية مخلوطة بحميرية فى سهلى البَوْن والخَشَب [1] .

أما ظاهر همدان ، النجدى ، أى النواحى الواقعة على الأطراف من الهضبة ، فلغتها فصيحة .

ولهجة جُبلان ، فى المنطقة الجبلية الواقعة جنوبى جبال : ألْهان ، عسيرة الفهم ، فيها تعقد ، على حين أن لهجة يَحْصِب [2] ورُعَين المتصلتين بجُبلان من جهة المشرق أفصح من جُبلان (ص ١٣٥ س ٢) ، على الرغم من أن الأخيرين ، وهم رُعَين ، حميريون فى الأصل [3] .

وكذلك شأن العلاقات اللغوية فى منطقة الـكَلاَع فى الجنوب (ص ١٣٤ س ٢٦) : ففى نجدتها فصاحة عالية ، مع عُسْرةٍ من اللسان الحميرى (أى من أثر البقايا اللغوية الحميرية فيما يظهر) . وفى سراتها أى أعاليها (المناطق الجبلية) تعقد . وتسود اللهجة الحميرية تماماً فى المناطق الواقعة بالداخل من النواحى الجبلية الوعرة من سَرْوِ حمير ، لا سيما بين من ينتمون — دون حق — [4] إلى جعدة بن كعب من هوازن التى هى من عرب الشمال ، ومساكنهم فى منطقة الجبال الجنوبية المرتفعة على الطريق من عدن إلى صنعاء . ويقول الهمدانى فى وصف لهجتهم : ليسوا بفصحاء

---

(١) انظر فى اختلاط سكانه : الهمدانى س ١١١ س ٩ .

(٢) كتبها Müller : يحضب بالضاد المعجمة ، انظر : ملاحظاته س ١٠١ س ١ من كتاب الهمدانى .

(٣) همدانى س ١٠١ س ٢٣ (حيث يقول : وجميع مخلاف رعين لايسكنه إلا آل ذى رعين إلخ

(٤) انظر الهمدانى س ٩٠ س ١ .

وفى كلامهم شىء من التحمير ويجرّون فى كلامهم ويحذفون فيقولون : يابن مْعمّ فى : يابن العمّ ، و : سِمَعْ فى : أسْمَعْ (ص ١٣٤ س ٢١) .

وأبعد من ذلك إلى الجنوب ، توجد لهجة أفصح ، فى لحْج ، وأَبْيَنْ(١) ، ودثينة ؛ والعامريون من كندة والأوديون أفصحهم .

ويصف الهمدانى لهجة السكاسك الساكنين بجوار مدينة جَنَد، بأنها متوسطة (ص ١٣٤ س ٢٦ .)

ولهجات جيشان الواقعة جنوبى اليمن ، وما جاورها من بقاع ، حميرية ، مثل لهجة السَّرو (ص ١٣٥ س ١) .

وأخيراً فى المعَافِر — فى منطقة : تعزّ الحالية — ينطقون فى سافلتها لهجة فيها غُتْمَة ، وفى علياها أفصح من ذلك (ص ١٣٤ س ٢٥ ، وانظر ص ٩٩ س ١٧) .

أما عن اللهجات التى يتكلم بها خارج اليمن ، فيكتفى الهمدانى (ص ١٣٦س٨) بملاحظة عامة : وأما العروض ففيها الفصاحة ما خلا قراها ، وكذلك الحجاز فنجد السفلى فإلى الشام و إلى ديار مضر و إلى ديار ربيعة ، فيها الفصاحة إلا فى قراها .

ثم ختم ذلك بقوله : فهذه لغات الجزيرة على الجملة دون التبعيض والتقنين (أى دون التفصيل بذكر الخصائص الخاصة) .

هذا ، بيد أنه لم تكن مراعاة هذا التنوع للحياة اللغوية المتجلى فى اللهجات هى العامل الوحيد الذى حمل المثقفين ، منذ القرن الرابع — العاشر ، على تغيير نظرهم إلى لغة الأعراب ؛ بل لقد كان أدعى إلى ذلك التطور هذه الحقيقة الثابتة ، من أنه قد حل فى ذلك العهد ، محل النشاط فى الجمع والوصف الذى كان يقوم به علماء اللغة القدامى ، علم للغة منظم تنظيما فلسفياً زاد الباحثين قوة وثقة من أنفسهم .

فهذه البداهة المطلقة التى كان القرن الثانى — الثامن ، يعتمد بها كل أعرابى فصيح على أنه قاض لغوى غير منازع ، وكان ينحنى لحكمه ، ويمتثل لنطقه ،

(١) انظر ص ٨٨ س ٢٠ .

قد تركت مكانا للروية والنظر العلمى ، الذى لم يعد — كما كان فى القرن الثالث — يكتفى بأن يعترض على صيغ واستعمالات متفرقة من لغة الأعراب ؛ بل أخذ يبحث فى نقد وتمحيص عن وجه معقول للتضاد بين لغة الأعراب وقواعد النحو .

وقد كان ابن جنى (المتوفى ٣٩٢ هـ) يختلط كثيراً فى سنى شبابه — إذ كان لا يزال يعيش فى الموصل — بأعرابى من بنى عقيل ، هو محمد بن العسّاف الشجرى الذى نالت سلامة عربيته موقعاً كبيراً من ابن جنى ، وعمل معه دراسات فى اللغة (١) . وعلى الرغم من ذلك فقد خصص ابن جنى فى كتابه : الخصائص ، باباً مستقلا لأغلاط الأعراب (٢) ؛ ذهب فيه بالاتفاق مع أستاذه أبى علىّ الفارسى (٢٨٨ — ٣٣٧ هـ) إلى أن الأعراب قد يقعون فى اللحن لأنهم ليست لهم أصول يراجعونها ولا قوانين يستعصمون بها ، وإنما تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به ، فربما استهواهم الشىء فزاغوا عن القصد .

وها هو ذا مثلا ينظر إلى الكلمات : حلّأت السويق ، بدلا من : حلّيت ، ورثأت زوجى ، بدلا من : رثيت ، ولبّأت بالحج ، بدلا من لبّيت ، واستلأمت الحجر ، بدلا من : استلمت ، فلا يقدّر أنها لهجات خاصة أو لغات ذات نصيب من الصحة قل أو كثر ، وقصارى أمرها أن يتساءل : هل يجوز للكاتب البليغ استعمالها ؟ ولكنه يعدُّها — ببساطة — من الغلط ، لأنها تتصادم مع أصول الصيغ والقوالب .

وبما أن لفظ : مصيبة يرجع أصله إلى : ص و ب ، فمن الغلط إذاً جمعه على : مصائب ، بدلا من مصاوب ، وإن انتشرت هذه الصيغة المقيسة على صحائف خطأ فى استعمال الأعراب اللغوى .

---

(١) انظر ياقوت : إرشاد ج ٥ ص ١٥ — ٢٩ ؛ الشهاب الخفاجى : شرح الدرة ص ١٤٨ س ٥ — ١٢ .

(٢) ذكره السيوطى فى المزهر ج ٢ ص ٢٠٨ — ٣١٠ .

وعلى عكس ذلك يعدّ : أمسلة ، جمعاً قياسياً صحيحاً للفظ : مسيل ، أى مجرى الماء ، لأنه لا يرى أنه مشتق من سال (س ى ل) ، بل من : مسل ، بمعنى : سال أيضا .

لذلك يرى الميم فى : معين ، أى ماء جار ، أصلية ، لأنه فى نظره ليس من : العين ، بل من قولهم : أمعن له بحقه إذا طاع له به ، فكذلك الماء إذا جرى من العين فقد أمعن بنفسه وأطاع بها .

هذا وكون النزاع فى هذه الأمثلة راجعاً فى الأغلب إلى أصل الكلمة واشتقاقها لم يأت من ابن جنى عرضاً واتفاقاً ؛ فقد كان لابن جنى فى هذا الموضوع بالذات ، من حيث هو مؤسس مبدأ الاشتقاق الكبير ، رأى علمى ثابت . ولم يكن يدور بخلده أن يتنازل عنه ضحيةً لاستعمالات غير المثقفين من الأعراب .

وعلى النقيض من ذلك ما وصل إلينا فى ذلك التوجع الشمرى الذى قاله عمّار الكلبى يشكو من غرور النحاة وجرأتهم (١) :

ماذا لقينا من المستعربين ومن ... قياس نحوهم هذا الذى ابتدعوا
إن قلت قافية بكراً يكون بها ... بيت خلاف الذى قاسوه أو ذرعوا
قالوا : لحنت وهذا ليس منتصبا ... وذاك خفض وهذا ليس يرتفع
وحرّضوا بين عبد الله من حُمق ... وبين زيد فطال الضرب والوجع
كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم ... وبين قوم على إعرابهم طُبعوا
ما كان قولى مشروحاً لكم فخذوا ... ما تعرفون وما لم تعرفوا فدعوا
لأنّ أرضىَ أرض لا تُشبّ بها ... نار المجوس ولا تُبنَى بها البِيَع

ويروى أن قائل هذه الأبيات استعمل لفظ : مزعوج ، وجر بذلك على نفسه طعن النحاة الذين لا يجيزون إلّا : مُزْعَج . وهذا من الأحوال التى استعمل فيها مفعول الثلاثى غلطاً بدلا من مفعول الرباعى ، مثل : مأثور ، بمعنى مختار ، ومتعوب

(١) ياقوت : إرشاد ج ٥ ص ٢٦ .

بمعنى متعَب [(١)] ، ومفسود ، بمعنى مفسَد ، ومبغوض بمعنى مبغَض .

والحالة الآنفة الذكر ذات فائدة خاصة من حيث دلالتها على أن التجديدات التى لايزال يجرى استعمالها فى اللهجات الحديثة لم تقتصر على المدن ، بل ظهرت كذلك عند البدويين من الأعراب .

ومثل هذا الموقف المرتاب ، وتلك النظرة الناقدة إزاء عربية البدويين ، ظهرت عند الأزهرى صاحب المعجم (المتوفى ٣٧٠ هـ) . لقد امتُحِن بالإسار عند ما عارض القرامطة الحج بالهَبِير [(٢)] ، وكان ذلك عند رجوعه من الحج سنة ٣١٢ هـ ، وكان العرب الذين وقع أسيراً فى أيديهم من قبيلة هوازن وفيهم جماعة من أسد وتميم ، وقد ظل عندهم دهراً طويلا ، وصحبهم فى مشتاهم ومصيفهم . وفى مقدمة معجمه « التهذيب » اعترف بأن مخالطته لهم عادت على كتابه بفائدة عظيمة ، ولكنه قرن إلى ذلك أنهم كانوا يتكلمون بطبائعهم البدوية وقرائحهم التى اعتادوها ، ولا يكاد يكون فى منطقهم لحن أو خطأ فاحش [(٣)] .

هذا ، فمن كان يقصد إلى البدويين فإنما كان يفعل ذلك قصداً إلى لغتهم ؛ وهكذا عاش صاحب « التهذيب » الأشهر : الأزهرى ، فى القرن الرابع — العاشر الميلادى ، زمناً طويلا بين قبائل ربيعة ومضر [(٤)] . ولا فرق فى هذا بين ما تلقاه من الأعراب إذ ذاك ؛ ما داموا محتفظين بأساليب البداوة ؛ فقد حصل الخارزنجى (المتوفى ٤٠٨ هـ) على معارفه اللغوية الواسعة التى لفت بها الأنظار إليه فى بغداد ، من الأعراب الذين نصبوا خيامهم بين طوس و بُسْت [(٥)] .

---

(١) وردت هذه الصيغة أيضاً فى النصوص النصرانية — العربية ؛ انظر : Graf Sprachgebrauch 87

(٢) والهبير زرود فى طريق مكة كانت عنده وقعة ابن أبى القرمطى بالحاج سنة ٣١٢ هـ .

(٣) انظر تهذيب اللغة (كتب عنه : Zetterstéeu, M 014,7) وياقوت : إرشاد ج ٦ ص ٢٩٩ ؛ وابن خلكان ج ٢ ص ٣١٦ ؛ وانظر أيضاً كلام الأزهرى عن : السليقية ، فى تاج العروس ج ٦ ص ٣٨٣ س ٣٠ .

(٤) ياقوت : إرشاد ج ٢ ص ٢٦٧ .

(٥) ياقوت : إرشاد ج ٢ ص ٦٥ .

وذاك الحكم الناقد على لهجات الأعراب يرجع — قبل كل شىء — إلى أن الطبقات الوسطى من المجتمع فى القرن الرابع — العاشر ، لم تعد تحوط البداوة بذلك الإطار البديع من الكلَف والشَّغف ، والإعجاب العاطفى الشعرى ، الذى كان لا يزال ، إبّان القرن الثالث ، يرى فى أبناء الصحراء الأحرار صوراً مجسّمة للرجولة الحقة وجميع فضائل الإنسانية ، ومُثُلاً عليا للوفاء والشرف ، والسخاء وكرم الضيافة .

وحروب القرامطة الرهيبة ، التى زعزعت الدولة منذ ٢٧٧ / ٨٩٩ ، وخرّبت أقاليم برمّتها ، وأشلّت حركة التجارة والمعاملة ، وأعملت السلب والنهب فى قوافل الحجيج ، و بلغت أخيراً فى سنة ٣١٧ / ٩٣٠ ، باختطافها الحجر الأسود من حرم الكعبة الحرام بمكة ، منتهى قسوتها وفظاظتها التى اقشعر لهولها كل مسلم ؛ كل ذلك ألقى على البداوة ضوءًا آخر ، فعرضها فى صورة قطعان من اللصوص الجشعين الخونة ، الناقضين للعهود ، الغلاظ الأكباد ، غير المثقفين ولا المهذّبين ؛ وسرعان ما غيّر الرأى العام نظرته إليهم .

وقد ساوق هذا جنباً إلى جنب تغيّر فى حكم الشعور بالجمال ، والذوق الفنى . فى أيام الجاحظ كان يعدّ من أنفس المتع الاستماع إلى الأعراب الفصحاء ؛ أما فى أواخر القرن الثالث — التاسع ، فيقرر ابن بسّام (حوالى ٢٣٠ — ٣٠٢ هـ) فى أبيات يمتدح بها النحو ، أنه كثيراً ما سمع من الأعراب ألفاظاً مستكرهة قبيحة[١] .

ومن المعايب التى يطعن بها الصاحب بن عباد فى المتنبى ، أنه يحرص على تعاطى التفاصح بالألفاظ النافرة والكلمات الشاذة ، حتى كأنه وليد خباء ، أو غُذى باللبن ، ولم يطأ الحضر ، ولم يعرف المدر[٢] .

ومع ذلك فلم يكن من رأى ابن عبّاد أن شاعراً أيًّا كان يستطيع أن يبرّز فى الشعر دون إحاطة بغريب اللغة . فقد سجّل أبو حيان التوحيدى فى رسالته[٣] ،

(١) ياقوت : إرشاد ج ٥ ص ٣٢٥ ؛ ابن رشيق : العمدة ج ٢ ص ٢٠٦ .

(٢) ابن عباد : الكشف عن مساوى المتنبي (القاهرة ١٣٤٩) ص ١٤ .

(٣) ياقوت : إرشاد ج ٢ ص ٣٠١ .

التى كتبها فى تحقير ابن عبّاد وابن العميد ، موقفاً أنكر فيه على أحد الشعراء أن يتجرأ على قول الشعر وهو يجهل كثيراً من الغريب ، ثم سرد عليه — سائلا — طائفة كبيرة من الكلمات النادرة المهجورة من لغة الأعراب ، كان يفخر الصاحب المعتدّ بنفسه إذ يحيط بمعرفتها ، فسأله عن الهِبْلَع[١] ، وهو اللئيم الأكول والعَشْلَط[٢] ، وهو اللبن الخاثر الثخين ؛ والجَلَعْلَع[٣] ، وهو القنفذ وقيل الجُعَل والقَهْقَب ، بتخفيف الباء أو تشديدها ، وهو الضخم المسنّ ، أو الطويل الرغيب والباذنجان ؛ والقَهْبَلِس[٤] ، وهو المرأة الضخمة ؛ والخُزَعْبِلَة ، وهى الباطل والقُذَعْمِلَة ، وهى المرأة القصيرة الخسيسة ؛ والقُرْموط[٥] ، وهى ثمرة الغضى والجِرفاس ، وهو الرجل الضخم الشديد ؛ واللّتوس ، وهو الرجل الذّوّاق ؛ والنعثل وهو الشيخ الأحمق ؛ والطِّربال[٦] ، وهو كل بناء عال .

ثم سأله عن الفرق بين العَرْم وهو الدّسم و بقية القدر ؛ والرَّدْم ، وهو السد والخذم، وهو القطع ؛ والخرم ، وهو فصم الخرزة ونحوها ؛ والقضم ، وهو أكل الشئ اليابس ؛ والخضم ، وهو القطع ؛ والفضخ ، وهو كسر الشىء الأجوف ؛ والرضخ وهو كسر مثل الحصى أو النوى . والفصم وهو الكسر من غير فصل ؛ والقصم ، وهو كسر الشىء مع فصله ؛ والعَبَنْقس وهو الرجُل جدّتاه لأبويه أعجميتان ؛ والفَلَنْقَس[٧]

(١) جرير : النقائض قصيدة رقم ١٠١ بيت ٤٥ .
(٢) أبو زيد : اللبأ واللبن ص ١٤٤ س ٥ .
(٣) نقل صاحب تاج العروس شرح هذه الكلمة عن ابن عباد .
(٤) انظر تهذيب الألفاظ لابن السكيت ص ٣٧٣ .
(٥) فى النسخ المتداولة ، كما فى النسخة الخطية : العمروط ، وقد ذكر البستانى فى محيط المحيط ص ١٤٧١ أنها صيغة شعبية للفظ : عرموط ، وهو اللص القوى والمارد الصعلوك ، ولكنه غير ظاهر هنا ، ويرى فيه مرجليوث لفظ الغرموس مشيراً إلى كتاب الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ٤٦ ؛ ولكن هذا فيما يظهر تحريف مطبعى عن : قرموس ، وهو عش للحمام وعند ابن الأعرابى : قرموط ، بمعنى الحجر الذى يضع فيه الجمل بيضه .
(٦) فى النسخة المطبوعة : الطريال بالياء ، وهو غلط . وطربال ورد فى شعر جرير : ديوان ص ٤٧٠ س ٣ ، وورد فى شعر دكين الراجز ؛ انظر تاج العروس ج ٧ ص ٤١٦ ؛ انظر معاجم اللغة وانظر الاصطخرى ص ١٢٤ س ٧ .
(٧) فى النسخة المطبوعة : والعلنكس بالعين المهملة ؛ ولكن انظر فى التضاد بين العبارتين المذكورتين ابن السكيت : الألفاظ ص ٤٨٠ والمعاجم .

وهو الرجُل أبوه مولى وأمه عربية ، والخيتعور[١] وهو الخدّاع الخاتل ؛ واليستعور[٢] وهو الباطل .

ثم سأله عن : الشُّنعوف ، وهو قمة الجبل ؛ والخُذْرُوف ، وهو لعبة للأطفال (كالنحلة) ؛ والحَلَزُون[٣] وهو دابة تسكون فى الرمث ؛ والقَفَنْدَر[٤] ، وهو القبيح النظر ؛ والجعليل ، وهو الذى يجمع كل شىء ، وعن غير ذلك من الألفاظ البدوية التى طرحت من الاستعمال . ولكن الصاحب لم يمثل فى أسئلته مبدأ « تنقية اللغة العربية » المتطرف ، الذى لا يقيم وزناً إلا للمادة اللغوية الموجودة فى شعر البدويين من الأعراب ، بل نظر إلى استعمال ألفاظ الأعراب ، على أنه معضلة من معضلات الأسلوب . وربما كان استيعابه للألفاظ اللغوية المستعملة خارج محيط الاستعمال البدوى الخالص ، هو سبب الطعن[٥] فى معجمه اللغوى ذى السبعة الأجزاء : المحيط — الذى ألفه مع آخرين فيما يظهر — بأنه غزير المادّة وإن كان فقير الشواهد .

ومما يدل على أن مبدأ « تنقية اللغة » كان بعيداً عن دائرة اهتمامه ، تلك الحقيقة الثابتة ، من أنه كان يسامر بلغة اللصوص والدجالين (منا كاة بنى ساسان) أبا دلف الخزرجى ، الذى كان أيضاً شاعراً أفاقاً حِلْس طريق ، وقدّم للوزير قصيدة (القصيدة الساسانية) يصف فيها حياة الأفّاقين والدجّالين وسعيهم ، مع استعمال اصطلاحاتهم ورموزهم فى استفاضة وتوسع[٦] .

---

(١) فى النسخة المطبوعة : الخيثعور ، بالثاء المثلثة وهو غلط ، وورد لفظ خيتعور مثلا فى ديوان هذيل ص ١٢٩ س ١ ؛ وفى الأغانى ج ١٥ ص ٨٥ فى بيت مصنوع على آكل المرار .

(٢) ورد فى شعر عروة بن الورد ؛ انظر الديوان نشر Nöldeke : قصيدة ١ بيت ١٠ .

(٣) هذا اللفظ المأخوذ من السريانية ، فسره الدميرى بأنه دود فى جوف أنبوبة حجرية يوجد فى سواحل البحار وشطوط الأنهار ؛ والظاهر أن هذا المعنى كان غريباً على البدويين .

(٤) ورد هذا اللفظ فى شعر أبى النجم ؛ انظر تاج العروس ج ٣ ص ٥٠٤ ، وتهذيب الألفاظ لابن السكيت ص ٢٤٦ (دون تسمية القائل) ؛ وفى النسخة الخطية القفندر بالفاء قبل القاف ، وقد رأى مخرج الكتاب أنه محرف عن قفندد بالدال ، والصواب : قفندر بالراء كما ذكر .

(٥) حاجى خليفة : كشف الظنون (ستانبول) ١٩٠١ ج ، ص ٣٩٦ .

(٦) نحو مائتى بيت من الشعر ذكرها الثعالبي فى اليتيمة ج ٣ ص ١٧٦ ؛ وانظر فى هذا : Goldziher, Muh. Studien 2, 165, Mez, Renaissance des Jslames 238

ولكن على حين يرى ابن عبّاد معرفة غريب اللغة أمراً لا مناص منه ، يرى أبو حيان فى تعقيبه على الموقف الذى صوره آنفاً (١) ، أنّ أحداً لا يهتم بمثل هذه الألفاظ غير ابن فارس ، أستاذ ابن العميد ، وأن الشاعر لا يصنع بمثل هذه الألفاظ شيئاً . وماذا بين الشاعر وهذا الضرب من الألفاظ ؟ الشاعر يطلب لفظاً حراً ، ومعنى بديعاً ، ونظماً حلواً ، وكلمة رشيقة ، ومثلا سهلا ، ووزناً مقبولا .

فالسهولة والرشاقة ، والصقل والانتقاء ، هى المطالب التى تُتوخى فى الأسلوب البليغ . وهذه الأمور تعد معايير فى النثر كما فى الشعر ، أى فى جميع النتاج اللغوى الفنى لذلك العصر الإسلامى الأوسط ؛ وهى مع الإبداع والأصالة الفكرية من حيث المعنى والخيال ، تعير ذلك النتاج الأدبى للقرن المذكور طابعاً عقلياً يتجه إلى الغوص والتعمق .

وهكذا يصبح الشعر الرفيع ضرباً من بلاغة التعبير يقترب من النثر ، وعلى العكس يكتسب النثر المسجوع صبغة شعرية فنية . و بينما كان يفرق من قبل تفريقاً واضحاً بين الشاعر والناثر ، صارت القاعدة أن الكاتب البليغ يعرف كيف يتصرف فى التعبير بين الخطاب المنظوم والخطاب المنثور .

ولا يوجد بين كبار رجال النثر فى القرن الرابع ، من لم يقرض أيضاً الشعر الرشيق ، والنظم الأنيق : الخوارزمى ، البديع الهمذانى ، ابن العميد ، الصاحب ابن عباد ، المهلبى ، الإسكافى ... الخ .

و إلى أى حد رسخ الشعور والإحساس بشدة القرابة ، وقوة الرابطة ، بين النثر والشعر ؟ هذا ما يتصدى لبيانه كتاب « الصناعتين » لأبى هلال العسكرى ، الذى يعالج كلا الأسلوبين جميعاً فى النتاج الأدبى .

---

(١) ياقوت : إرشاد ٢ ص ٣٠٢ الخ .

(١٠)

« العربية » واللغة المولدة

فى القرن الرابع الهجرى – العاشر الميلادى

آذن انحلال الدولة العباسية نهائياً إلى أكثر من عشر دويلات مستقلة سنة ٩٣٦/٣٢٤ ؛ بابتداء عهد جديد للعربية المولّدة .

فاكتساب التحرر الجديد من سلطان بغداد ، لم يظهر أثره فى السياسة والاقتصاد ، فى كل إقليم ، فحسب ؛ بل كان كذلك بعيد الآثار فى الدائرة اللغوية .

وقد انضمت لهجات كل إقليم ، بعضها إلى بعض ، وتألفت مجموعات من اللهجات تمتاز كل منها عن الأخرى امتيازا يختلف ، قوة وضعفا ، باشتراكها فى كيفية خاصة من الأصوات ، والصيغ ، وقواعد التركيب ، والمادة اللغوية .

وهذه اللهجات الإقليمية ، فى العراق ، وما بين النهرين ، وسورية ، وفلسطين ، ومصر ، وشمال أفريقية ، وأسبانيا ؛ نضحت على لغة المثقفين ، وأكسبتها فى كل إقليم لوناً محلياً ذا طابع خاص ؛ بحيث أقدم « المقدسى » فى كتاب رحلته المكتوب سنة ٩٨٥/٣٤٥ ، وفى وصفه للعالم الإسلامى إذ ذاك ، على محاولة تمييز كل إقليم من الوجهة اللغوية ، بذكر التعبيرات المحلّية الخاصة به .

وبهذا كان كتابه ، الذى يصور ذروة الأدب الجغرافى للعصر الإسلامى الأوسط ، كنزاً لتاريخ العربية المولّدة ، ندين له ببيانات نفيسة القيمة ، لاسيما بالنظر إلى جغرافية الكلمات .

ومن ناحية أخرى بقى مقام العربية الفصحى ، من حيث هى لغة الأدب الوحيدة فى العالم الإسلامى ، ثابتاً غير منازع ، نظراً لبقاء وحدة الثقافة فى الدولة كاملة غير منقوصة ؛ بل لقد ازداد انتشار هذه العربية الفصحى عن ذى قبل ؛ لأن جميع الأقاليم

أخذت تُسْهِم فى إقامة صرح الأدب العربى بنشاط أعظم من الأوقات التى كان أدب العراق يحتلّ فيها المحل الأول .

لم تضع حدود الأقاليم حواجز وفواصل فى سبيل الأدباء والعلماء والكتاب والشعراء . فالقالى (٢٨٨ — ٣٥٦هـ) الذى نشأ فى أرمينية ، وتأدب ببغداد ، علّم وأنتج فى أسبانيا . والخوارزمى (المتوفى ٣٨٣ هـ) غادر وطنه إلى العراق ؛ وخدم سيف الدولة فى حلب ؛ والبلعمىّ فى بُخارى ؛ والميكالى فى نيسابور ؛ والشار فى سجستان ؛ والصاحب فى أصفهان ؛ وعضد الدولة فى شيراز ؛ وختم حياة مغامراته فى نيسابور . ومثل ذلك طوّف بديع الزمان الهمذانى فى خراسان ؛ وسجستان ؛ وأفغانستان ؛ قبل أن يستوطن هراة ، حيث توفى بها سنة ٣٩٨ هـ عن نحو أربعين عاما (٢) .

وتقدم لنا مثالا آخر حياة المتنبى ، التى كان مجالها بين العراق ، وسورية ، ومصر ، وفارس .

ومثل هذه الحياة فى التجوال والمغامرات لم يكن أمرا غير مألوف ؛ بل كان هو القاعدة المطردة . وهو يبين إلى أى مدى تشابهت إذ ذاك فى جميع البلدان نظم الحياة الأدبية وشروطها . فقد طوّفت طبقة كبيرة من الأدباء الجوّالين فى محيط العالم الإسلامى من قطب إلى قطب ، وكفلت بذلك نشاطاً دائباً فى تبادل الأفكار والمذاهب ؛ وحفظ هذا للغة الأدب طابعها الفصيح ؛ كما جعلها أيضاً لغة العلم والثقافة فى الإسلام ، التى كانت تفهم أيضا خارج المحيط العربى .

هذا ، وقد ساعد على اتساع دائرة نفوذ العربية ، أنها صارت لغة فصحى فى درجة ثابتة كاملة الحلقات ، ولم يعد لها تأثير حىّ متبادل مع لهجة الأعراب . فلم يعد من المستطاع أن ينشأ المرء ويترعرع فى بيئة لغوية حية ؛ بل كان عليه أن يتعلمها كما يتعلم لغة ميتة دائرة .

---

(١) الثعالبى : يتيمة ج ٤ ص ١٢٣ فما بعدها .
(٢) الكتاب المذكور ج ٤ ص ١٦٨ فما بعدها .

وتشير إلى وجهة نظر الدوائر الإسلامية إذ ذاك حول هذه المسألة دعوى المقدسى : أن أسمى درجات العربية كان فى فارس ، أى فى أرض غير عربية اللغة ، لأن الناس هناك كانوا يبذلون اجتهادا عظيما فى دراستها .

وفى ذلك العهد كان يعد فصيحاً من سلم من الخطأ فى مراعاة الإعراب والتصريف ، ولاحظ قواعد العربية فى صوغ الأفعال والأسماء ، وتجنب العبارات الدارجة فى اختيار الألفاظ . وإذاً فقد صارت الفصاحة وسلامة اللغة أمراً محصوراً فى الثقافة المكتسبة ؛ ومن هنا غدت حذقا فنياً يحسنه المرء على تفاوت كبير فى المراتب والدرجات .

وكان لا يعد إذ ذاك من اللحن اللغوى إلا الاصطدام الشنيع مع قواعد النحو ؛ فلم يعد ينشأ اللحن من الاختلاف بين الاستعمال اللغوى القديم والحديث فى مجارى التعبير الحىّ .

وكثير من التصادم مع روح العربية الفصحى القديمة يواجهنا عند جميع المنشئين فى أوائل العصر الإسلامى الأوسط ، لأن صلب الأسلوب فى لغتهم قد صار فعلا من العربية المولّدة .

وحتى لغة المتنبى (٣٠٣ — ٣٥٤ هـ) التى تأثرت تأثراً قوياً بمُثُل لهجات الأعراب — قضى الشاعر ما يزيد على سنتين وهو صبى من سنة ٣١٣ إلى ٣١٥ هـ فى قبيلة كلب فى أرض السماوة (١) — تحمل سمات من العربية المولّدة .

فهو يتحدث عن رُكَب الإبل (٢) ، فيجمعها على صيغة : ركباتها ، بدلا من صيغة التثنية : ركبتيها . وهذا لا يصح توجيهه ، كما ذهب إليه الواحدى ، بالإشارة إلى آية ٤ من سورة التحريم : [إن تتوبا إلى الله فقد صغت] قلوبكما ؛ ولا إلى البيت الذى يتكرر الاستشهاد به كثيرا : ظهراهما مثل ظهور التُرسَيْن (٣) . إذ أن

---

(١) Blachére EI III 844

(٢) انظر ابن الأثير : المثل السائر ص ١١

(٣) انظر فهارس الشواهد لفيشر .

التثنية فى هاتين الحالتين مفهومة من تثنية الضمير المضاف إليه ، أو من الاسم المثنى المضاف إليه[(١)] . بل هو اتجاه إلى الظاهرة الملحوظة اليوم فى كثير من اللهجات العربية ، وهى مطاردة الجمع للمثنى وتغلبه عليه .

وشبيه بهذا استعمال لفظ الجمع : أيدى ، بل وجمع الجمع : أيادى[(٢)] ، فى مكان المثنى . ففى عهد الصفدى[(٣)] (٦٩٤ — ٧٧٤هـ) كانت جمهرة علماء اللغة تكتب فى رسائلها الخاصة : المملوك يقبل الأيادى الكريمة ؛ وكان الإحساس اللغوى عند الصفدى تجاه المثنى ضعيفا بحيث عدَّ وضع لفظ : الأيدى ، بدلا من : الأيادى ، فى ذلك التعبير الخاطىء ، وسيلة كافية لتصحيحه ، ووضعه فى قالب فصيح .

ومن العربية المولّدة — عدا ما ذكر — عند المتنبى ، استعماله فعل المطاوعة : انهوى ، بمعنى هوى وسقط[(٤)] ؛ وتعديته فعل : بعث ، بالباء وإلى جميعا :

[فآجرك الإله على عليـل بعثت إلى المسيح به طبيبا[(٥)]]

واستعماله لفظ : رؤيا بمعنى الحلم ، بدلا من الرؤية ، بمعنى النظر[(٦)] ، يرجع إلى أن علامات التأنيث ، كالتاء والألف المقصورة ، والممدودة ، قد اختلطت ، كما فى الكلام الدارج فى اللهجات الحديثة .

والظاهر أن هذه الظاهرة بدت مبكرة فى هذين اللفظين : رؤيا ورؤية[(٧)] ،

---

(١) انظر الشواهد والأمثلة التى ذكرها : Reckendorf Arab Syntax S, 138

(٢) يراد من الأيادى ، فى اللغة العربية القديمة غالبا : النعم والحسنات . وانظر : Nöldeke, NBSS 114 Anm 4.

(٣) انظر العاملى : كشكول (١٢٨٨هـ) ص ٢١٥ .

(٤) شرح الديوان للواحدى (Diet) ص ٤٦٤ وانظر : الخفاجى : شرح درة الغواص ص ٦٣ وانظر : Fleischer I 173

(٥) من القصيدة ص ٩٩ فى شرح الديون ج ١ (طبع بولاق ١٢٨٧ هـ) ؛ وانظر الحريرى : درة الغواص ص ٢١ .

(٦) مطلع القصيدة ص ٤١٥ من شرح الديوان ج ١ ؛ وانظر الحريرى : درة ص ٩٥ .

(٧) بل ساق ابن برى (المتوفى ٥٨٢) بيتا للراعى ، ذكره الشهاب الخفاجى فى شرح درة الغواص ص ١٤٢ :

فكبر للرؤيا وهش فؤاده وبشر نفسا كان قبل يلومها

انظر الموضع المذكور .

فمفسرو القرآن من أهل السنة يعدون لفظ : رؤيا ، فى آية ٦٠ من سورة الإسراء ، بمعنى المشاهدة الحقيقية ، عن نظر فى العلانية ، لا بمعنى الحلم (١) .

ويقرن الشاعر أنْ الناصبة بالفعل المضارع المرفوع ، كآخرين ممن سبقه (٢) ؛ كذلك يصوغ أفعل التفضيل من أسماء الألوان (٣) : لأنت أسود فى عينى من الظلم .

أما استعماله أفعل التفضيل من الرباعى حيث قال : أذهب للغيظ (٤) ، فقد وجد ما يشبهه فى القرآن والشعر القديم (٥) ؛ وإن طالب المتزمتون فى اللغة بتغيير ذلك إلى أشد ذهابا للغيظ ، لزيادة الإيضاح والبيان .

وفى مثل هذه الأحوال لا يتيسر الفصل فى إرجاع الأمر إلى الاستعمال اللغوى للعربية المولّدة ، أو إلى رخصة الشعر جرياً على طريقة شعراء اللغة القديمة .

وهكذا يتكرر فى شعر المتنبى ما عابه النحاة القدامى ، وإن قاله الكميت ، وأجازه ثعلب ، وهو استعمال : أبرق (٦) ، (بمعنى التهديد المجازى) ، واستعمال لفظ : ذو ، مع الضمير ، بمعنى النفس (٧) ، له شبهة فى بيت الكميت (٨) ، كما فى النثر أيضاً (٩) .

وإدخال أداة الاستثناء : إلاَّ ، على الضمير المتصل (١٠) ، هو وإن كان لم يرد

---

(١) انظر الواحدى فى شرح ديوان المتنبى ص ٢٤١ (نشر Dieti) ، وانظر كتب التفسير فى الآية المذكورة .

(٢) انظر : Diet فى الشرح المذكور ص ٥٠٣ وملاحظته ص ٧١ .

(٣) انظر : Diet ص ٥٢ ، والحريرى : درة الغواص ص ٣١ ؛ خزانة الأدب ج ٣ ص ٤٨١ و ص ٤٨٤ — ٤٨٦ .

(٤) شرح الديوان للواحدى ص ٣٣ .

(٥) انظر : Fleicher, Beitraege 4, 249 - 252, Reckendorf Syntax, S. 95 Anm. 1

(٦) انظر ص ١٧ من شرح الواحدى المذكور .

(٧) ذواتها ، فى مطلع القصيدة ص ١٥٧ من شرح العكبرى على الديوان ج ١ .

(٨) انظر ابن يعيش ص ٣٥٥ و ص ٦٣ .

(صبحن الخزرجية مرهفات   أبان ذوى أرومتها ذووها)

وقد نسب هذا البيت إلى كعب بن زهير — دون حق — فى أشعار الحماسة وفى ابن يعيش أيضا .

(٩) انظر البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٢ س ٧ (نشر دى غويه) .

(١٠) إلاك ص ١٣٢ شرح الديوان للعكبرى ج ٢ ؛ وانظر الحريرى : درة ص ١١٠ .

فى الشعر القديم ، فإن الفراء (المتوفى ٢٠٧ هـ) وضع يده على بيت استشهد به على ذلك[١] .

والجمع الشاذ : آخاء[٢] ، أى إخوة ، المصوغ على مثال آباء ، كان معروفاً عند يونس[٣] ، أستاذ سيبويه .

والجمع غير القياسى : رُوس[٤] ، بدلا من رءوس ، استشهد عليه الواحدى ببيت ، هو وإن نسبه خطأ لامرىء القيس[٥] ، فإنه أقدم من المتنبى على كل حال

كذلك ترخيم اسم العلم : عمرو بن حابس ، إلى عمرو بن حاب ، فى غير النداء[٦] ليس أمراً عادم النظير[٧] وإذا استعمل المتنبى لفظ : حالِل[٨] ، فى الشعر ، بدلا من لفظ حال ، بالتشديد ، الثقيل فى الاستعمال الشعرى ، فإنه يلجأ فيه إلى رخصة الشعر التى كان يلجأ إليها الشعراء فى مختتم القرن الأول[٩] .

والأمثلة التى ذكرت أخيراً تنقلنا إلى الحالات التى يتجلى فيها أسلوب الشاعر الخاص فى اختيار الألفاظ وصوغ الكلام . ويتعلق بهذا إيثاره أسماء الإشارة : ذا ؛ ذى ؛ هذا ؛ هذى ؛ بدلا من : هو والذى ، وإغراقه فى ذلك حتى ذكر فى بيت

---

(١) خزانة الأدب ج ٢ ص ٤٠٦ .

(٢) انظر ابن عباد : الكشف عن مساوى المتنبي ص ١٦ ، وابن رشيق : العمدة ج ٢ ص ٢٠٥ (وفى الديوان شرح الواحدى : كل آبائه ، بدلا من : كل آخائه) وفى شرح العكبرى على الأصل .

(٣) انظر تاج العروس ج ١٠ ص ١١ .

(٤) انظر شرح الواحدى ص ٩٥ .

(٥) انظر الملحق ص ٢٨ (آلورد) .

(٦) شرح الواحدى المذكور ص ٥٩٢ .

(٧) انظر خزانة الأدب ج ١ ص ٣٨١ .

(٨) انظر شرح الواحدى ص ١٧٩ ، وابن الأثير : المثل السائر ص ١٨٤ .

(٩) استعمل قعنب بن أم صاحب لفظ : ضننوا (مختارات ابن الشجرى ص ٨) ؛ والعجاج لفظ : أظلل (أرجوزة رقم ٢٩) ؛ وانظر نوادر أبى زيد ص ٤٣ ؛ سيبويه ج ١ ص ١٠ (١٣١٦ هـ) ؛ الموشح ص ٩٤ ؛ ويوجد مثل فى النثر عند القالى : أمالى ج ١ ص ٢٥٩ (الطبعة الثانية) ، وآخر فى حديث ؛ انظر البكرى : لآلى ص ٥٧٦ .

واحد إلى جانب ذا ، ذلك اللفظ المهجور تماما ، وهو : اللَّذْ ، بدل الّذى[١] ؛ واللفظ الدارج : هو بالإشباع بدلا من فتح الواو[٢] .

وفى مطلع القصيدة السادسة والخمسين ، الذى كثر حوله الجدل :

أُحاد أم سُداس فى أُحاد لُيَيلتُنا المنوطة بالتنادى

أُخذ عليه[٣] — بحق — استعماله لفظ : أحاد ، التقسيمى — مثلا : جاءوا أحاد أى متفرقين — وسداس أيضاً ، بدلا من اسم العدد المحض : واحدة ، وست . يضاف إلى هذا أن هذه الصيغة إنما جرى بها الاستعمال فى أسماء العدد الأربعة الأولى ، وإن أجاز الكميت لنفسه لفظ : عشار[٤] . وفى نفس البيت عُدّ لفظ : لُيَيلة خطأً من حيث الصيغة والدلالة ؛ إذ الصواب يقتضى : لُيَيلية[٥] ؛ ثم إنه وإن كان لفظ : دويهية معناه الداهية العظمية ، فلا يقتضى هذا استعمال كل تصغير بمعنى التعظيم . ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أيضا أن حذف أداة الاستفهام فى هذا البيت من ظواهر العربية المولّدة .

كذلك خاصّة أخرى من خصائص أسلوب المتنبى ، وهى تأليفه للجمل والألفاظ على وجه اختيارى إرادى متصنع للغاية ، تعد أمارة على طابع العربية المولّدة فى حقيقة أسلوبه اللغوى . وفى الواقع يناسب العربية المولّدة — لفقدانها الإعراب — نوع ثابت مصنوع من التأليف . وعلى النقيض من ذلك تأليف الكلام فى اللغة الفصحى القديمة ، فهو فيها حرّ وإن لم يخل من تقييد — بعض الأمثلة على فساد التأليف وفاها النقد حقها من التشهير[٦] — . أما الاختيار الذى يؤلف المتنبى نظمه على مقتضاه سقيما مضطربا ، فيتجلى فيه عجزه عن التعبير الموافق لروح العربية القديمة ؛ مثل تقديم

---

(١) ابن رشيق : عمدة ج ٢ ص ٥٧ س ٦ .

(٢) انظر الديوان ص ٢٠١ (نشر : Diet) .

(٣) انظر شرح الواحدى والعكبرى على الصلة المذكور ، والحريرى فى درة الغواص ص١٤٨ .

(٤) انظر الأغانى ج ١٣ ص ١٤٥ ؛ ابن قتيبة : أدب الكاتب ص ٥٩١ .

(٥) انظر : Fleischer, Beiträge 4, S, 241

(٦) انظر المبرد : كامل ص ١٨ ؛ المرزبانى : موشح ١٠٢ — ١٠٤ ؛ سيبويه ج ١ ص ٩ (Derenburg)

المسند إليه فى الجملة الفعلية ، فهو ظاهرة خاصة بالعربية المولدة ، كذلك إضافة ضمير الإسناد المتصل إلى الجملة الفعلية أيضاً دون حصر ولا تأكيد ، كما[١] فى البيت المشهور[٢] .

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وعلى الرغم من ذلك كله ، لم تسترع هذه الظواهر المخالفة للفصحى فى شعر المتنبي انتباه معاصريه كثيراً ، بله الإحساس بأنها من اللحن . ويدل على ذلك جدل الصاحب بن عباد فى الرسالة التى كتبها فى تحقير المتنبي : الكشف عن مساوى شعر المتنبي[٣] . وقد كان الصاحب بن عباد دعا الشاعر إلى زيارته بالرى ، حينما جاء إلى شيراز سنة ٣٥٤ هـ ، ولكن الشاعر الأبىّ النفس لم يره أهلا لذلك ، فانتقم الصاحب لنفسه فى رسالته المذكورة من أجل هذه الإهانة .

والرسالة فى صورة خطاب إلى خبير بالشعر طلب إلى الصاحب أن يعرب — كتابة — عن رأيه النقدى فى وضع المتنبي عن مستواه الرفيع . وهو يتظاهر بإبعاد نفسه عن مظنة التحامل فى الحكم — وأى عالم لا يهفو ، وأى صارم لا ينبو ، وأى جواد لا يكبو — وأنه لا يبغى إلا حقه فى تعليل حكمه ، وهو حق تمسك به محتذياً حذو الوزير العظيم : أبى الفضل بن العميد ، الذى ساق الصاحب رأيه الحرّ فى البحترى وأبى تمام ؛ ثم ذكر الصاحب أن الدعوى الخاطئة ، من أن علماء اللغة وحدهم هم الإخصائيون الذين يحذقون النقد ، دعوى على غير أساس ، مشيراً إلى

---

(١) ص ٢٠٠ فى شرح العكبرى ج ١ و ص ٥٣٣ فى شرح الواحدى الآنف .

(٢) أكثر ما أخذه المؤلف على شعر المتنبي تبع فيه رأى النحاة البصريين ، وهم الذين يقصدهم دائماً بوصف المتزمتين فى اللغة ، ولكن المتنبي قد عرف بمتابعة الكوفيين ، وهم يعتمدون كل ما ورد عن العرب بوجه من الوجوه . وقد عرف أنهم أوسع رواية من البصريين ؛ على أن كثيراً مما أخذه المؤلف على المتنبي ورد فى بعض القراءات القرآنية ، فضلا عن النصوص العربية .

(٣) طبع فى القاهرة (١٣٤٩ هـ) واشتمل الجزء الأول من اليتيمة للثعالبى على مضمون الكتاب المذكور (انظر ص ١٠٥) .

اختيارات ابن الخياط التى جمعها دون ذرة من الذوق الأدبى[١] . وبعد أن أزال الصاحب بهذه المقدمة الطويلة ، التى تعدل ثلث هذه الرسالة القصيرة ، هيبة القارئ ورهبته تجاه الفن الرفيع ، وأعدّه فى مهارة وحذق للجرأة على نقد الشعراء ، خلص أخيراً إلى موضوعه ، بادئاً بمآخذه على أبيات متفرقة للمتنبى (ص ١١ — ٢٦) دون جرى على نظام ثابت .

وهو يتهمه كثيراً بالسرقة ، ويرميه بفساد الحس ، وسوء أدب النفس[٢] فى رثيته لأمّ سيف الدولة ، ويسخر من تعقيد أسلوبه وعسرفهمه ، بحيث لايعد أسلوب أبى يزيد البسطامى المشهور بالتعقيد شيئاً إليه[٣] .

كما يغمز إلى أشعاره الحكمية التى حظيت بإعجاب الكثيرين (ص ١٦ س ١١) ويحط من قيمة عدد من أفخم مطالعه ، ويهزأ من ثقة الشاعر بنفسه ، ويتندّر بأسلوبه ، بحيث لايتورّع ابن عباد أيضا عن إساءات للفهم مقصودة عن خبث ونكاية .

وفى هذا يجد الصاحب فى لوازم المتنبى وخصائص لغته مدعاة قوية للهزء والسخرية مثل ميل المتنبى إلى تكرير اللفظ ، وولعه بترديد طرق التعبير — ذكر فى بيتين ستة عشر وصفاً متتاليات[٤] — والتعسف فى الاطراد[٥] ، والتفاصح بالألفاظ النافرة والكلمات الشاذة ، مثل كلمة : التوراب ، بدلا من التراب (ص ١٤ س ٦) ، وكلمة : جَفَخت[٦] ، أى فخرت (ص ٢٥ س ١٦) .

بيد أنه ، على الرغم من أنه لم يدع فرصة تمرّ دون النيل من الشاعر والسخرية

---

(١) كان أستاذ الصاحب بن عباد ومات ٣٢٠ هـ ؛ انظر الفهرست س ١٢١ ؛ ياقوت : إرشاد ج ٦ س ٢٨٣ .

(٢) انظر فى هذه المرتبة : العمدة لابن رشيق ج ٢ س ١٢٤ ؛ ابن الأثير : المثل السائر س ٤٩٦ .

(٣) انظر الرسالة الحاتمية (نشر البستانى بيروت ١٩٣١) .

(٤) انظر فى التكرار العمدة لابن رشيق ج ٢ س ٥٩ فما بعدها ، وفى الترديد العمدة أيضا ج ٢ س ٢٤ فما بعدها ، وانظر ابن الأثير المثل السائر س ١٨١ ، ١٨٣ .

(٥) انظر ابن رشيق : العمدة ج ٢ س ٦٨ .

(٦) انظر ابن الأثير : المثل السائر س ٩٨ .

منه ، بل وعدّ حرية الشعر عليه خطأً فاحشاً ، لم يوجه إليه تهمة اللحن فى اللغة أصلا ، مع أن فى الأبيات التى ساقها كثيراً من الأمثلة على اللحن فى الاستعمال اللغوى . وحتى فى هذا البيت :

أحاد أم سداس فى أحاد لُيَيلتنا المنوطة بالتنادى

الذى يدعو لحنه إلى النقد دعاء صريحاً ، لم يعلق الصاحب (ص ٢٠) إلا بأنه من عيون قصائده التى تحير الأفهام ، وتفوت الأوهام ، وتجمع من الحساب ما لا يدرك إلا بالأرتماطيق وبالأعداد الموضوعة للموسيقى ، وتصور كلام الحكل ، ورطانة الزط . وكذلك فى البيت :

أطعناك طوع الدهر يا ابن ابن يوسف لشهوتنا والحاسدو لك بالرغم

اقتصر على تخطئة التركيب : الحاسدو لك .

وفى تعرضه للناحية اللغوية لا يتناول إلا ما تعلق بالأسلوب ؛ فهو يجد كلمة : جبرين (ص ٢٠ س ١) ، بدلا من جبريل[1] ، التى يستعملها المتنبى لضرورة الشعر ، غريبة بغيضة ؛ كما يرى (ص ١٩ س ١٥) أن حذف كلمة : الدُّنا ، جمع دنيا ، فى شعر المتنبى ، خير من ذكرها ، ويتساءل فى سخرية من البيت :

شديد البعد من شرب الشَّمول تُرُنْجُ[2] الهند أو طلع النخيل

هل استهلال الأبيات أحسن ، أم المعنى أبدع ، أم قوله : ترنج ، أفصح ؟ .

وهذا التساهل والتجاهل التام الذى يبدو من ابن عباد تجاه اللحن اللغوى فى شعر المتنبى ، هو ظاهرة عامة للموقف الذى أخذه الأدباء فى أوائل العصر الإسلامى الأوسط من مسألة الفصاحة وسلامة اللغة ؛ فبين الحين والآخر يتذكر أحد علماء اللغة ، على ضوء معارفه عن أدب القواعد القديمة ، أن هذا التركيب أو ذاك خاطئ فى قانون اللغة الفصحى البدوية ؛ ولكن مثل هذه الملاحظات تأخذ تدريجاً

(١) انظر فى هذه الصيغة وما شاكلها (إسرائين ، إسرافين ، إسماعين الخ) القالى : أمالى ج ٢ س ٤٤ (طبع دار الكتب) .

(٢) ترنج لغة فى : أترج ، انظر أدب الكاتب لابن قتيبة ص ٤٠١ (نشر : Grünert)

فى الندرة عند أدب الشروح ، حيث يأخذ تفسير الشعراء هنا طابع الذوق الأدبى الذى لم يكن يصدر فى حكمه — بعد — عن القواعد والنحو ، بل عن مقاييس الأسلوب بوجه خاص .

وكذلك من نتائج ذلك الطابع الصناعى الفنى للغة الأدب ، احتياج مصنفات الشعر الرفيع ، والنثر الفنى البديع — فى ذلك العصر — إلى الشرح والتفسير ، حتى انتشرت لدى الرأى العام فكرة أنه كلما تعسر فهم الأثر الأدبى الفنى ، رجح وزنه وعلا قدره .

والمتنبى لم يكن يقتصر على إنشاد شعره فحسب ، بل كان يشفع ذلك أيضا بالشرح والتوضيح . ومن رواته ابن جنى السالف الذكر ، الذى يروى أن الشاعر كان يلقى وزناً كبيراً لحكمه ، بحيث كان يحيل سائليه فى مختلف الأحوال عليه . وقد ذُكر من الأمثلة على ذلك[١] ما ورد فى شعر المتنبى من تصغير لفظ : إنسان ، على : أُنَيْسيان[٢] ؛ وقوله[٣] :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا

بنصب المضارع — فى ظاهر الكلام — بعد : لم الجازمة[٤] .

ومهما يكن من أمر ، فمن الثابت أن ابن جنى كتب شرحين لديوان المتنبى[٥] ، أحدهما وهو : الفَسْر لشرح ديوان أبى الطيب ، مقصور فى جملته على شرح معانى

---

(١) ياقوت : إرشاد ج ٥ ص ٢٥ .

(٢) انظر تاج العروس ج ٤ ص ١٠٢ .

(٣) ابن خلكان ج ١ ص٥٦٣ ؛ وذكره الدميرى : حياة الحيوان ج ١ ص٤٦١ (١٣٤٧هـ)

(٤) فى هذه الضرورة الشعرية التى جرى استعمالها فى كثير من شعر الأوائل (الأعشى قصيدة ١٧ بيت ٢٠ ؛ العجاج رقم ٥١ بيت ١٠ وغير ذلك ، انظر فهارس الشواهد لفيشر ص ٢٥٢) يحمل على أنه أبدل الألف من نون التوكيد الخفيفة فى حالة الوقف . نعم يزعم اللحيانى (ابن الأنبارى : نزهة ص ٢٣٦) أن نصب المضارع بعد لم ، لهجة من لهجات العرب ، وروى قراءة شاذة فى : ألم نشرح لك صدرك ؛ بفتح الفعل بعد لم ! ولكن ابن جنى فى المحتسب رفض هذه القراءة ولم يسوغها .

(٥) الفهرست ص ١٢٨ .

الألفاظ ، على حين يعنى الآخر ، كما يعبر عن ذلك عنوانه : معانى أبيات المتنبى ، بما يحتويه شعره من أفكار .

ولم يكن ابن جنى على الرغم من ذلك — إذا أخذنا بحكم الواحدى فى مقدمته لشرح ديوان المتنبى ، المكتوب ٤٦٢ هـ — أبا عذرتها فى تقريب فهم الأشعار الحديثة للقارىء . إذ يفترض شرح مثل هذه الأشعار — زيادة على الدراية العميقة باللغة والموضوع — تذوقا لفنون الأدب ، وإحساساً بالجمال الفنى ، وحكما ثابتاً صحيحاً . على حين أن ملكة ابن جنى كانت ذات وجهة واحدة ، هى دائرة علم اللغة . ولذلك كان يرى عمله ينحصر فى توضيح العبارات التى يستعملها الشاعر ، وبيان عملها النحوى . وهو يرخى العنان فى ذلك كثيرا لنزوعه إلى بسط دقائق النحو العربى ، بحيث يشتمل شرحه على القسم الأعظم من النوادر اللغوية التى جمعها أبو زيد ، وعالج المسائل التى أثارها سيبويه .

وقد أورد كتابه لشرح الظواهر اللغوية النادرة (الغريب) نحو عشرين ألفاً من الشواهد (يحتوى ديوان المتنبى بأكمله على ٥٤٠٠ بيت) ؛ كما حفل بمجموعة كبيرة من الأقاصيص المقفرة التى لا تساعد أدنى مساعدة على فهم شعر المتنبى . وعلى الرغم من ذلك ينقص ابن جنى الفهم العميق ، والنفاذ فى دائرة المعانى . فمثلا يتحدث المتنبى ، فى ذلك الأسلوب التصويرى المألوف فى شعر الغزل ، عن مطر الدموع الذى يسكبه المحب المغرم ، إذا أظهرت الحسناء المتدللة المتجافية أسنانها البراقة عند الابتسام :

تبلّ خدىّ كلما ابتسمت   من مطر برقه ثناياها

فيفسر ابن جنى هذا المطر بريق الحبيبة الذى يتطاير من فمها إذا ضحكت[1] .

وهذا العجز عن الإحساس والشعور بمقاصد الشعر ومراميه يزيد من بخس شرحه وخفة وزنه ، إذا لاحظنا أن مثل هذا الديوان الموسوم بطابع البلاغة القوى ، يتوقف

---

(١) انظر ابن الأثير : المثل السائر ص ٢٢٩ .

هضمه ، والنفاذ إلى عالم تفكير شاعره ، على الفهم الذى لا يتيسر بسهولة لاستعاراته ومجازاته وأخيلته الكثيرة ، التى تحجب أفكاره أكثر مما تكشف عنها الغطاء .

ومن هنا أيضاً يتجنب شرح ابن جنى ، اللاصق بمفردات الألفاظ ، جانب المعانى ، وتقدم الأفكار والابتكار فيها ، والبناء الداخلى للشعر . وبهذا يغفل الطابع الخاص الذى يميز الشعر العربى المحدث تميزاً أساسياً عن شعر الأعراب . فى هذا الأخير ربما جاز اكتفاء الشارح بتفسير بعض المفردات ، وعبارات الكلام ، وتوضيح غرض الشاعر ومرماه بذكر ألفاظ دالّة مختصرة ، مثل : مديح ، هجاء ، فخر ، أو نحو ذلك . أما فى شعر المحدثين ، ولا سيا شعر المتنبى — بوجه خاص — فإن بناء الشعر وتكوينه الداخلى يلعب دورا عظيما ، بحيث لا يجوز إغفاله فى الشرح والتفسير .

فما يدل على أن القصيدة بتمامها كانت ماثلة أمام نظر المتنبى ، من حيث هى وحدة تامة الأجزاء عند الشروع فى إنشائها ، ما يروى من أنه كان إذا نظم قصيدة يتغنى بأبياتها بيتاً بيتا ، وكلما توقف مرة بدأ يتغنى من أول القصيدة ؛ وكان يبذل جهداً كبيراً فى الانتقال من جزء إلى آخر .

وقد اشتهرت بعض قصائده لإبداعه ، وابتكاره فى أبيات مطالعها ؛ على حين حظيت بعض قصائده الأخرى بالإعجاب بحذقه فى أبيات خواتيمها . ولكن الإلمام بمثل هذه الدقائق لم يكن من فنّ ابن جنى ولا طبيعته .

ولم يغفل النقاد عن تبيان عيوب شرحه ؛ فقد حمل عليه معاصره ابن فُورَجَه [1] حملة شعواء فى كتابين يطابق عنوانهما موضوعهما : الفتح على أبى الفتح ؛ والتجنى على ابن جنى ؛ ولم يتورع فى ذلك ، كما يشير إليه نص من كتاب الفتح [2] ، عن

---

(١) ياقوت : إرشاد ج ٧ ص ٤ ؛ سيوطى : بغية ص ٣٩ ؛ وانظر : أحمد الحق : فريدة العصر ص ٧١٥ — ٧١٨ ؛ وتسميته : ابن فورجه ، التى ذكرها ياقوت ، هى فى الظاهر صيغة أخرى إلى جانب : ابن فورك .

(٢) ياقوت : إرشاد ج ١ ص ١٢٥ .

طعنه بتهم تخدش الشرف . ويشهد له الواحدى ، الذي قرأ الكتابين[١] ، بأنه — غالباً — محق فى وجهة النظر الصحيح .

كذلك كتب أبو حيان التوحيدى (المتوفى ٤٠٠ ﻫ) رداً عليه بعنوان : الرد على ابن جنى فى شعر المتنبى[٢] .

كما أن الشريف المرتضى (٣٥٥ — ٤٣٦ ﻫ) نقيب الأشراف العلوى الذائع الشهرة ، اشترك فى النزاع بكتابه : تتبع الأبيات التى تكلم عليها ابن جنى[٣] .

وآخر أيضاً ، هو أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهانى ، صنّف للبويهى بهاء الدولة (حكم ٣٧٩ — ٤٠٣ ﻫ) تهذيبا لشرح ابن جنى الكبير فى قالب مصحح مختصر[٤] .

وأغلب الظن أن ابن وكيع (المتوفى ٣٩٣ ﻫ) قد حمل أيضاً على ابن جنى ، فى كتابه : المنصف ، الذى عالج فيه مسألة ابتكار المتنبي ومتابعته لمن سبقه ، مع نقد وتحقيق ؛ لأن ابن جنى ألّف ما يسمى : كتاب النقد على ابن وكيع فى شعر المتنبي وتخطئته[٥] .

وعلى كل حال يبدو أن ابن جنى احتفظ بأسلوب الشرح الذى اختاره ، على الرغم من جميع النقد الذى وجه إليه بسببه ؛ إذ أنه ألف كتاباً خاصاً فى شرح بيت واحد نظمه عضد الدولة البويهى ؛ وألّف أيضاً فى العقد الأخير من حياته شرحاً لأربع مراثٍ من شعر تلميذه : الشريف الرضى (٣٥٩ — ٤٠٦ ﻫ) عنوانه : تفسير العلويات ، فى أربعة أجزاء ، لكل مرثية جزء[٦] .

---

(١) ديوان المتنبي ، بشرح الواحدى (نشر : Dieterici) ص ٣ .

(٢) ياقوت : إرشاد ج ٥ ص ٣٨١ .

(٣) انظر ياقوت : إرشاد ج ٥ ص ١٧٤ ؛ ابن حجر : لسان الميزان ج ٤ ص ٢٢٤ ، وقد عرف هذا الكتاب فذكره بعنوان : الرد على ابن جنى فى شرح ديوان المتنبي . وانظر الكنتورى : كشف الحجب ص ٩٧ .

(٤) وقد أخذت عنه ترجمة المتنبي المستفيضة فى خزانة الأدب ج ١ ص ٣٨٢ — ٣٨٩ .

(٥) ياقوت : إرشاد ج ٥ ص ٣١ .

(٦) ياقوت : فى الموضع السالف .

هذا الطابع ، العلمى — الأدبى ، للشعر الفنى ، الذى جعل ذلك الشعر وقفاً ، وحقاً ممتازاً لشرذمة قليلة من علية المثقفين الضليعين ، ازداد قوة على قوته فى القرن التالى ؛ بحيث قرن أبو العلاء المعرى بعض دواوينه بالشرح والتفسير ، تيسيرا لفهمها على القارىء .

فأشعار شبابه فى سقط الزند ، التى تنم على تأثر قوى بالمتنبى ، والتى صيغت فى أسلوب حافل بالأخيلة والمجازات ، احتاجت إلى شرح سقط الزند .

كذلك النثر المسجوع في كتابه : الفصول والغايات ، الذى أنشأه فى سن متأخرة كما يظهر ، والذى قال فيه الرّحّالة الفارسى : ناصرى خسرو (٣٩٤ — ٤٥٢/٣ هـ) حينما زار الشاعر سنة ٤٣٩ هـ : إنه بقى غير مفهوم فى القسم الأعظم منه حتى لتلاميذ الأستاذ أنفسهم .

(١١)

ظهور اللغة الدارجة فى أشعار

القرن الرابع الهجرى — العاشر الميلادى

يحمل شعر الفرص والمناسبات طابع العربية المولّدة ، بمقدار أعظم وأظهر كثيراً من الشعر الفنى الرفيع ؛ كما تعرض مادة غزيرة ، من الشواهد على ذلك ، المختارات المشهورة من أشعار القرن الرابع ، التى تشتمل عليها يتيمة الدهر للثعالبي (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ) .

ويقدم الفصل المعقود لابن الحجاج (المتوفى سنة ٣٩١ هـ) تصويراً خاصاً جم الفوائد[١] .

هذا الشاعر الموهوب ، وإن كان زَمِر الخلق والمروءة ، والذى ينتمى إلى أسرة رفيعة من ذوى الجاه والمناصب ، والذى شغل منصب « المحتسب » ببغداد ردحاً من الدهر فى ظل بختيار البويهى (حكم ٣٥٦ — ٣٦٧ هـ) ، ولكنه آثر أخيراً أن يبتزّ الأموال ، بأهاجيه وملحه ، من ذوى المناصب والرتب ؛ هذا الشاعر يعد أنبه ممثلى أسلوب المجون والسخف .

وهذه وجهة فنية تحلّلت من جميع القيود المفروضة على صناعة الفن التقليدى ، واختارت — على معارضة متعمدة للشعر الرفيع — الأسلوب المبتذل الدّارج ، بما فيه من ضعة ، وبذاءة ، وقذر ، ووضر .

وفى معارضته لوسائل الأسلوب القديم ، يدعى ابن حجاج النبوّة فى السخف ، ويطلب إلى معشر السخفاء أن يؤمنوا بالمعجزات التى لا تجارى فى أبياته العارية من الحياء[٢] .

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢١١ — ٢٧٠ .
(٢) اليتيمة ج ٢ ص ٢١٢ فما بعدها .

وقد طابق الموضوع المبتذل الدارج أسلوب مبتذل دارج ؛ إذ تتجنب الناحية اللفظية من ذلك الشعر الماجن — فى الأعم الأغلب — كل مختار دقيق من العبارات الجارية فى الأسلوب الرفيع مادام هو لايعارضه ولا يجاريه — ومادام لايعارض وسائل الأسلوب فى الشعر القديم — وهو يولع بدلا من هذا باستخدام لغة العامّة ، متنزلا إلى لهجات الشحاذين ، والعيّارين ، والخلديين ، والمكدين ، ببغداد [١] .

ويرجع إلى هذا الدخيل من لغة بغداد الدارجة ، مايكثر فى أشعاره من الألفاظ الفارسية ، مثل : [٢] لقلق (ص ٢٤٦ س ١٦) وهو طائر ؛ والفصيح : لقلاق ؛ وهو لفظ دارج ، وأخذ استعماله [٣] على المتنبى [٤] : [يصيح الحصى فيها صياح اللقالق] ؛ وجُلّنار [٥] وهو الرّمان (ص ٢٦١ س ١) ؛ بلّور — فى الفارسية الحديثة : بِلُورْ — (ص ٢٤٣ س ١٩) ؛ دَوْرق — فى الفارسية الحديثة : دُورَه — (ص ٢٤٦ س ١٥) ؛ نَسكْسود [٦] : اللحم المملح (ص ٢٥٢ س ١) ؛ سِكْباج [٧] : لحم مطبوخ على طريقة خاصة (ص ٢٢٠ س ١) ؛ وفي البيت (ص ٢٤٩ س ١٠) وردت الكلمات : دِكْشاب أى ليلة أمس ؛ ودُوغَباج ، أى اللبن الحامض ؛ وزِيرَباج ، أى مرق اللحم .

---

(١) العيار : الذكى الكثير التطواف ، وأطلق على الدجال الواسع الحيلة . والخلدى : نسبة إلى حى فى بغداد ، اشتهر بكثرة أهل الحيل على الارتزاق . والمكدى من الكدية وهى شدة الدهر ، ويراد به أيضاً الفقراء المتسولون .

(٢) ترجع أرقام الصفحات المذكورة إلى يتيمة الدهر (طبع دمشق ١٣٠١ هـ) .

(٣) ابن الأثير : المثل السائر ص ١٠٨ .

(٤) شرح العكبرى على الديوان ص ٤٨٩ (بولاق) .

(٥) فى الفارسية الحديثة : جلنار ، بسكون اللام وتسمى به النساء أيضاً ، وكان اسم أم بشار ابن برد جلنار (انظر الأغانى ج ٢٠ ص ٧٤) .

(٦) يرد هذا اللفظ كثيراً فى كتاب المقدسى : أحسن التقاسيم ، انظر المعجم الجغرافى فى هذا اللفظ : Dozy

(٧) فى الفارسية الحديثة : سكبا ؛ وسكباجة كثير فى كلام الجاحظ ، وذكر فى تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٣٥٩ س ١٧ ، والأغانى ج ١٠ ص ١٢٥ س ٧ ، وورد كتاب فى الأطبخة بعنوان : كتاب السكباجة لجحظة وآخر لعبيد الله بن أبى طاهر ، انظر الفهرست ، وورد لفظ سكباج لقباً ؛ تاريخ بغداد ج ٣ ص ٣٥٧ .

وتكثر العبارات الفارسية بوجه خاص فى قصيدته فى غزل المذكر (ص ٢٦٤ س ٧ — ١٥) التى يسوق فيها حواره مع غلام أعجمى .

وفى ص ٢٤٨ س ١٩ ، يستعمل لفظ : هَمْ ، بمعنى أيضاً ، الذى عابه أبو خليفة — من قبل — فى القرن الثالث ، والذى أنكر استعماله — من بعد — كل من الحريرى (المتوفى ٥١٦ هـ) فى درة الغواص[1] ، ثم الطبيب المشهور بالتقرير الذى كتبه عن مصر ، موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف (٥٥٧ — ٦٢٩ هـ) فى كتاب الذيل الذى ألفه تعقيباً على فصيح ثعلب[2] .

ويدل على أن ابن حجاج كان يحسن الفارسية لفظ : خَرْكُوش (ص ٢٣٥ س ١) الذى معناه فى الفارسية : أرنب ، وشبه به فى الشعر كلباً سلوقياً سريع العدو.

كذلك مادة الألفاظ العربية عند هذا الشاعر ، كثيراً ما يستمدها من لهجة بغداد الدارجة : (سِتّى ، راسمال ، شوَّش أى أزعج) . وهى غنية بالتعبيرات الدارجة على الأخص فى غزل المذكّر ، مثل الكلمة المولدة : سُرْم ، بمعنى الدُّبر ، والصيغة الشعبية لها صُرم ؛ وقد تجنب الكتاب الملتزمون للدقة ، بسبب ذلك ، مرادف هذه الكلمة ، وهو : الصرم ، بمعنى الهجر . وأخذ ابن الأثير[3] على المتنبى استعماله هذا اللفظ الفصيح الذى لا يقل وروده فى الشعر القديم .

ويعبّر الشاعر فى ص ٢١٢ س ١٤ عن تحقيره لمبدأ « تنقية اللغة » تعبيراً حاداً عنيفا .

وهو وإن استعمل لغة الكتابة أيضاً ، فقد اشتملت أشعاره الهزلية — بوجه خاص — على سمات مولّدة قوية : فقد ترك الهمز إلى حد بعيد (ص ٢٢١ س ١٧ بَرِى بدلًا من : بَرِىء ؛ ص ٢٦٨ س ٢٠ قُران بدلًا من : قرآن ؛ ص ٢٣٩

(١) س ١٨٣ .
(٢) انظر المزهر للسيوطى ج ١ ص ١٨٠ .
(٣) المثل السائر ص ١٠٧ س ١٠ .

س ٤ أظما بدلا من : أظمأ ، الخ) ؛ كما ترك حركات أواخر الكلمات فى أحوال مثل : (ص ٢٣٧ س ٧ رُؤِى بدلا من : رُؤىَ ؛ ص ٢٣٠ بَقِى ، بدلا من : بَقِىَ) ؛ وأهمل تشديد ياء النسبة باطراد فى القافية ؛ (مثل ص ٢٢٠ أسفل) ؛ واستعمل لفظ : مع ، ساكن العين باطراد بدلا من فتحها ، واستعمل هو وهى بالإشباع باطراد بدلا من فتح الواو والياء (ص ٢٣٨ س ١ ؛ ص ٢٤٩ أسفل ؛ ص ٢١٤ س ٢) .

ومن مخالفة القواعد استعماله المؤنث على : غضبانه[1] ، بدلا من : غضبى .

ويدل على قلق فى قواعد الإعراب والتصريف استعماله : الوصى ، بالإشباع بدلا من تشديد الياء ونصبها ؛ واستعماله : لابدّ أنْ تحكى ، أيضاً بإشباع الياء بدلا من فتحها (انظر ص ٢٢١ س ١٥ ؛ ص ٢٤٩ أسفل ؛ ص ٢٦٥ س ١٨) ، ومثل : أو ترنى بدلا من أو ترانى .

ولقد شهد كذلك غربى العالم الإسلامى فى القرن الرابع تحرراً من النماذج والقوانين المتوارثة ، التى أقرها العرف الأدبى فى ميدان الشعر .

بيد أنه فى الوقت الذى اتجهت فيه حركة التحرر المذكورة فى الشرق إلى الموضوع بوجه خاص ، واستنفدت قوتها فى خبث التصوير للرذيلة والسقوط ، واستخدام أساليب المعارضة فى تحقير رفيع الخلال ، وكريم الخصال ، عمد الشعر الأسبانى العربى باختراع « الموشح » إلى إبداع قالب فنى أعلن ثورة فى الأسلوب على العروض القديم

حقاً لقد ظهر من قبل بالمشرق فى باكورة العصر العباسى شعر الأدوار من المزدوجة والمخمسة ؛ ولكن هذا لم يختلف عن قالب الشعر القديم اختلافا هاما إلا من حيث الربط بين اثنين أو أكثر من أنصاف الأبيات — وغالباً من بحر الرجز — بقافية واحدة ، لتكوين دور واحد (أ أ ، ب ب ، ج ج ، الخ) ، أو من حيث التأليف بين جميع مصاريع كل دور بواسطة قافية خاصة به ، مع تقفية المصراع

---

(١) ثبت أنها لغة لبنى أسد .

الأخير من كل دور إلى نهاية الشعر بقافية مشتركة بين جميع أدوار القصيدة (أأأ، ب ب أ، ج ج أ، الخ) .

كذلك ما يشبه الأدوار الشعرية من تأليف أنصاف الأبيات على صورة التصريع أى توحيد القافية بين المصراعين ، لم تشذ فى أوزانها عن طريقة العروض القديم .

وقد كان أقدم شعر الأدوار فى أسبانيا — على سبيل الحدس — يجول أيضا فى دائرة بحور العروض الأولى ؛ ولكنه حطم بعد ذلك أسوارها .

وعلى تقرير ابن بسام[١] ، أنشأ قديما أحد الشعراء فى سُدّة الأموى الأسبانى عبد الله بن محمد (حكم ٢٧٥ — ٣٠٠ هـ) ، واسمه محمد بن محمود المقبرى الضرير[٢] موشحات فى القوالب المستحدثة [عبارته : وكان يصنعها على أشطار الأشعار غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة] وهذا لا يكاد يفهم منه إلا أن الموشحات قد أخذت هذه الثروة المتنوعة القوالب من حيث العروض فى القرن الثالث الهجرى ، تلك الثروة التى ظهر إلى جانبها الشعر القديم ، بأوزانه الستة عشر ، فقيرا موحّد النغمات .

بيد أن ابن بسّام قد عدّ الأب الحقيقى لهذا الفن الجديد عبادة بن ماء السماء (المتوفى ٤٢٢ أو ٤١٩ هـ) الذى أبدع فناً ثابت الدعائم ، وابتكر — على الأخص — أسلوب «التضفير» الذى فسره ابن بسّام بأنه يعتمد فيه على مواضع الوقف فى المراكز .

والظاهر أن مراده بهذا هو الموشحات ذات الأقفال ، التى تتكون من أدوار ، كل دور منها ذو أبيات مجزأة ، توحد صدورها قافية ، وتوحد أعجازها قافية أخرى ؛ مع استقلال كل دور عن الآخر فى قوافى صدوره وأعجازه ، ثم يختم كل دور بالقفل ؛ وهذا الأخير تتحد قوافيه السائدة فى جميع القصيدة .

وفى الحق تدل موشحتا عبادة ، اللتان ساقهما الكتبى ، على عناية فائقة بإبداع

---

(١) ذكره ابن شاكر الكتبى فى : فوات الوفيات (١٢٩٩ هـ) ج ١ ص ١٩٩ .

(٢) انظر : M. Hartmann, Das arabiOche Strophengedicht I Das Muwaschah, S. 69

القالب ؛ وكنموذج لذلك نذكر الدور الثانى من الموشح الثانى ، مع قفله :

رشيقة المعاطف كالغصن فى القوام
شُهْدية المراشف كالدر فى النظام
دِعْصيَّة الروادف والخصر ذو انهضام

* * *

جوالة القلادة محلولة عقد الإزار
حسنها أبدع من حسن ذيَّاك الغزال أ كحل المدمع

فالأجزاء الستة الأولى تؤلف الدور ؛ وما بعد ذلك هو القفل الذى يشتمل على القوافى المكررة فى جميع الموشحة ، وكل دور تقفى أجزاؤه تقفية خاصة كما ذكرنا .

فالموشحة المذكورة تتألف من ستة أدوار ؛ مطلع الدور الأول :

لله ذات حسن مليحة المحيَّا

ومطلع الثالث : ليلية الذوائب ووجهها نهار
ومطلع الرابع : سفرجل النهود فى مرمر الصدور
ومطلع الخامس : عفيفة الذيول نقية الثياب

ويتحد الجزء الأول من القفل مع أجزاء الدور فى الوزن فقط ، أى لا فى القافية ، على حين تختلف بقية الأجزاء عنها فى الوزن والقافية ، ولا تتحد أجزاء القفل بعضها مع بعض ، ولكنها تتحد مع أجزاء بقية الأقفال فى الموشحة كلها ، كما ذكر ، أى أن كل جزء يتحد مع الجزء المقابل له ، فقفل الدور الثالث مثلا كما يلى :

ناديت وافؤاده من غادة ذات اقتدار
لحظها أقطع من حد مصقول النصال فى الفتى الأشجع

وقُفل الدور الأخير :

فى النوم لى شَرَاده وحكمها حكم اقتدار
كلما أُمنع منها ، فإنْ طيف الخيال زارنى أهجع

والقفل الأخير من الموشحة ، وهو الذى يسمى : الخَرْجَة ، هو القمّة التى تتجه الموشحة كلها إليها ؛ ولذلك يحسب حسابها من أول الشروع فيها ؛ فجميع الأدوار الأولى عليها أن تجمّع من شتات انتباه السامع لتوجهه إلى القفل الأخير . وهذا عليه أن يرضى تطلع السامع وتشوّفه بمفاجأة معنوية ولفظية تشبع ميوله ، وتقنع فضوله ؛ كما يؤخذ معنى ذلك من : « دار الطراز » لابن سناء الملك ، ففى القفل الأخير من هذه الموشحة ، تؤثر هذه الكلمات الأخيرة أعظم التأثير :

. . . فإن طيف الخيال زارنى أهجع

وفى هذه الموشحة ، كما فى كل موشحة تامة ، تقدم ، على جميع الأدوار ، قفل مماثل لجميع الأقفال ، ويسمى : مطلع الموشحة :

حبّ المها عبادة من كل بسّام السوّار

قمر يطلع من حسن آفاق الكمال حسنهُ الأبدع

هذا الفن المتنخّل الدقيق من التقفية والتسميط ، الذى يضفر أجزاء متباعدة من الموشحة ويداخلها بعضها فى بعض ، ويطبع جميع الموشحة بأسمى طابع من الكمال الفنى الناضج ، ربما كان هو المعنىّ « بالتضفير » الذى يُعدّ « عبادة بن ماء السماء » أبا عذرته .

كذلك الموسيقى التى كانت تلحّن لهذه الموشحات — كل الموشحات كان هدفها الغناء — كان عليها أن تراعى هذا التنوع والافتنان ، وأن تأخذ أيضاً طابع التعقيد الحافل بالكمال الفنى .

ولم يكن هـذا التكوين العروضىّ البديع ، المعتمد فى بناء هيكله على قواعد غريبة على الشعر البدوى الفصيح ، ولا ذلك الفن الغنى المتنخل فى التقفية والتصريع ، ولا تلك الموسيقى الرفيعة المعقّدة ، هى كل الخصائص التى ميّزت بين الموشحات ، والشعر الفنى القديم . بل كذلك يحملنا القالب اللغوى لهذا الفن الجديد على ملاحظة التحرر أيضاً من القيود الأولى .

فعلى رأى ابن سناء الملك[١] ، ينبغى أن تكون « الخرجة » — فيما عدا المديح لأنها تتضمن اسم الممدوح فى هذه الحالة — بعيدة عن أسلوب السخف الحجّاجى (نسبة إلى ابن حجاج الماجن الذى ذكر آنفاً) ، وأن تكون صيغتها على قالب ابن قُزمان ، أى فى أسلوب ملحون مجرد من الإعراب ، كما يحسن أن تشتمل على عبارات دخيلة أعجمية اللغة[٢] .

نعم لم يكن من السهل ، مع ذلك التغيير الشديد الذى أحدثه ترك الإعراب فى مواد الألفاظ ، صوغ عبارات من اللغة الشعبية تصلح لذلك النظام العروضى العسير ، الذى يعتمد على مقاييس الحركات ، ولا يتحمل التطويل الزائد ، ولا المقاطع المغلقة غالباً ؛ وعلى ابن سناء الملك أن يذعن لأن الخرجة فى أحوال كثيرة لابد أن تكون فى أسلوب نحوى فصيح ، بل هذا هو المستفيض الغالب فيما بقى من الموشحات .

أما أن رأى ابن سناء الملك فى ضرورة صوغ « الخرجة » باللغة الشعبية الدارجة لم يكن مجرد نظرية مفترضة ، بل حقيقة عملية ، فهذا ما لا تنحصر الدلالة عليه فيما ورد من الموشحات الجارية على ذلك ؛ بل ما تدل عليه النماذج الواردة فى ديوان : يهودا هاليفى (المتوفى ١١٤١ م) ، والتى تستعمل العبارات العربية والأسبانية القديمة مختلطاً بعضها ببعض على سواء ؛ كما تدل على ذلك قبل كل شىء موشحات ابن قُزمان (المتوفى ٥٥٥ هـ) التى صيغ كل ما وصل إلينا منها باللغة الدارجة .

ذلك أن محاولة نظم « الزجل » أى الموشحة الشعبية الأسلوب ، إنما أمكن التجاسر عليها بعد أن تقدمت الموشحات الفصيحة باقتباس عبارات وجمل مبتذلة من لغة الشعب ، وهيّأت بذلك الصيغ والقوالب فى لغة العامة للاندماج فى أوزان الموشحة .

على أنه يتراءى أن هذا المزج والتقريب بين لغة الكتابة الفصيحة ، واللغة الدارجة العامية ، فى الاستعمال الفنى ، بقى مقصوراً على الأندلس ؛ على الرغم من أن

---

(١) انظر تلخيص أقواله فى كتاب M. Hartmann السالف الذكر ص ٩٩ فما بعدها .
(٢) ص ١٠١ من الكتاب المذكور .

أسلوب الموشحة قد شق مجالا لاحتذائه وتقليده خارج الأندلس ، فى شمال أفريقية ، ومصر ، وسورية ، وما بين النهرين .

أمّا لماذا لم ينفذ إلى العراق ؟ فربما رجع ذلك إلى أن الموسيقى الفارسية هنا كانت أسبق إلى التغلغل والاستيطان ، إذ أن الموشحة ترتبط بالموسيقى العربية أشد الارتباط ، وحتى يومنا هذا تكوّن الموشحة جزءًا أساسياً لا يستهان به فى محيط الموسيقى العربية[١] .

(١) يشتمل كتاب الأغانى المصرية لمحمود حمدى البولاقى على ٥٠٠ صوت منها ١٣٤ موشحة قصيرة ، القاهرة ١٣٦٦/ ١٩٠٨ .

(١٢)

وصف المقدسى للعلاقات اللغوية فى المحيط الإسلامى

إبّان القرن الرابع الهجرى — العاشر الميلادى

كتاب : أحسن التقاسيم ، فى معرفة الأقاليم ، الذى أكمله أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى [١] سنة ٩٥٥/٣٧٥ ، والذى يعد أنضج نتاج للعصر الإسلامى الأوسط فى دائرة وصف الدول والبلدان ، لا يحتوى على طائفة صالحة من الأخبار عن الأمور اللغوية فحسب ، بل هو فى نفس الوقت عظيم الفائدة من حيث أسلوبه الخاص .

فكما بلغ المؤلف الذروة فى كلا مقصديه على سواء : من حيث استيعاب النظرة ، وقوة الملاحظة تجاه البلدان والشعوب ؛ ومن حيث الإحساس الدقيق ، والذوق المرهف ، أمام الأسلوب الأدبى ، والتعبير اللغوى ، عرف أيضاً كيف يوفّق بين مطالب الكتابة فى الناحية العلمية الخاصة ، ومذاهب الأسلوب الأدبى الرفيع .

ويدل استخدامه ذلك التعبير البلاغى : التقسيم — يعبر لفظ التقسيم فى اصطلاح البلاغة عن استيفاء أقسام المعنى المراد بيانه — على توفر الميل الأدبى عند المقدسى ، كما يدل على ولعه بالنثر المسجوع ، الذى لم يقتصر على استعماله فى المقدّمة ، بل تعاطاه فى مواضع كثيرة من صلب الكتاب .

ولشدة تعلقه بالسجع لا يندر أن يؤثر عبارات متنخلة متخيرة ، مثل استعماله لفظ : أثام ، بمعنى خطيئة ، مريداً به الخمر ، ٤١٠ س ٥ ؛ ولفظ : دِقال ، أى قلاع ، بمعنى السفن (ص ٤٥٩ س ١٥) .

كما حبّب إليه تحلية عبارته بالاقتباس القرآنى ، مثل : من كل فجّ عميق

---

(١) « كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » نشره M. J. De Goeje للمرة الثانية سنة ١٩٠٦ (المكتبة الجغرافية العربية ٤) .

(ص ٢٧٨ س ٧ سورة الحج ، آية ٢٧) ؛ وما يدريك (ص ٣٧٨ س ٤) ، وغير ذلك .

وأحياناً يضمّن عبارات أدبية من الذاكرة ، مثل تعبيره عن قمصان الدروع القديمة التى رآها فى تيماء ، والتى بطل استعمالها فى أزياء السلاح لعهده ، بالدروع الداوودية (ص ٢٥٣ س ٤) .

وبحكم اعتياده على ملاحظة الفروق بين مختلف البلدان الإسلامية فى الكلام ، والأصوات ، واللغة ، لم يقتصر على ذكر قائمة من العبارات المحلية (ص ٣٠ س ١٥ : — ٣٢ س ٣) بل أكّد أيضاً أنه سيتكلم فى وصف كل إقليم بلسانه ، ويناظر على طريقته ، ويضرب من أمثاله ، فإذا تكلم فى غير الأقاليم — من أجزاء الكتاب — تكلم بلغة الشام لأنها إقليمه الذى به نشأ [(١)].

ومما يدل على أن مراده من لغة الأقاليم التى يتكلم بها لغة المثقفين لا لغة الشعب الدارجة ، دعواه أن أصح العربية يتكلم بها فى المشرق ، أى فى الإقليم اللغوى الفارسى ، لأنهم يتكلفونها تكلفاً ، ويتعلمونها تلقفا ؛ (ص ٣٢ س ٨) .

ومن هذه الناحية كان ذلك الكتاب كنزاً ثميناً من الوجهة اللغوية . فهو يذكر (ص ٩٦ س ١١ — ٩٧ س ٢) أن أصح العربية فى جزيرة العرب عند هذيل ، ثم فى قسمى نجد ، ثم أخيراً بقية الحجاز ، على حين يصف لغة بلاد السواحل (الأحقاف) بأن لسانهم (وحش) [(٢)].

وفى مدينة الثغر : صُحار ، تسود اللغة الفارسية ، فى التجارة والمعاملة . كذلك الثغران : جدة وعدن ، أكثر أهلهما فرس ، بيد أن العربية هى لغة الكتابة والتفاهم .

ويذكر المقدسى قبيلة من العرب فى الطرف الحميرى لا يفهم كلامهم (الحميرى) .

---

(١) ص ٣٢ س ٤ .

(٢) « وحش » عبارة يولع المقدسى بكثرة استعمالها ، انظر دى غويه فى الفهرست اللغوى للكتاب .

ومن خصائص لهجة عدن التزام المثنى فى جميع الأحوال : يدينه ورجلينه ، مع الجمع بين النون والإضافة ، وجعلهم الجيم كافا ، أو جيا غير معطشة[١] ، وساق مثلا لذلك الحديث الذى يقولون فيه بدل لفظ : رجس ، رِكْس[٢] .

وهو يصف عربية العراق (ص ١٢٨ س ٧ — ٩) بأنها حسنة فاسدة ، والظاهر أن مراده أنها حسنة الوقع فى الأذن وإن لم تطابق قواعد النحو ؛ بل هو يعد لهجة بغداد أجمل اللهجات العربية وأحسنها لسانا ، على الرغم من اعترافه في موضع آخر بأنه طالما استحيي من اللحن اللغوى على لسان قاضى القضاة ببغداد ، دون أن يرى أحد فى ذلك عيبا[٣] .

ولهجة الكوفة أصح نسبياً لقربهم من البادية وبعدهم عن النبط ، أما ضرة الكوفة القديمة : البصرة ، فإنها منذ استيلاء الزنج عليها سنة ٢٥٧ هـ تأخرت كثيراً ، بحيث لم يرها المقدسى أهلا لعدّها فى هذا السياق أصلا ؛ فهو يقتصر على ملاحظة أن اللهجة العربية فى البطائح (المستنقعات بين البصرة وواسط) ركيكة قبيحة (ص ٣٢ س ٩ ؛ ٣٤ س ١٦) ؛ ولا شك أن هذا نشأ من اختلاط السكان هناك بين قبائل عربية ، وأنباط . وأخلاف السكان الآراميين القدامى ، وأمشاج الزطّ الذين أسكنهم الحجاج هناك[٤] ، وأخيراً العدد الذى لا يحصى من الزنج ؛ وهو يقول عن سكان البطائح باختصار : ليس لهم لسان ولا عقل .

ومثل عربية العراق ، كذلك عربية إقليم ما بين النهرين فى حكم المقدسى (ص ١٤٦ س ٢ — ٣) حسنة ، أى حسنة الجرس فى السمع ، وإن لم تكن سليمة من جهة النحو ؛ وعلى كل حال فهى من هذه الوجهة أصح من لغة سورية ، لأن سكان ما بين النهرين عرب بدو فى الأعم الأغلب ، كما تدل على ذلك أسماء

---

(١) انظر فى هذا : Marcais, EI I, 1090

(٢) انظر البخارى فى كتاب الوضوء ولفظ رجس فى Wensinck, Concordance

(٣) ص ١٨٣ س ٥ ، وعبارته : كنت إذا حضرت مجلس قاضى القضاة ببغداد أخجل من كثرة ما يلحن ولا يرون ذلك عيباً .

(٤) انظر : EI, IV 1337

مناطقها : ديار بكر ، ديار ربيعة ، ديار مضر ؛ وهو يمتدح على الخصوص لهجة الموصل بأنها أحسن لهجاتها ؛ كما تمتاز صيداء بين مناطق سورية ، بأنها (أوحش) لهجاتها (ص ٣٤ س ١٥) .

وعلى الرغم من أن لغة أهل الذمّة بمصر (أى المسيحيين) هى القبطية (ص ٢٠٣ س ٥) ، فإن لغة البلاد هى العربية ، وإن كانت لهجة يصفها المقدسى بالركاكة والرخاوة (أى الإهمال من جهة النحو) ، لأن السكان اتكلوا على لسانهم فلم يتكلفوا الأدب ، والكتاب الذين يتمتعون بهذه الثقافة ، يختارون من النصارى (ص ١٨٣ س ٥) .

وأخيراً يجد المقدسى لهجة المغرب شديدة الاختلاف عن عربية البلدان الإسلامية الأخرى ، منغلقة عسيرة الفهم ، أما البربرية فلا يستطاع فهمها أصلا ، (ص ٢٤٣ س ١٠) .

وعظيمة الفائدة — بوجه خاص — تلك القائمة ، المشار إليها آنفاً ، من الاستعمالات المحلية ؛ فهى تشتمل على مترادفات من أوصاف الأشخاص والأشياء التى يحتاج إليها المسافر ، وتتبادر إلى ذهنه : أنواع السفن ، وأوصاف رجالها ، ومفردات خاصة بالملاحة ، واصطلاحات جغرافية ، وألفاظ المكس ورجاله ، والمقاييس والموازين والخانات والفنادق والعبيد والخدم ، والمراتب المختلفة ، والأسواق والمتاجر ، والتجار والبضائع ، والأقمشة والثياب ، وأدوات النعال ، والأوعية ، والنباتات ، والحيوانات الأليفة — يضاف إلى ذلك قائمة تشتمل على ٤٩ صنفاً من أجناس التمر ، و٢٤ نوعاً من سمك دجلة الذى يجلب إلى سوق البصرة (ص ١٣٠ ملحوظة P) — والصيادين ورطانتهم ، وعجلات الريّ والسقى ، والقنوات ومجارى المياه ، وأخيراً اصطلاحات الإدارة والحكم .

نعم هو لا يحدد فى ذلك مناطق استعمال كل تعبير ، بيد أن مواضع أخرى من كتابه ، وورود الكلمات فى مظانّ أخرى ، واشتقاقها اللغوى ، أو بعض التقييدات التى توجد عند كتاب آخرين ، كل ذلك يساعد أحياناً على ذلك التحديد .

وهكذا يبيّن فهرست أسماء السفن فى حكاية أبى القاسم بن المطهّر[١] مثلا ، أن كثر أسماء السفن الخمسة والثلاثين التى عدّها المقدسى[٢] كانت تستعمل فى العراق — وإن لم يلزم من ذلك اختصاص العراق بها — : جاسوس : سفينة التفتيش ؛ بَطِيَّة : سفينة من خشب البلّوط الهندى لاتوثق ألواحها بالمسامير بل بألياف النخل؛ زَب : قارب حربى صغير ؛ طيّار : قارب سريع للتجديف خاصة ببغداد والعراق ؛ ندى : قارب حربى ؛ كما يذكر لفظ : قارب ، المنتشر استعماله فى المغرب .

ويبدو أن من خصائص العراق أيضاً لفظ : زورق[٣] ، قارب ؛ ومِعْبَر (معديّة)

ومن المستعمل فى البلدان الواقعة على المحيط الهندى : بِيَرَجه : سفينة لصوص بحر ؛ دُونيج : سفينة ذات قلع واحد تسير على السواحل ؛ ومما يدخل هنا أيضاً ما يظهر : شَنْكولية[٤] وزَنبوق Sambuk فى حالة ما إذا جعل ذلك بدلا من نبوق[٥] (ص ٣٢ س ٢) .

ومما يختص بالبحر الأبيض : شَلَنْدى : مركب بيزنطى لنقل الجنود ؛ شينا سفينة بيزنطية كثيرة القلاع Galeere)

وللتعبير عن محرّك السفينة (الدفّة) تعدّ كلمة : سُكّان ، أصيلة الموطن بالعراق صحة وجودها فى اللغة المَنْدَعِية (Mandaeisch[٦]) واللغة الأكّادية فى صيغة : سكّانُ ؛ وقد استعمله طرفة بن العبد (١٧ — ٢٨) فى سفينة بنهر دجلة ؛

---

(١) Alulkàsim ein bagdader Sittenbild, hrsg. von A. Mez, Heidelberg 1902

(٢) جمت المواد المتصلة بهذه الكلمات فى أطروحة الدكتوراه التى قدمها فى مدينة (بن) ألمانية : Kindermann : Schiff im Arabisshen, Zwickau 1934

(٣) ورد هذا اللفظ فى شعر ذى الرمة قصيدة رقم ٢٠ بيت ١٥ والزفيان ٣ بيت ١٥ رؤبة ٢٧ بيت ٣٠ و ٤١ و ٦٥ .

(٤) فسرها دى غويه فى فهرست ألفاظ الكتاب بسفينة لصوص البحر ، على أنها مأخوذة : شنجول : لص فى الفارسية .

(٥) انظر : Kindermann فى الأطروحة المشار إليها .

(٦) Johannesbuch 152 I Lidsbarski

والفرزدق (ص ٨٦٨ ديوان) فى وصف السفن فى الخليج الفارسى [١] .

أما فى المغرب [٢] فيستعملون فى ذلك لفظ رِجْل ، وربما كان ذلك أيضاً فى سورية

والتعبير عن الملاح يستعمل فى سورية لفظ : نوتى ، كما ذكره الجوهرى ، وهو مأخوذ عن اليونانية ، على حين أن لفظ : ملاّح ، الذى يرجع أخيراً إلى السومرية ربما كان خاصاً بالعراق .

ويعبّر العراقيون عن السير إلى أسفل النهر : شِبالا ، وإلى أعلى النهر : زِقافاً [٤] وقد ذكر المقدسى الاصطلاحين فى وصفه للعراق ولغته .

كذلك لفظ قَلْس ، المأخوذ عن اليونانية ، بمعنى حبل السفينة ، الذى ذكره المقدسى إلى جانب لفظ : حبل ، كان مستعملا فى العراق بشهادة ابن دريد [٥] .

وتسمى الريح المساعدة فى العراق : شَرْتَه [٦] ؛ وفى غيرها (ربما فى سورية ؟) طارُوس .

وعظيمة هى الفروق فى دائرة أسماء المقاييس والموازين والنقد ؛ فمثلا لفظ : مَن (Mine) معروف فى جميع المحيط الإسلامى بمعنى رطلين ، إلا فى مكة حيث يستعمل لفظ : رطل (ص ٩٩ س ٤) ؛ كذلك يستعمل فى مكة بدلا من لفظ : قنطار لفظ : بهار ، ويزن ثلاثمائة رطل (ص ٩٩ س ٩). وأصغر النقد فى كل مكان عادة لفظ : حبّة ، واسمها فى عمان : طَسُوه [٧] . وهو دليل على اتصال هذا الإقليم بالدولة الساسانية من الناحية الاقتصادية . فكلمة : تاسوك فى الفارسية الوسطى ، وتاسو فى الفارسية الحديثة ، وطسُوج ، فى العربية ، تعبر عادة — بحسب الأصل — عن

(١) ذكرت مظان أخرى فى : Fraenkel Fremdwörter 222

(٢) ذكر Dozy شواهد مستخرجة من رحلة ابن جبير ص ٣٢١ س ٥ والشرح المغربى لشعر مسلم بن الوليد ص ١٢ س ١٩ .

(٣) انظر المسعودى ج ١ ص ٢٨٢ طبع باريس ، يوافق ج ١ ص ٧٨ س ٧ (طبع القاهرة ١٣٤٦ هـ) .

(٤) انظر حكاية أبى القاسم السالفة الذكر ص ١٠٨ س ١ ، وكلا اللفظين مأخوذ عن الآرامية

(٥) انظر : A. Siddipi, Jbn Duraid 737 وانظر النسبتين : القلاس والقلوسى

(٦) انظر فهرس ألفاظ الكتاب وحكاية أبى القاسم .

(٧) هذا ما يؤخذ من ص ٩٩ س ١٤ ومن عطفه طسوج على حبة فى ص ٢١ س ٣ .

ربع الدانق ، وبهذا عن جزء من أربعة وعشرين جزءاً من الدينار ، ثم عن جزء من الأرض يمكن سقيه بربع من الماء . وأخيراً عبّر به عن الناحية ، لأنها تصور وحدة من وحدات التنظيم الإدارى .

وذكر المقدسى من وسائل السّقى والرىّ إلى جانب لفظ : دولاب (الساقية وعجلة الماء) الفارسى ، ولفظ : حنّانة ، العربى ، لفظ زَرْنوق بمعنى البئر ، وهو لفظ ينتمى إلى الآرامية [1] ولا يزال حياً إلى اليوم عند أهل نجد [2] . وفى خوزستان تسمى السواقى : نواعير ، جمع ناعورة أو ناعور ؛ وهذا اللفظ الآرامى الأصل [3] ، كان غير معروف فى المغرب ، بحيث وجد المقدسى من اللازم التعبير عنه بلفظ : دواليب (ص ٤١١ س ١١) .

ومن الألفاظ الدالّة على سكان الريف ، فى مقابلة كلٍ من سكان البادية وسكان الحضر ، يظهر أن لفظ : قرياتى [4] من ألفاظ اللهجة السورية ، ولفظ سوادى من ألفاظ العراق [5] ، كلفظ : رُستاقى ، نسبة إلى : رُستاق ، من البهلوية رُستاك [6] .

ومن الألفاظ الدّالة على السنّور ، ثبت استعمال لفظ هرّ ، اسماً مؤنثاً فى العربية القديمة ؛ ولفظ : دمّة ، المأخوذ من : دِمَتْ ، الحبشية ، يبدو أنه كان مستعملا فى جنوبى الجزيرة [7] . ولفظ : قطة كلفظ : قَطُّس ، يبدو رجوعه إلى اللغة المصرية ، وهو منتشر فى سورية ومصر وشمال أفريقية . ولفظ : سِنَّور ، مستفيض فى لغة الكتابة القديمة بالعراق [8] .

---

(١) انظر : Fraenkel, Fremdwoerter 134 واختلط هذا اللفظ على Mez فى Renaissance ص ٤٢٤ بلفظ : زرزور .

(٢) Bräunlich, The Well in Ancient Arabia

(٣) Fraenkel فى الكتاب السابق ص ١٣٤ و Mez فى Renaissance 424

(٤) وهى نسبة عامية إلى قرية ذكرها المقدسى فى ص ١٧٣ س ٦ ، انظر دى غويه فى فهرس الألفاظ . واستعمل الجاحظ لفظ : قروى فى البيان ج ١ ص ٦٨ س ٢٧ و ج ٢ ص ٤ س ٢٧

(٥) انظر : حكاية أبى القاسم ص ١٠٧ س ٨ .

(٦) لسان الرستاق ص ٤٧١ س ١١ هى لغة السهل من كرمان .

(٧) انظر دوزى فى المادة .

(٨) انظر كلمات أخرى بمعنى القطة فى الدميرى تحت كلمة : سنور .

وفى أسبانيا يسمى عنقود العنب : كرمة ، ويستعمل المقدسى كثيراً جمعه على كرمات — وقد أثبت « دى غويه » أنه مغربى فى فهرس الألفاظ — فى وصف للأندلس . وفى المشرق يستعمل بدلا من ذلك لفظ : دالية ، المأخوذ من الآرامية وفى موضع آخر (ص ٣٣٥ س ٦) نستفيد عرضاً أن الحديقة تسمى بالأندلس منية ؛ وهناك أيضاً ينبه إلى أن لفظ : إقليم ، يدل فى أسبانيا على المنطقة الريفية .

وفى أحوال أخرى يدل الاختلاف اللغوى على اختلاف الثقافة وتضادها بين سكان البادية ، وسكان الحضر المستقرين ، ذلك التضادّ الذى بلغ من البعد بحيث تصوّر اللهجات البدوية إلى اليوم وحدة لغوية مستقلة .

فمثلا لفظ : أثافى ، أى حجارة الموقد ، لفظ بدوى ، على حين لفظ : موقدة الذى لم يذكره الجوهرى ، مستعمل عند سكان الحضر . زيادة على ذلك يستعمل المقدسى (ص ٣٦٤ س ١٣) لفظ : دِيكْدان ، (الأثافى أيضاً) الفارسى ، فى وصف بناء سد يأجوج ومأجوج ، لإعارة هذا الوصف صبغة محلية .

ويبدو أنه يقصد إلى تنويع الكلام وتجميله أكثر مما يرمى إلى التلوين بالصبغة المحلية ، فى ذكر التعبيرات المختلفة عن : الخصى ؛ فلفظ : خصى ، القديم الجاف قد خفف إلى لفظ : خادم ؛ ولما كانت التربية كثيراً من صنعة الأخصياء ، فقد خوطبوا تأدباً بألفاظ : معلّم ، أستاذ ، شيخ . وهكذا يتحدث المقدسى (ص ٢٤٢ س ١٣) مع « عُريب » الخادم عن أمر الخدم ، ويوجه الخطاب إليه بلفظ : المعلّم ، ثم استعمل هذه الألفاظ أيضاً فى غير الخطاب بمعنى « الخصى » .

وأحياناً يتعاطى المقدسى ألفاظاً خارجة عن محيط اللغة العربية ، كما فى التعبير عن مجامع الأبنية التى لاتقتصر على تقديم أماكن لراحة المسافرين الأجانب — على وجه الخصوص — ومحطات لرحالهم ، بل تشتمل أيضاً ، كما هو الحال فى كبار الفنادق الحالية ، على مخازن ومتاجر ومصانع ، وتقرن بين صفة دار الضيافة وصفة السوق العامة وفى هذا يعد لفظ : فندق ، المأخوذ من : پاندكيون اليونانية ، من خصائص سورية

ومصر وشمال أفريقية ، أى منطقة نفوذ الدولة البيزنطية ؛ مثل لفظ : خان فى فارس ؛ ولفظ : تيم فيما بين النهرين ، الذى يستعمله المقدسى كثيراً فى وصفها ، وإلى هذا يستخدم أيضاً اللفظ العربى : دار التجار[١] .

وإذا كان المقدسي يستعمل زيادة على ذلك للدلالة على ساحات السوق لفظ : قيصرية ، فربما جاز لنا أن نرى فى هذا اللفظ أثر اللهجة السورية ، لأنه راجع إلى أصل يونانى كان جاريا فى تلك البلاد التى خضعت سالفاً للسلطان البيزنطى[٢] .

وفى التعبير عن استحكامات الأبنيــة ، يبدو أن لفظ : حصن ، مقصور على جزيرة العرب وسورية وفلسطين ، على حين كان لفظ : قلعة ، يتردد فى محيط أوسع انتشارا ، وعلى الأخص فى شمال أفريقية وأسبانيا ؛ ويطابقه فى المنطقة اللغوية الإيرانية لفظ : كلاَت[٣] ؛ وفى خراسان وما وراء النهرين تسمى القلعة التى توجد فى كل مدينة تقريبا : قُهندز[٤] ، ومعناه الأصلى : الحصن القديم .

بيد أن عناية المقدسى اللغوية لم تقتصر على العربية ، بل تمتد إلى جميع اللغات التى يجرى الـكلام بها فى إيران لذلك العهد[٥] . وكلامه صريح فى أنه كان يفهم الفارسية إلى حد كبير حتى إنه كان يستطيع أن يحكم على لهجاتها بحسب مكانتها من قانون لغة الـكتابة .

فهو يسم لهجة نيسابور (ص ٣٣٤) بأنها فصيحة مفهومة غير أنهم يكسرون أوائل الكلم (علامة الفعل الأولى : بَ) مثل بيشَوْ ، أى كُن ، ويزيدون السين بلا فائدة مثل : بِكُفْتَسْتِى .

---

(١) وعلى عكس ذلك يدل لفظ : خانقاه على « الدير » فى كرمان ، انظر دى غويه فى فهرس الألفاظ .

(٢) انظر : Streck EI 2 706

(٣) انظر فى هذا اللفظ : EI

(٤) انظر فى لفظ : قهندز ، المعرب للجواليقى ص ١٢٢ س ٣ ؛ ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٢١٠ ؛ تاج العروس فى المـادة ، وهو يطابق فى المغرب لفظ : قصبة ، انظر : EI2 . 838

(٥) انظر ص ٣٣٤ س ٧ ؛ ٣٣٦ س ١ ؛ ٣٦٨ س ٩ — ١١ ؛ ٣٩٨ س ٧ — ١٠ ؛ ٤١٨ س ١ — ١١ ؛ ٤٨٢ س ٩ .

وبعد لهجتى طوس ونسا قريبتين إلى لهجة نيسابور ، بل أحسن لسانا ؛ كذلك لسان بُسْت حسنة ، ولهجة سجستان فيها تحامل وخصومة يخرجون الكلام من صدورهم ويجهرون فيه ؛ على حين أن لسان مرو ومرو روز له مهابة وعظمة ، غير أن فيه تحاملا وطولا ومدا فى أواخر الكلم ، كذلك لهجة بلخ حسنة إلا أن فيها كلمات تستقبح .

وغاية فى القسوة حكمه على لسان هراة (الوحش) ، وهنا يحكى قصة عن بعض ملوك خراسان إذ جمع رجالا من خمس كور خراسان الأساسية ، فلما حضروا تكلموا جميعاً ، فقال عن السجستانى : هذا لسان يصلح للقتال ، والنيسابورى يصلح للتقاضى ، والمروزى يصلح للوزارة ، والبلخى يصلح للرسالة (لكتابة الرسائل) ، أما لسان هراة فيصلح للكنيف .

وتشبه اللهجة المروزية لهجة سرخس وأبيورد ؛ وبين المروزية والهروية لهجة جَرْجستان (جَرج الشار) ؛ وبين المروزية والبلخية لهجة جوزجان . وأخيراً تشبه البلخية لهجتا طخارستان وباميان ، إلا أن هاتين منغلقتان عسيرتا الفهم . أما لغة خوارزم فهى لا تفهم أصلا . وقد لفت نظره فى اللهجة البخارية تكرار كلمات من الحشو الذى لا طائل تحته ؛ مثل : يكى ، أداة للتفكير ، إلى جانب حرف : ى (ياء التنكير) أو : دَانَسْتى ، هل تعلم ؟ . ولكنها لغة البلاط (درية) ؛ لأن بخارى كانت عاصمة الصفريين .

وفى السمرقندية لاحظ المقدسى صوتاً بين الكاف والقاف ، والظاهر أنه نوع من الجيم ؛ وعد من لهجات الهيطل لغة الشاش أحسنها . والصغدية تشبه لغة القرويين فى بخارى ؛ وهنا يستطرد ملاحظاً أن الناس فى كل إقليم من الأقاليم التى ذكرها يتكلمون فى الريف (الرساتيق) بلسان مغاير للهجة الحضر .

وفى اللهجتين المتقاربتين : لهجتى قومس وجرجان ، اللتين يصفهما بالحلاوة ، يستعملون علامة الفعل الأولى : هَ ، بدلا من : بَ ، مثل : ها كُن : افعل .

ونستفيد فى موضع آخر (ص ٣٦٩ س ٤) أن العالم عندهم يسمى : معلماً ،

وأن : لوك ، معناه جيّد . وقريب إلى ذلك لسان طبرستان الذى يقول المقدسى إن فيه عجلة . أما الديلمية فهى ذات صبغة مخالفة لما تقدم منغلقة عسيرة الفهم . ولفت نظره فى الجيلانية حرف الخاء ؛ والخزرية عسيرة الفهم ؛ ولهجة الرّى تستعمل علامة الفعل الأولى : رَ ، رَادِه ، را كُن ؛ وفى همدان يقولون : واتم . وفى لهجة قزوين يستعمل حرف القاف ، ويقولون للجيد : نِغْ . والأصفهانية لهجة (وحشة) فيها مد .

ووصف المقدسى حالة اللغة (فى ص ٤١٨ س ١ — ١١) فى خوزستان فقال إنهم يمزجون بين العربية والفارسية إذ يحسنون اللغتين على سواء ، وأحسن ما تراهم يتكلمون بالفارسية حتى ينتقلوا إلى العربية . والكرمانية (ص ٤٧١ س ١١ — ١٢) تشبه الخراسانية ، وهى سهلة الفهم على النقيض من البلوصية التى تشبه لغة السند .

ثم يصف لغة مكران (ص ٤٨٢ س ٩) بأنها (وحشة) .

وجدير بالملاحظة أن المقدسى يسوق حديثاً مذهبياً يصرح بروح العداء للفرس : « أبغض الكلام إلى الله الفارسية ، وكلام الشياطين الخوزية ، وكلام أهل النار البخارية ، وكلام أهل الجنة العربية »[١] . وهذا الخبر الذى كشف النقاد المسلمون[٢] عن شدة الجرأة فى وضعه ، تعلمه المقدسى فى رامهرمز حيث كانت اللغة الخوزية ، التى لا صلة لها بالعربية ولا بالفارسية ، لا تزال مستعملة على ألسنة السكان .

كذلك نستفيد طرفا من أسماء الأعلام المعتاد استعمالها فى فارس (ص ٣٩٨ س ٤ — ٦) . ففى الرى يقولون بدلا من : على ، حسن ، احمد : علكا ، حسكا ، حمكا ، للتمليح . وفى همدان يقولون بدلا من : أحمد ، محمد ، عائشة : أحمدلا ، محمدلا ، عيشلا ؛ فيضيف الأولون مقطع : — كا ، والآخرون مقطع : — لا ، إلى الأسماء . وفى ساوة يضيفون مقطع : آن ، أبو العباسان ، حسنان ، جعفران . وفى كرمان

(١) ص ٤١٨ س ٦ — ١١ ؛ انظر ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١ ص ٢٩٩ ، ويوجد حديث فى كنز العمال ج ٢ ص ١٨٤ يحرم استعمال الفارسية فى الحج .

(٢) انظر ابن حبان (ذكره ابن حجر فى الموضع السابق) ، والذهبي : ميزان الاعتدال ، وابن حجر : لسان ، تحت : إسماعيل بن زياد .

أحب الكنى : أبو جعفر ؛ أما فى أصفهان فهو : أبو مسلم ؛ وأخيراً فى قزوين : أبو الحسين .

هذا ، وإن ذلك الطلاء البلاغى ، والافتنان فى أنواع الأساليب التى حلّى بها المقدسى كتابه ، لا يمكن أن يخدع النظر عن أن لغته فى جوهرها من العربية المولَّدة . فهو لا يُعنى كثيراً بالتفرقة بين المقصور والممدود ، وهو يسوق فى قافية السجع (ص ١٥١) مع لفظ : دنيا ، الكلمتين : لأوى (بدلا من لأواء) وأمْيا ، الذى هو بدوره جمع مولّد للفظ : ماء[١] ؛ ومثل (ص ٤٤ س ١٤) لفظ : كِرا ، بدلا من : كراء .

ووردت عنده صيغة « تفاعل » من رأى : ترايا . وهو يصوغ (ص ٢٢٥ س ٧ ، ١٢) جمعاً للفظ : مأجن : على مواجين ؛ وللفظ : أذاة ، ضرر (ص ٢٠٢ س ٣) على : أذايات .

ومن المولّد استعماله لفظ : أخْير (ص ٣٤ س ١٧) بدلا من : خير[٢] . ومن الاستعمال الشعبى الدارج معاملته التركيب الإضافى معاملة اللفظ المفرد ، وصوغه النسبة إليه على هذا الأساس (ص ٢٠٣ س ٤) كان شفعويا أبوعمريا (أى شافعى المذهب يقرأ على طريقة أبى عمرو[٣] .

وكثيراً ما يستعمل أوصافاً مختومة بمقطع : — آنى ، مثل : بلغانى (ص ٤٧٩ س ٩) ، ذنبانى ، كالذيل (ص ٤٠٣ س ١٨) ، طولانى ، طويل (ص ٤٨٧ س ٣) .

وهو يستعمل لفظ : منبوت : ، بمعنى مُنبت (ص ١٨٣ س ١٩) وداخَل ،

---

(١) انظر : Nöldeke NBSS 168

(٢) Fleischer Beiträge 4, 248

(٣) يقصد أبا الطيب بن غلبون (المتوفى ٣٨٩ هـ) ، انظر : تاريخ القرآن لنولدكه ، ج ٣ س ١٧٢ ، ٢١٧ .

مكان : أدخل ؛ ويستعمل مضارع المعلوم : يزن ، يجد ، يقد ، وربما أيضاً : يقف ، بمعنى مضارع المجهول .

وهو يقول (ص ٤٥٠ تعليق) : أدخلوا به ، أى دخلوا به ، وهو تعبير خطّأه الحريرى[1] .

وهو يعدّى خطب باللام أو إلى ، فى حديثه عن الأمير الذى يتم له الاعتراف بالولاية بإلقاء الخطبة .

وإلى جانب استعماله لفظ : خاصّة ، عند التخصيص ، يستعمل أيضاً لفظ : وبخاصّة ، وبخاصّية .

وجدير بالملاحظة من تعبيرات الاستعانة بالأداة على تحديد الغرض استعماله : برسم ، بمعنى : لأجل (ص ١٨٨ تعليق ٢) .

ومن الاستعمال الشعبى الدارج استعماله : ترى ، بمعنى : فإذا ، فيكون (ص ٣٦٤ س ٩) .

وهو يستعمل أحياناً : ما ، بمعنى أى شىء .

وهو يجرى على قواعد الإعراب والتصريف بوجه عام ، وإن دل تعبيره (ص ٣٥٨ س ٥) وتراهم . . . حزبان ، بدلا من : حزبين ؛ وربما أيضاً (ص ٣٧٧ س ٨) شبه ثوران ، بدلا من : ثورين — فى كلتا الحالتين تظهر موافقة السجع — على أن الشعور الحى عنده إزاء الإعراب غير قوى .

ومن العربية المولّدة قبل كل شىء المادّة اللغوية . ذلك أن وصف البلدان والشعوب الإسلامية ليس من السهل اليسير بوسائط اللغة العربية القديمة . فنتائج الصناعة ، ومحاصيل الزراعة ، والمهن ، والحرف ، والظواهر المختلفة المتنوعة للحياة اليومية ، ينبغى التعبير عنها بالمصطلحات المتعارفة ؛ وفى هذا تلعب اللغة الفارسية دوراً عظيما . على أنه هناك أيضاً ، حيث لا توجد أسباب واقعية ، يحبّب إليه أن يستخدم

---

(١) درة الغواص ص ١٦ .

ألفاظاً وعبارات مولدة . ومن أمثال هذه الألفاظ القريبة إليه : على كل حال ؛ بليذ ، بمعنى قذر (من الفارسية الحديثة : پليد) ، بلاذه ، قذارة ؛ عَفِن ، غلبة ، بمعنى العصبية .

ومن المعروف أن النسخة التى نشرها دى غويه De Goeje تعتمد على مخطوطتين متغايرتين ، تقدمان صورتين مختلفتين للكتاب . فكثيراً ما تقدم إحداهما صيغة شعبية ، على حين تذكر الأخرى صيغة فصيحة مكانها . وفى مثل هذه الأحوال عمد الناشر غالباً — طبقاً للسنّة المتبعة فى القرن الماضى — إلى اختيار الصيغة الفصيحة فى النص ، والتنبيه إلى الأخرى فى التعليق ، وإن ذكرها أيضاً فى الكشاف لألفاظ الكتاب .

على أنه لا يقتصر الأمر على احتمال تسرب عبارات شعبية إلى النص بسبب تساهل الكتّاب — وهذا ينطبق أيضاً بصفة أساسية على جميع النصوص التى لا تتناول بالعناية الدقيقة فى الرواية المدرسية ، ولذلك كانت ضحية لإهمال الكتاب وتساهلهم — بل قد حصل العكس أيضاً ، حيث عمد الكتّاب أحيانا إلى تصحيح عبارات دارجة فى النص من تلقاء أنفسهم .

فمثلا (ص ١٢٥ س ٢) كتب أحد الكتاب على هامش النسخة : B معلقا على الجمع الدارج : الأفمام (وضع دى غويه : الأفواه اعتماداً على نسخة : C) ملاحظته الاستنكارية : لا يصدّق أن المؤلف يقع فى مثل هذا الخطأ الشنيع .

فلو وجدت نسخة أخرى مشهورة ، أخذت عن نسخة : B تلك ، لربما قرأنا فيها العبارة الصحيحة : الأفواه ، بعد التصحيح بناء على التعليق المذكور .

وفى مكان آخر (ص ٣٩٤ س ٣) ساقت — على عكس ما سبق — نسخة : C أفمام (أو بعبارة أخرى على سبيل التصحيف : أقمام) ؛ ولنولدكه NBSS168 (Neue Bemerkungen zur semitischen Sprachwissenrschaft) كل الحق إذا ذكر هذا الجمع : الأفمام ، من خصائص المقدسى .

كذلك يوجد (ص ٣٠٤ س ١٣) فى نسخة : B الحقائب ، وفى نسخة : C الحقيبات ، و (ص ٤٠ س ١٥) أو (٢٣٨ س ٤) الحيعلة فى : B ، والهيعلة فى : C ، على حين تقدم كلتا النسختين (ص ٤٨١ س ١٠) الصيغة الملحونة : يهوعلون .

أما مسألة : كيف كتب المقدسى نفسه فى حقيقة الأمر ، فلا يمكن الحسم فيها بصفة عامة . بل لابد فى كل حالة خاصة من الفحص الدقيق . وعلى حين يلقى المقدسى وزناً للأسلوب المجوّد المتنخل ، ويكتب فوق هذا فى نثر مسجوع ، يتخلى كتّاب فنيون آخرون ، فى قمة العصر الإسلامى الأوسط ، عن كل طلاء بلاغى ، ويستخدمون فى كتبهم لغة تعد من العربية المولّدة ، لا من حيث قوالبها الداخلية فحسب ، بل كذلك من حيث مادتها اللغوية وعباراتها الخاصة كذلك .

وقد حفظ هؤلاء الكتاب من الانزلاق فى الشعبية الدارجة بالكلية ، أنهم كانوا لا يزالون يعيشون فى جو التراث الحى للثقافة الإسلامية ، والتربية اللغوية . فبوساطة المدرسة والمدارسة التى أحاطتهم علماً بالعربية القديمة وأعلامها الأوائل ، وبسبب اعتمادهم فى علومهم الخاصة على أسلافهم أيضاً من الوجهة اللغوية ، نجدهم محصّنين قليلا أو كثيراً بسياج من قوانين النحو ، يراعون قواعدها ولو إلى حد معلوم يختلف باختلاف الأشخاص .

وهكذا نجد مثلا المادة اللغوية التى يستعملها ابن النديم فى كتابه الفهرست[١] ، الذى ألفه سنة ٣٧٧ ، مولّدة فى الكثير الغالب : أسباب (ص ٥٣ س ١٦) بمعنى أقارب[٢] ؛ طنز (ص ٨٦ س ١٠) بمعنى مزاح[٣] ؛ طيّب (ص ٤٤ س ١٢) بمعنى : ذكى ، واستعمله الجاحظ أيضاً من قبل[٤] ؛ حكاية بمعنى :

(١) أخرجه فلوجل فى ليبزج ١٨٧١ م .

(٢) توجد أمثلة أخرى لذلك الاستعمال فى ياقوت : إرشاد ج ٢ ص ١٣٦ س ٤ ج ٢ ص ٣١٠ س ٦ وغيرها ؛ تاريخ بغداد ج ٣ ص ١٨٤ س ٢١ وغيرها ؛ أغانى ج ٢٠ ص ١٥٣ س ١٣ وغيرها .

(٣) قال الجوهرى عن ذلك : معرب أو مولد ، وانظر جولدزيهر JRAS 1912 816

(٤) انظر البخلاء للجاحظ (نشر فان فلوتن وملاحظاته على ذلك ص VIII)

خبر[١] . سائر ، بمعنى جميع[٢] ، وهو منتقد عند المتزمتين اللغويين .

وهو يستعمل أيضاً صيغا مولّدة مثل : حِلاب ، جمع حَلْبة (ص ١١٣ س ٢٨) ، ومثل ماذكر ابن خالويه[٣] أنه مأخوذ من رطانة صبيان الكتاب : حواميم (ص ٢٦ س ١٤) بدلا من آل حاميم ؛ ومثل النسبة على : جسمانى وروحانى (١٠ س ٢٣) وهيولانى ، أى مادى (ص ١٠ س ٧) وصنعاوى أى كيميائى (٣٥١ س ١٨) وكثير من الألفاظ الدخيلة .

وهو لا يكتفى بصوغ لفظ : أولا ، على الظرفية ، بل يصوغ منه أيضاً مؤنثا على : أولة ؛ وهو ما عده الحريرى[٤] (حوالى سنة ٥٠٠) خطأ لغويا شنيعا على ألسنة العوام .

ومن الشعبى أيضاً هذا التعبير : رجع يفعل (ص ٣٣١ س ٤) بمعنى كرر الفعل . وقوله : وستة سورى ، أى وستة كتب سورية ، لم يطابق بين الوصف والموصوف ، كما فى اللهجات الحديثة فى الوقت الحاضر[٥] .

وكثيراً ما يفصل بين المضاف والمضاف إليه بلفظ معطوف على المضاف ، مثل : (ص ٧٧ س ٨) أسماء وأخبار جماعة من علماء النحويين واللغويين ممن خلط المذهبين[٦] ، بدلا من الصحيح : أسماء جماعة من علماء النحويين واللغويين ممن خلط المذهبين وأخبارهم . وكما فى هذا المثال المذكور : علماء النحويين واللغويين ،

(١) انظر ماكدونالد فى : EI II 221

(٢) انظر الحريرى : درة الغواص ص ٣ .

(٣) كتاب ليس ، حكاه المزهر ج ١ ص ١٠٨ .

(٤) درة الغواص ص ١٢٦ ، وانظر: Fleischer Beiträge 9. 139

(٥) انظر : قواعد اللغة المصرية العامة تأليف : Spitta Bey ص ٣٩٨ .

(٦) ورد مثل ذلك نادراً فى الشعر القديم ، انظر الأعشى قصيدة ٢٠ بيت ٤٩ . أما اليوم فهو كثير الاستعمال .

نجده يحذف فى مواضع مختلفة أداة التعريف من اللفظ المضاف لوصفه : مشايخ البصريين (ص ٢٨ س ١٤) أو علماء البصريين (ص ٥٤ س ٢٣) .

وهذا التركيب : فى يوم الأحد ، ربيع الأول على سبيل الإضافة الخ له نماذج قديمة ، وإن لم تجد اعترافاً من النحاة ؛ وهى جارية باطراد فى الاستعمال الحديث .

كذلك من الشعبى استعمال المجرور بدلا من المرفوع ، مثل (ص ٣٢٩ س ٣) كونين ، بدلا من : كونان ؛ ونسختين ، بدلا من نسختان (ص ٢٧٤ س ٢٦ ؛ ٢٧٥ س ٥ ؛ ٢٧٦ س ٦) .

(١٣)

اللغة العربية فى عهد السلجوقيين

لم تــكد تعمَّر قرنين من الزمان مرحلة « عربية الأدب الفصحى » فى أوائل العصر الإسلامى الأوسط ، تلك المرحلة التى بدأت فى الثلث الأول من القرن الرابع — العاشر ، مع الانحلال النهائى للدولة العباسية ، والتى نشرت لواء عربية الأدب فوق كافة ربوع العالم الإسلامى ، شعاراً موحَّداً ، ورباطاً وثيقاً .

ذلك أن الغارات التى نشطت منذ بداءة القرن الرابع — العاشر ، فيما وراء النهرين ، والتى أشعل نيرانها السلجوقيون ، بعد أن دخلوا فى المحيط الإسلامى ابضع عشرات السنين من قبل ، مقبلين من أبعد نقطة فى حدوده الشمالية — الشرقية ، لم تؤد تلك الغارات من الناحية السياسية فقط إلى إنشاء دولة مدت ظلها ، مع الدول التى خلفتها بحكم التوارث الإقطاعى ، على مناطق مترامية الأطراف فى آسيا الوسطى والصغرى حتى أواسط القرن السابع — الثالث عشر ، فى مدة وجيزة ؛ بل لقد أحدثت أيضاً تغييرات أساسية فى ناحية الإدارة والاقتصاد .

فباستيلاء السلجوقيين على الحكم وصل الأتراك ، الذين ينتمون إلى أواسط آسيا ، والذين اعتنقوا الإسلام فيما وراء النهرين وخراسان ، إلى الرياسة والسلطان ؛ فاتخذوا دولة السامانيين ونظمها نموذجا لهم ، وصارت الفارسية على عهد السلجوقيين لغة سُدّة الملك ، والسفارات الرسمية ، والسياسة ، والأدب والشعر ؛ وأخذت تنافس العربية من خراسان إلى داخل سورية .

وقد كُتب بهذه اللغة كل من كتابى : سياسة نامه ، الذى ألّفه الوزير نظام الملك سنة ٤٨٤ هـ ليقدمه إلى سيده : ملك شاه ؛ والنثر المسبوك ، الذى ألّفه الغزالى لمحمود ، خلف ملك شاه .

وإذا نسب إلى ابن محمود هذا ، السلطان محمود (حكم ٥١١ — ٥٢٨ هـ) أنه كان جيد الدراية بالعربية[1] ، فلا يقصد من ذلك إلا أنه تلقى تعليما مؤسساً ، لأن العربية قد حفظت مكانتها الفذة من حيث هى لغة القرآن ، والعبادة ، والفقه القانونى ؛ ووجدت من أثر السياسة الدينية الشديدة المحافظة ، التى سار عليها السلجوقيون ، عناية أكثر من أى عهد سابق .

نعم طالما تمتع العلماء والكتاب والشعراء ورجال الفنون من قبل ذلك بالحظوة عند الأمراء ، فعادت هذه الحماية الأدبية على تلاميذهم أيضاً عن طريق مباشر ؛ ولكن الأمراء السلجوقيين هم الذين ربطوا تشجيعهم ومؤازرتهم لرجال العلم بالتكليف الرسمى ، والإسناد العملى .

ولما كانوا مقتنعين بأن بقاء سلطانهم ، وأمان دولتهم ، متوقف على طائفة من القضاة ، ورجال الإدارة ، راسخة القدم فى المذهب السنىّ المحافظ ، لا جرم أسّس السلاطين والوزراء والولاة وكبار أصحاب المناصب فى الدولة ، منذ أواسط القرن الخامس — الحادى عشر ، مدارس قام فيها العلماء المقربون (وأحياناً كبار القضاة) على تخريج النشء المطلوب ، لإدارة الضرائب والدخل والخرج ، ورعاية الفقه والقوانين . وقد كان من أثر التحديد العملى لهدف طبيعة التعليم المذكور ، أن صار الفقه القانونى مركز الدائرة فى منهاج التعليم بالضرورة . أما دراسة النحو ، فلم تكن لها إلا دلالة علم اللغة المقدس : sacra philologia ، وكان هدفها تعريف التلاميذ باللغة الفصحى .

وتسمح لنا بنظرة فى طريقة هذا التعليم كتب أبى زكريا التبريزى (٤٢١/١٠٣٠ — ٥٠٢/١١٠٩) ، الذى ظل عشرات من السنين أستاذاً للعربية فى مدرسة الدولة الأولى : المدرسة النظامية ببغداد ، التى أسست سنة ٤٥٩ هـ للفقيه الشافعى أبى إسحاق الشيرازى .

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٥١٩ (١٢٩٩ هـ) .

فهو يذكر فى مقدمة أشهر كتبه : شرح ديوان الحماسة ، كيف اهتدى إلى التفكير فى شرح هذا النص . وهو يصدر فى هذه المقدمة عن الرأى المحافظ المشهور : من أن أشرف العلوم كلها علم الكتاب والسنة ؛ ولا يصح حقيقة معرفتهما إلا بعلم الإعراب ، الدالّ على الخطأ من الصواب ؛ وعلم اللغة الموضحة عن حقيقة العبارات ، المفصحة عن المجاز والاستعارات ؛ وعلم الأشعار . وهو يسوق ، للتنبيه على قيمة الشعر ، الحديث المروى عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) : « إنّ من البيان لسحرا ، وإنّ من الشعر لحكما »[1] ؛ ويذكر أيضاً خبراً عن ابن عباس أنه لم يفسر آية من كتاب الله عز وجل إلا نزع فيها بيتا من الشعر[2] .

وقد ساقه ذلك إلى أشهر المختارات من أشعار العرب : حماسة أبى تمام ، الفصيحة التى تناولها كثير من الشراح . وهو أيضاً كان قد شرحها شرحا مستوفى ، غير أنه وجد أن أكثر تلاميذه يطلبون شرحا يفسر الأشعار بيتاً بيتا ، ليسهل عليهم معرفة ما يشكل فى كل بيت منه ؛ وهكذا عقد عزمه على شرح المختارات مرة أخرى ، وهو يريد فى ذلك أن يبين اشتقاق أسامى الشعراء ، ثم يفسر الأشعار بيتاً بيتا على الولاء ، مع شرح الغريب ، والإعراب ، والمعنى ؛ وذكر اختلاف آراء الشراح السابقين فى المواضع التى اختلفوا فيها ، وإيراد الأخبار ، أى الأسباب والدواعى التى دعت إلى إنشاء الشعر .

وتُبين مقدمة التبريزى المشار إليها أن طلاب العلم ، فى أول مدارس الدولة العليا ، لم يكونوا بحالة تسمح لهم بفهم الأشعار الفصيحة دون شرح أوّلى .

---

(١) الترمذى : أدب ، وانظر مراجع الحديث فى ابن حجر : فتح البارى ح ١٠ ص ٤٤٦ ؛ كنز العمال ج ٢ ص ١١٧ .

(٢) ابن سعد ج ٢ قسم ٢ ص ١٢١ س ٢ ؛ ويتعلق بذلك خبر الخارجى نافع بن الأزرق عن ابن عباس ، المتضمن أسئلة عن مواضع من القرآن ، وتفسير ابن عباس لها ، مستشهداً على تفسيره بأقوال من شعر العرب . وقد وردت هذه الرواية على صور مختلفة كثيراً ؛ انظر المبرد : كامل ص ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ؛ جمهرة أشعار العرب ؛ السيوطى : إتقان ص ٢٨١ — ٣٠٩ وغير ذلك .

وشرح التبريزى ، الذى أريد به أن يسد هذه الحاجة ، والذى احتفظ بمكانته ، من حيث إنه عون مريح على قراءة هذا الديوان ، حتى يومنا هذا ، إنما هو مجموعة تضم ، فى مهارة وحذق ، نتائج الجهود التى بذلها علماء اللغة القدامى .

فمثلا فقه لغة الأعلام لشعراء الديوان مأخوذ برمته من مختصر ابن جنى (المتوفى ٣٩٢ هـ) المختص بهذا الموضوع : المبهج فى أسماء شعراء ديوان الحماسة [١] ، دون تسمية ذلك المصدر .

كما يظهر أن الأخبار عن الحوادث التى هيأت الدواعى الخاصة لإنشاء الأشعار ، ترجع بصورة عامة إلى شرح أبى رياش [٢] .

وكذلك شرح التبريزى للمعلقات لا يزيد زيادة تذكر على خلاصة بحوث علماء اللغة فى القرن الرابع — العاشر ، كما يتبين ذلك من موازنته بشرح ديوان الحماسة الأسبق منه ؛ ولـكنه يمتاز أيضاً باختصاره وشموله .

ومما يتّسق مع هذه الطريقة المتجهة اتجاهاً كلياً إلى سدّ حاجات التعليم ، أن التبريزى قد تناول كلا من كتاب الألفاظ ، وإصلاح المنطق لابن السكيت بالدراسة الجديدة الدقيقة : التهذيب ، حيث أكمل النصوص ، وذكر أسماء الشعراء ، وشرح الغامض من أبيات الشواهد لفظاً ومعنى [٣] .

وخلف التبريزى فى المدرسة النظامية زميله ، وسليل وطنه ، من مدينة استراباذ : على بن أبى زيد (المتوفى ٥١٦ هـ) [٤] .

---

(١) طبع بالقاهرة ١٣٤٨ هـ .

(٢) انظر فى : أبى رياش ، ياقوت : إرشاد ج ١ ص ٧٤ فما بعدها ، وشرحه لديوان الحماسة ذكر فى خزانة الأدب عدة مرات .

(٣) كانت لغة التبريزى الأصلية الفارسية بلهجة أذربيجان ؛ انظر القصة المروية فى ذلك عند السمعانى : أنساب ١١٠ ب ، وذكرها ياقوت فى الإرشاد ج ١ ص ١٧٣ ؛ ونقل ياقوت فى معجم البلدان عن التبريزى أنه كان ينطق : تبريز ، بكسر التاء ؛ وليس معنى هذا أنها تنطق كذلك فى الفارسية ، وإنما هو تعريب منه لذلك اللفظ ، لأن المترمتين اللغويين لا يعترفون باسم على وزن تفعيل بالفتح .

(٤) انظر : نزهة الألباء ص ٤٤٨ ؛ ياقوت : إرشاد ج ٥ ص ٤١٥ — ٤٢٠ ؛ السيوطى : بغية ص ٣٥١ .

وتدل نسبته التى عرف بها : الفصيحى ، على وجهته وهدفه العلمى ؛ وهو يدين بهذه النسبة لولعه بكتاب الفصيح لثعلب ؛ الذى كان يحفظه و يكثر من دراسته .

ولما كان مجاهراً بنزعته الشيعية ، لا يدارى فيها ولا يوارى ، فقد اضطر إلى النزول عن التدريس بالمدرسة النظامية لأبى منصور الجواليقى (٤٦٦ — ٥٣٩ ﻫ) الذى تسامت عقيدته السُّنيّة على كل مظنة .

وقد عُنى الجواليقى — على النقيض من أستاذه التبريزى — عناية خاصة بمتن اللغة العربية . وكتاب المعرّب [١] ، من بين مؤلفاته ، يعدّ مختصراً — مريحاً — لأعمال أجيال سالفة من الباحثين ، ولكنه لا يكاد يحتوى على رأى جديد [٢] . كما أن شرحه على كتاب : أدب الكاتب لابن قتيبة [٣] ، مجهود جد متواضع ، يتلاشى أمام الأعين ، إذا وازنّاه قبل كل شىء بالشرح النفيس القيمة للنقادة البطليوسى [٤] .

والصورة التى يقدمها التبريزى لانحطاط مستوى الثقافة اللغوية فى بغداد إبّان القرن الخامس — الحادى عشر ، تجد ما يؤيدها ويكملها فى كتاب عن اللحن اللغوى على ألسنة الطبقات المثقفة : درّة الغوّاص ، فى أوهام الخواص ، الذى ألفه معاصر للتبريزى ، هو الحريرى ، صاحب المقامات المشهور (المتوفى سنة ٥١٦/١١٢٢) .

وكما يؤذن به العنوان لا يعنَى الكتاب المذكور بالأخطاء اللغوية الجارية على لسان الجماهير العامة من الشعب ، التى كان يوجد إذ ذاك عدد كبير من المؤلفات فيها ، بل بأخطاء الطبقات الرفيعة ، أى الأوساط التى كان الحريرى نفسه ينتمى إليها بأصله ومرتبته .

---

(١) نشره إدوارد سخاو فى ليبزج سنة ١٨٦٧ م ، عن مخطوط فى ليدن ؛ وأكمل شبتابك بعض ما فيه من السقط بوساطة مخطوطين فى دار الكتب المصرية (ZDMG 33 208 - 224) وتوجد نسخة ناقصة من الأول والآخر فى ميونيخ ؛ فهرست جلازر ١٢٣ .

(٢) انظر المعرب ص ٢٦ س ١١ .

(٣) طبع بالقاهرة ١٣٥٠ ﻫ .

(٤) نشره : Thorbecke فى ليبزج ١٨٧١ ؛ وتشتمل طبعة الجوائب باستانبول على شرح الشهاب الخفاجى على درة الغواص أيضاً .

فقد كان الحريرى صاحب الأخبار بالبصرة ، كما أن أباه لم يكن من الأغنياء فحسب ، بل كان كذلك رجلا ذا ثقافة خاصة[١] ، بحيث اهتم بأن يتلقى ابنه العلم على أشهر نحاة البصرة لذلك العهد : الفضل بن محمد القصبانى[٢] .

والحريرى يمثل مبدأ « تنقية اللغة العربية » المتزمّت ، والأخطاء التى يثيرها فى درة الغواص ، هى فى أغلب الحالات نفس الأخطاء التى لاحظها ابن قتيبة قبل ذلك بقرنين ونصف فى كتابه : أدب الكاتب ؛ محلّيات تسربت تدريجاً إلى لغة المثقفين .

بيد أن أعظم من تلك الأحوال إفادة ، ما ذكره الحريرى من الأخطاء التى وقع فيها معاصروه من شدة حرصهم على سلامة التعبير ، فلم يصيبوا القصد ، لتلاشى الشعور اللغوى ، والذوق العربى السليم عندهم ، تجاه طبيعة اللغة الفصيحة .

وهكذا نراهم يستعملون مثلا الإعراب ، فى حالة سرد الألفاظ دون تركيب جُمَلى ؛ فهم يعدون : واحدٌ ، اثنان ، ثلاثة الخ (ص ١٧١) بالإعراب ؛ مع أن الإعراب إنما يصح فى حالة التركيب ، وفى سياق الجملة ؛ ولهذا تستغنى مجاميع الحروف المذكورة فى أوائل السور عن كل إعراب ، ولا تقبل الجمع ؛ فمثل صيغة : حواميم ، بمعنى السور المبدوءة بحاميم ، إنما هى مسخ وضع بدلا من : آل حاميم ، أو ذوات حاميم .

ومن الترتيب الخالى من الإعرابْ : بين بين ، صباحَ مساء ؛ وهما ليسا منصوبين على الظرفية ، وإنما ختما بالفتحة مراعاة لجمال الصوت . ولكن معاصرى الحريرى يقولون بدلا من التعبير الأول : بين البين (ص ٦٣) ، على حين يستبدلون من الثانى خطأ : صباح مساء ، على الإضافة أيضاً .

(١) يؤخذ هذا من درة الغواص ص ٧٩ س ١ .

(٢) ذكره الحريرى فى درة الغواص ، ص ٣١ ، ٤٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٥ ؛ ويؤخذ من نزهة الألباء لابن الأنبارى ص ٤٢٥ (انظر ياقوت : إرشاد ج ٦ ص ١٤٣ والسيوطى : بغية ص ٣٧٣) أنه مات فى السادس من صفر ٤٤٤ هـ ؛ فإذا صح هذا فلا بد أن يكون ميلاد الحريرى متقدماً على ما ذكر بعشر سنوات على الأقل .

ويدل على اضطرابهم وعدم تمكنهم فى استعمال الإعراب مالاحظه الحريرى من أنهم يخلطون بين : بكم ثوبك مصبوغا ، وبكم ثوبك مصبوغ : فالأول سؤال عن ثمن الثوب ، والثانى سؤال عن ثمن الصباغة ؛ والفرق بينهما مثل الفرق بين : فى دارى زيد قائماً ، أى زيد فى دارى وهو قائم ؛ وفى دارى زيد قائم ، أى زيد قائم فى دارى[1] .

كذلك تلاشى عندهم الشعور بالفرق بين المضارع المرفوع والمنصوب والمجزوم ؛ ولذلك استعملوا فى أمر الغائب صيغة المضارع المرفوع : يعتمد ، بدلا من الصحيح : ليعتمد .

وكذلك لم تعد لهم ألفة بصيغة المضارع المؤنث للمخاطب والغائب فى حالة الجمع ، التى استعيض عنها فى اللغة الدارجة بصيغة المذكر ، والتى امتازت فى اللغة الفصيحة بنون النسوة ، مثل : يكتبن وتكتبن ، إزاء المذكر : يكتبون وتكتبون ، فعمدوا إلى التفرقة بين الجنسين بمجرد التاء أول الفعل فى حالة جمع المؤنث الغائب (تكتبن) ظناً منهم أن التاء هى علامة التأنيث فى صيغ المضارع .

وعلى عهد الحريرى كان التنوين قد أهمل فى اللغة الدارجة منذ زمن طويل ، ولهذا كان خطأ المثقفين فى استعماله غير قليل . فقد صاغوا مثلا : دنياً ، أى عالماً (ص ٧٠) ، وهو استعمال غلط ؛ ومن العجيب أن ابن برى دافع عنه ، كما تسرب إلى الحديث فى نصوص البخارى[2] ، على الرغم من أن أكثر النحاة قد أدركوا الوجه الصحيح من أن « دنيا » على أنه وصف لمؤنث أدنى غلبت عليه الاسمية ، لا يقبل التنوين أيضاً فى حالة التنكير .

وزيادة على ذلك ، اختلطت فى العربية المولدة علامات التأنيث ، من التاء والألفين المقصورة والممدودة ، وهذا يوضح أن معاصرى الحريرى غيّروا لفظ : عَزَلاء

---

(١) انظر الخفاجى على درة الغواص ، ص ٢٤٧ س ١ .
(٢) القسطلانى ج ١ ص ٥٦ .

بمعنى فم المزادة ، إلى عَزْلة (ص ١٦٦) ، واختفى تدريجاً أيضاً الفرق بين ألف القطع وألف الوصل ، ونشأ من ذلك أن وقع بعض المثقفين فى أخطاء من هذا النوع .

وينحى الحريرى بشدة اللائمة (ص ١١٨) على صيغة : ابنت ، بكسر الباء مع همزة الوصل ، وهى خلط بين صيغتى : بنت وابنة .

وأُجرى حكم الفعل المعتلّ الياء على الفعل المضعّف فى اللغة الدارجة ؛ ولهذا بالغ معاصرو الحريرى فى إجراء الفعل المضعف مجرى السالم ، فقالوا : سارره ، بدلا من : سارّه (ص ٨٥) ؛ كما صاغوا من أفعال معتلة أوزاناً على قياس الفعل الصحيح ، مثل : مَشْوَرة ، بدلا من مشُورة (ص ٢١) ، وكما فى اسمى المفعول : مبيوع ، بدلا من : مبيع ، ومصوون ، بدلا من : مصون (ص ٥٩) .

كذلك لم تتوفر لديهم الخبرة باستعمال فعلى المدح والذم : نعم وبئس ، لعدم جريانهما فى اللغة الشعبية ، ففى اللغة الفصيحة يتطلّب كلا الفعلين إلى جانب الاسم المسند إليه المدح أو الذم ، اسما مرفوعاً آخر يعين موضوع الجملة برمّتها : نعم الرجل زيد ، بمعنى : أىّ رجل جدير بالمدح هو زيد ، أما : نعم الرجل ، فقط ، فهو مدح لمبهم بلام الجنس ، محتاج إلى التمييز . وإذا قيل : نعم ما فعلت ، فهو كذلك محتاج إلى تمييز المفعول ؛ وعلى هذا خطأ الحريرى ما يقوله معاصروه ، مثل : نعم من مدحت ، وبئس من ذممت[1] .

وكان اسم الموصول القديم فى اللغة الشعبية قد تحول إلى الصيغة الجامدة : اللّى ؛ واستعمل أيضاً فى تصدر الجمل المصدرية ، مثل : أنْ فعل كذا ؛ ولهذا استعمل المثقفون على عهد الحريرى صيغة اسم الموصول القديم أيضاً : الذى ، متصدرة الجملة المصدرية ، فقالوا مثلا : الحمد لله الذى كان كذا ، أى : أنْ كان كذا (ص ١٦٢) .

ومن المشهور فى قواعد النحو أن الفعل المسند إلى المثنى والجمع الظاهرين الواقعين

(١) انظر شرح درة الغواص للشهاب الخفاجى ص١٨٨ وانظر : Nöldeke NBSS 219

بعد الفعل ، يلازم حالة الإفراد ، ولكن اللغة الشعبية طابقت هنا أيضاً بين الفعل والفاعل (كما فى لغة أكلونى البراغيث) ، وعلى هذا طابق معاصرو الحريرى أيضاً بينهما (ص ١٠٨) .

كما عاملوا لفظى : كلا وكلتا معاملة المثنى ، فأخبروا عنهما بصيغة المثنى ، وقالوا : كلا الرجلين خرجا ، وكلتا المرأتين خرجتا ، مع أن الفصيح : خرج وخرجت ؛ وإن ورد الاستعمالان فى شعر الفرزدق [١] ، ديوان ص ٣٤ بيت ١ (درة ص ١٠٣) .

وعلى حين تقع فى الأمثلة التى ذكرنا أخطاء ناشئة من شدة الحرص على سلامة اللغة ، وموافقة القواعد ، تدل أخطاء أخرى أثارها الحريرى أيضاً على مبلغ ضعف شعور المثقفين ، وقلة خبرتهم بالعربية الفصيحة .

فهم لم يعودوا يلاحظون أن أسماء الآلات تتميز بالميم المكسورة فى أول الكلمة عن أسماء الأمكنة والأزمنة ؛ ولذلك يستعملون مثلا لفظ : مَروحة ، لا فى معنى الموضع الكثير الريح ، بل فى معنى ما يروّح به (ص ١٥٦) .

كما لم يفرقوا بين الاسم الدالّ على المرّة الواحدة وهو : فَعلة بفتح الفاء ، والاسم الدال على هيئة الحدث وهو : فِعلة بكسر الفاء ، والاسم الدال على القِلّة ، وهو : فعلة بضم الفاء (ص ١٧١) .

وأهملوا جمع القلة ، فقالوا مثلا : ثلاثة شهور ، بدلا من : ثلاثة أشهر (ص ١٦٣) .

واستعملوا فى صيغة الاستفهام لفظى : أو ، وأم ، دون فرق ولا تمييز ، على حين أن الفصيحة تستعمل : أو ، فى الاستفهام عن أحد الشيئين ، مثل : أزيد عندك أو عمر ؟ بمعنى هل أحد هذين عندك ؟ وتستعمل : أم ، فى الاستفهام عن التعيين ، نحو : أزيد عندك أم عمرو ؟ بمعنى قد علمت أن أحدهما عندك ، ولكن أيهما الذى عندك ؟ (ص ١٩٥) .

---

(١) وقد اجتمعا فى قوله :

كلاهما حين جد الجرى بينهما قد أقلعا وكلا أنفيهما رابى

وانظر الخفاجى على الدرة ص ١٤٧ .

كما لم يفرقوا بين : نعم وبَلَى ، فيضعون كلا منهما موضع الآخر ؛ وموضع نعم هو جواب الاستخبار المجرد من النفى ، وموضع بلى هو جواب الاستخبار عن النفى ؛ ولهذا وقعت فى جواب قوله تعالى : « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ » (آية ١٧١ من سورة الأعراف) ؛ قال ابن عباس : لو أنهم قالوا : نعم لكفروا ، (ص ١٩١) .

وأخيراً يمكن التنبيه إلى الأحوال التى لم يلاحظ فيها معاصرو الحريرى قواعد حذف علامة التأنيث وإثباتها . فقد صاغوا قوالب مثل : امرأة شكورة وصبورة ، على حين أن هذه التاء إنما تدخل فى اللغة الفصيحة على وزن : فعول بمعنى مفعول ، لا بمعنى فاعل (ص ١١٢) ؛ ومثل هذا قولهم جُبّة خلقة ، والصواب جُبّة خلق ، لأن العرب ساوت فيه بين نعت المذكر والمؤنث (ص ١٦٣) . وكما قالوا ضَبُعَة ، (ص ٧٤) ورِخْلَة وهى الأنثى من ولد الضأن ، والصواب : ضبع ورِخْل ، لأنهما لا يكونان إلا مؤنثين .

وينكر الحريرى جمع : جوالق على : جوالقات ، وصوابه : جواليق ؛ والجوالق الغرارة . (ص ١٩٠) ؛ على أن جمع المؤنث السالم قد انتشر انتشاراً واسعاً ، على حساب جمع التكسير، للمفرد المذكر ، بحيث ذكر الحريرى عددا كبيرا من الشواذ فى ذلك الباب : جمع حمام ؛ خيال ، جواب ، مكتوب ، مقام ، مَصَام ، إوان ، وهو حديدة تكون مع الرائض ، وبوان بكسر الباء وضمها وهو عمود فى الخباء ؛ وجمع أسماء الشهور : شعبان ، شوال ، المحرم ؛ والألفاظ الأعجمية : ساباط ، سرادق ، إيوان ، هاوُن ، سِجِلّ ؛ كما فى جمع تصغير المفرد المذكر مثل : دريهمات وبُويبات .

وهذه الحرب التى حمل الحريرى لواءها فى درة الغواص ، لم تحتدم تجاه أخطاء متفرقة من الحماقات اللغوية ، أو الاستعمالات الشعبية ، بل هى موجهة إلى الروح اللغوية السائدة فى العصر الأوسط على الإطلاق .

وهو يمثل مذهب اللغويين البصريين المتطرف المتزمت فى « تنقية اللغة العربية » ؛ فهو يتطلب مثلا أن يقال : جاء القوم بأجمُعهم ، بضم الميم ، على أنه

جمع للفظ : جمع ؛ على حين يجوّز ابن قتيبة[١] وابن السكيت ، إلى جانب هذا ، أن يقال : بأجمعهم ، بفتح الميم ، على أنه لفظ : أجمع ، المستعمل فى التأكيد[٢].

وهو يقصر استعمال لفظ : ثدى ، على : ثدى المرأة ، على الرغم من ورود هذا اللفظ للرجل أيضاً ، حتى فى الحديث[٣].

وفى تأريخ الأيام يغلّط الطريقة المتبعة (ص ٧٥) : فى عدهم أيام الشهر ، بأن يقولوا : لأول يوم من الشهر ، مستهلّ الشهر ، لعشرين خلت من شهر كذا ؛ سالكا فى التاريخ مذهب المتزمتين القدماء[٤] كما ذكره أبو على الفارسى فى تذكرته : وعلى هذا يقال فى أول الشهر : أوّلَ يوم من شهر كذا ، أو غرّة شهر كذا ؛ واليوم الثانى : لليلتين خلتا ؛ واليوم الثالث إلى العاشر : لثلاث ليال خلون ، لأربع ليال خلون الخ ؛ واليوم الحادى عشر إلى الخامس عشر : لإحدى عشرة ليلة خلت الخ ، واليوم الخامس عشر : منتصف شهر كذا ؛ واليوم السادس عشر إلى اليوم العشرين : لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر كذا الخ ؛ واليوم الحادى والعشرين إلى الثامن والعشرين : لعشر ليال بقين من شهر كذا الخ ؛ واليوم التاسع والعشرين لليلتين بقيتا من شهر كذا ؛ واليوم الثلاثين : سلخ شهر كذا[٥].

ويتمسك الحريرى ، فى النظرية المتعلقة بلفظى : من ومنذ ، بمذهب سيبويه ، الذى يخصص الأولى بابتداء المكان ، والثانية بابتداء الزمان . ولم تقتصر معارضة ذلك على الكوفيين ، بل عارضه أيضاً بعض العلماء من صفوف البصريين ، كالمبرد[٦].

---

(١) أدب الكاتب ص ٤٤٣ .

(٢) إصلاح المنطق ج ١ ص ٢١٢ .

(٣) انظر الشهاب الخفاجى على درة الغواص ، وانظر : Nöldeke. NBSS 121

(٤) انظر أدب الكتاب للصولى ص ١٨٠ فما بعدها .

(٥) هذا التزمت فى التعبير لا يعول عليه أكثر العلماء ؛ انظر الشهاب الخفاجى على الدرة ص ١١٤ — ١١٧ .

(٦) انظر الإنصاف فى مسائل الخلاف لابن الأنبارى ص ١٦٣ فما بعدها .

وفى مسألة الألفاظ الأعجمية ، يمثل الحريرى الرأى القائل بوجوب ضغط اللفظ الأعجمى فى قالب عربى ، وطبعه على ذلك النحو بالطابع العربى .

وعلى هذا يجب أن يقال : شِطرنج بكسر الشين ، بدلا من فتحها ، ودستور بضم الدال بدلا من فتحها ، وسِرداب بكسر السين بدلا من فتحها ، وهاوُن بضم الواو بدلا من فتحها (ص ١٣١ ، ١٠١ ، ٤٩ ، ١٧٧) ولكنها قوالب بقيت غريبة فى الاستعمال الحىّ ، لأنها لديه غير مألوفة ، وجرأتها — فى بعض الأحيان — على تحويل المعنى والدلالة كما فى تغيير اسم المدينة المعروفة : سامرّاء ، إلى : سُرّ من رأى (ص ١٨٠) .

كما تمسك الحريرى بمذهب البصريين فى النسبة ، من وجوب النسبة إلى صيغة المفرد ، ما لم تكن صيغة الجمع عَلَما (ص ٥٣) على الرغم من ورود صيغ قديمة ، مثل : الأنصارى .

وجدّد التنبيه — الذى لم يجْد فتيلا — إلى منع النسب إلى مجموع صيغة التركيب الإضافى وما شاكله ، فلا يقال : رامهرمزى ودارقطنى ، بل رامى ودارى (ص ١٥٣)

أما تصحيحه تصغير مختار على : مخيِّر ، وتخطئته مخيتر ، فهو ضرب من ضروب التزمّت البالغ أقصى درجات التطرف ، ومثلها كثير فى أوزان التصغير[1] .

وفى كل هذا ، لم يخل الحريرى من الترجيح الاختيارى ، بل التصحيح الخاطئ تماما فى بعض الأحيان .

فهو يذهب (ص ٩٩) — مع ابن قتيبة[2] — إلى أن لفظ : بصُر ، بضم الصاد ، خاص برؤية البصيرة ، وأبصر ، خاص برؤية العين ؛ على حين أن فى آية (١١) من سورة القصص : « فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ » ، أى رأته بالعين .

وهو يرى أن لفظ : ركاب : أى موكب السلطان مثلا ، خطأ ، لأنه يرى أن الركاب اسم يختص بالإبل (ص ١٣٠) ، ولكنه أخطأ فى ذلك ، لأن معنى

---

(١) انظر نزهة الألباء ص ٢٠٠ .

(٢) أدب الكاتب ص ٣٨٠ .

الركاب هنا هو آلة الركوب المعلقة فى السرج ، ويستعمل فى كل من الفارسية والتركية أيضا ، كالعربية ، كناية عن سير الملك ، تأدبا مع الملوك[١]

وهو يريد تفسير لفظ : زوج ، بأنه أحد الزوجين ، المرأة أو الرجل ، ويخطئ إطلاقه على مجموع الاثنين أيضا (ص ١٨٥) وهو خطأ لأن الاستعمال الثانى أيضا معروف قديما وحديثاً .

ولفظ : قَيْنَة : معناه فى لغة العرب الجارية المغنية بوجه خاص ، والأمَة بوجه عام ؛ وإذا قصره الحريرى على التفسير الأخير ، مزيفاً الأول (ص ١٩٧) فهو يتابع فى ذلك أبا عمرو بن العلاء[٢] ، الذى ربط هذا اللفظ بكلمتى : قين ، أى حداد ، وقَانَ القين الحديد ، سوّاه ، ووجد معنى : الأمة ، بذلك أنسب ، لما فيه من معنى الخدمة والامتهان .

وينتقد الحريرى (ص ١٢٩) مع ثعلب[٣] : ركض الحصان بمعنى جرى ، مفسراً معناه بضرب الحصان بالرجلين لكى يسرع . وهذا خطأ لأن الفاعل ورد لازماً بمعنى جرى ، ومتعديا بالمعنى الذى ذكره .

وهو يفرق — بحق — بين : بَشَارة بفتح الباء ، وبِشارة بكسرها ، وبُشارة ، بضمها ، فهى بالفتح الجمال والحُسْنُ ، وبالكسر ما بشرت به من بشرى ، وبالضم حق ما يعطى على البشارة بالكسر ؛ أما قوله : إن البِشارة بالكسر لا تستعمل إلا فى الخير ، فيرد عليه بأنها تستعمل فى الشر مجازاً ، مثل قوله تعالى : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » (آية ٢٤ من سورة الانشقاق) .

أراد الحريرى أن ينفخ من روحه فى العربية القديمة الفصيحة ، ليبعثها إلى الحياة من جديد ؛ بيد أن القوة الكامنة ، والنشاط المتجدد فى حياة اللغة الشعبية الدارجة الحية ، كان أقوى من كل مبادئ المتزمتين وتعاليمهم .

---

(١) انظر الشهاب الخفاجى ص ١٧٣ ؛ وانظر : EI III 251

(٢) انظر فى هذا : Geyer : Zwei Gedichte (SWA 192,3) 2,61

(٣) فصيح ثعلب ص ٩ س ٢ (نشر : Barth)

نعم ، بل لقد انزلق الحريرى نفسه فى التيار ، فلم يندر عنده اللحن والخروج على القواعد التى قررها فى « الدرّة » .

فبدلا من لفظ : أول ، بضم اللام ، تعثر قلمه فكتب : أولا[1] ، اللفظ الذى خطأه (فى ١٢٦) .

وعلى النقيض من تعاليمه (ص ١٨٢) ، استعمل لفظ : حساب ، بمعنى : حسبان[2] .

وهو يعلم (ص ١٢٩) أن فعل : سُقط فى يده ، فعل غير شخصى ملازم للبناء للمجهول ، ومع ذلك يكتب فى مقاماته (ص ٣٩٦ س ٣) سُقط الفتى فى يده .

وهو يؤكد فى الدرّة (ص ٩٥) أنه لا يجوز صوغ الرباعى المضعف من أسماء العدد ، بل الثلاثى فقط مع أنه يقول فى مقاماته : فتربع صاحب ميمنته فى نظمه ، وتسبع صاحب ميسرته على رغمه ؛ فخالف نفسه .

وهو ينبه فى كلامه (ص ٤٣) إلى أن لفظ كافة لا يعرّف باللام ولا بالإضافة ، وأنه لابد من تنكيره ونصبه على الحال ، حتى وإن قال ذلك ابن قُريعة القاضى (المتوفى ٣٦٧) ؛ ومع ذلك يقول هو فى موضع آخر (ص ١٧٦) : اتفق كافة أهل الملل .

وهو يزعم أن وزن : افعلّ ، يقال فيما تمكن واستقر وثبت واستمر ؛ أما إذا كان اللون عرض بسبب يزول ومعنى يحول فيقال فيه : افعالّ ، مثل اصفارّ واحمارّ . ولكن هذه الدعوى غير معروفة ؛ على حين أنه نفسه يقول فى المقامة الحرامية : فازورّت مقلتاه واحمرّت وجنتاه ؛ وقال فى موضع آخر : اسود العيش الأبيض .

وهو يحذر من سوء استعمال علامات التأنيث ، ولكنه يقول (ص ٥٥ س ٤) : غزالة ، بمعنى ظبية .

---

(١) درة ص ٧٦ س ١٤ .

(٢) انظر الخفاجى ص ٢٣٣ س ٣ .

وبهذا يقدم الحريرى البرهان على أن الملاحظات العميقة ، والتعليمات الدقيقة لمذهب المتزمتين الذى يمثله فى الدرة ، لم تكن — عملياً — مستطاعة التنفيذ .

هذا ، بيد أن كلا من النتاج الأدبى اللامع ، كمقامات الحريرى ؛ والملاحظات الدقيقة ، البعيدة الغوص على الأخطاء اللغوية ، عند المثقفين ، كدرة الغواص ، لم تستطع أن تقف التطور اللغوى فى سبيله التى سلكها .

فلا ذلك الانحلال المطرد فى الدول الإسلامية ، ولا الاضطرابات الداخلية فى دولة السلجوقيين ، ولا تلك الحروب العنيفة المحتدمة فى وجه الصليبيين (١٠٩٥ — ١٢٩١ م) ، ولا الدويلات التى قامت بالمشرق ، كانت تسمح بتهيئة الجو الصالح . والبيئة المواتية للعناية بالتراث الأدبى التليد .

حقاً لقد لقيت كتابة الحريرى عن اللحن اللغوى فى دوائر الطبقات الخاصة ، اهتماماً كبيراً عند صدورها ، وأثارت حلقات من النزاع المستعر الذى تجاذبه عدد من مشاهير اللغويين فى القرن السادس — الثانى عشر . بيد أن كتب مناقشاتهم ومنازعاتهم إن دلّت على شىء ، فإنما تدل على مبلغ ضعف الإحساس اللغوى العام ، وفى دوائر اللغويين الإخصائيين بوجه خاص ؛ كما تدل على مدى ضعف ملكة النقد والتمحيص عندهم ، بحيث لم يعودوا يستطيعون إدراك الفروق الأساسية بين العربية الفصيحة ، والعربية المولّدة ، فاتجهوا إلى الاعتراف بألفاظ ، وقوالب ، وتعبيرات مولدة ، بل شعبية دارجة أحياناً ، على أنها صحيحة فى العربية الفصيحة ، ما دام قد ثبت ورودها فى كتابة القرون الثلاثة الإسلامية الأولى ؛ وهم حملوا — من أجل ذلك — على تزمّت الحريرى حملة شعواء ، واختلفوا فيما بينهم على أى الظواهر اللغوية التى غلّطها الحريرى يمكن تصحيحها وتسويغها ؟

وهكذا كتب صاحب الحواشى على الصِّحاح ، المصرى المشهور : ابن برّى (٤٩٩ — ٥٨٢ هـ) تعليقات برهن فيها على صحة عدد كبير من العبارات التى خطّأها الحريرى ، وعدّها ابن وطنه الشهاب الخفاجى (حوال ٩٧٩ — ١٠٦٩ هـ) بعد

حوالى خمسمائة عام ، متأثراً بمذهبه ، جديرةً بإدماجها فى شرحه على درّة الغوّاص[١] .

وهذه التعليقات تنمّ على ضعف وتخاذل كبير فى ملكة النقد والحكم الصحيح ؛ فمثلا لا يستطيع ابن برى أن ينكر أن مادة : ش وش ، غريبة على العربية ، وأنها من خصائص اللغة المولّدة[٢] ؛ بيد أنه يصحح عربيتها ، اعتماداً على أن الليث صرح بذلك[٣] .

كما حاول أن يمحو الفرق الواضح بين عبارتى : مخوف ، أى حصل الخوف منه ، ومخيف ، أى مولّد للخوف ، بأنه فى حالة قولنا : الطريق مخوف لا بد من تقدير مفعول محذوف ، تقديره : أخاف الطريق زيدا الهلاك ، وإذا قلنا الطريق مخيف ، فالطريق ليس هو المخوف منه فى المعنى ، وإنما المخوف منه فى المعنى هو الهلاك والعطب ، واستنتج من ذلك أن مآل المعنيين واحد ، وكلا التعبيرين صحيح[٤] .

وكذلك الأمر فى حجيّة الحديث فى شئون اللغة ، فكون الحديث غير حجة فى أمور اللغة ، لعدم التعبد بلفظه ، حقيقة كان فى وسع كل عالم باللغة ، حتى فى هذا العصر المتأخر ، أن يكون على علم منها ؛ ولكن ابن برى لا يكتفى باتخاذ الحديث مصدراً للغة ، بل يعوّل فى ذلك أيضا على الروايات التى ثبت ضعفها ، حيث آثر الأخذ بالرواية : « بُعِثْتُ إلى الأسود والأبيض » بدلا من الرواية المستفيضة « بُعِثْتُ إلى الأسود والأحمر » ، أى إلى العرب والعجم ، واستدل بذلك على صحة التعبير الأول فى المعنى المذكور[٥] .

أما ما كان يفهمه ابن برى من مبدأ « تنقية اللغة العربية » فيدل على ذلك كتابه : « أغلاط الضعفاء من أهل الفقه من أقطار مختلفة »[٦] ، وهو عبارة عن

---

(١) انظر الشرح المذكور ص ٦٣ س ١١ ، ص ٧٣ س ١١ ، ص ٩٨ س ١٧ .

(٢) انظر فى تسربها من الآرامية : Nöldeke. ZDMG 537

(٣) خفاجى ص ٦٢ س ١٧ .

(٤) خفاجى ص ٢٤٨ س ٣ .

(٥) خفاجى ص ٢١٩ ، وانظر فى الحديث : مسلم كتاب المساجد .

(٦) نشره : Ch. Torrey فى Nöldeke-Festschrift, Orientaliche Studien I. 211 - 224

ثبت جاف لنحو مائة حالة من الاستعمالات اللغوية المنتشرة بين الفقهاء التى يبدلها ابن برى بعبارات يعدها فصيحة ، دون شرح ولا تعليل . ويوجد بينها بعض الأحوال المعروفة من كتب علماء اللغة المتشددين على أنها أخطاء مشهورة : مثل حذف همزة المد فى كلمة : ولاء ، أى السيادة على الرقيق (ص ٢١٨ س ٣) ، ومثل معاملة الفعل المهموز اللام على نمط المعتل اللام (ص٢١٥س ٣) : بِدَاية ، بدلا من : بُدَاءة ؛ (ص٢١٥س٦) مِيضَاتْ ، بدلا من مِيضَأة ؛ ومثل إبدال حرف بحرف دون مسوغ ، مثل (ص٢١٩ س١٢) مَزْدَغَة ، بدلا من : مِصْدَغَة ؛ ومثل (ص ٢١٩ س ٤) نخَّاص ، بدلا من : نخاس ، تاجر الرقيق ؛ و : ص ٢١٩ س ٣ : هَدَر ، أسرع ، بدلا من حَدَر ؛ وص ٢١٩ س ٢ : بَشِيمة ، بدلا من : مَشِيمة ، محل الولد ؛ وص ٢١٩ س ١٢ : دَشِيش ، أى الدقيق الخشن ، بدلا من : جَشِيش[1] . ومثل الخلط بين : قسم بكسر القاف بمعنى : حصة ونصيب ، وبين قسم بفتح القاف بمعنى المصدر أى التقسيم ؛ ثم الأحوال الكثيرة التى استعملت فيها صيغ مولّدة ، مثل : مُصَلّاة ، بدلا من : مُصَلًّى (ص ٢٢٠ س ١٤) ، ومثل : أجِنَّة ، بمعنى حدائق (ص ٢١٦ س ٢) وآصُع جمعاً لصاع بدلا من أصْوُع (ص ٢١٨ س ٧) ومثل : حزْرات بسكون الزاى ، بدلا من فتحها ، بمعنى خيار المال (ص ٢١٧ س ٢) ؛ ثم أحوال مثل : جذْعة بسكون الذال بدلا من فتحها ، بمعنى الحَمَل الصغير (ص ٢١٧ س ٣) وبكرة بتحريك الكاف بدلا من تسكينها ، بمعنى العجلة التى يدور عليها حبل البئر (ص ٢١٦س٤) ومثل : شَوْرَة العروسة ، بدلا من : شوَار العروس (ص ٢٢٠ س ١٤) .

وفى الأفعال يهتم بوجه خاص بالخلط فى تصريف الفعل ، ولا سيما فى أسماء الفاعل والمفعول ، واستعمال المجهول خطأ[2] .

كما اهتم اهتماما خاصاً بالألفاظ الأعجمية التى ينظر إليها ابن برى بنظرة المتزمتين اللغويين ، فهو يطلب : صابوره ، وهو ما تثقل به السفن من متاع ، بدلا من :

---

(١) انظر : R. Mielck, Terminologie und Technologie der Müller- -und Bäcker im islamischen Mittelalter 37

(٢) كنز العمال ج ٢ ص ٣٠٢ .

سابوره ، من الكلمة اللاتينية : Saburra ومعناها الرمل ؛ ويطلب : قَدَس ، ويجمع على أقداس ، ومعناه السطل ، بدلا من الكلمة ، اليونانية الأصل بنفس المعنى : قادوس ؛ ويطلب : جِصّ ، بدلا من : جِبْس ؛ ويطلب : زِنْبِيل بكسر الزاى بدلا من : زَبِيل ، أو زَنْبيل ، بفتحها ؛ ويطلب : مَرْوَرُوذ بتخفيف الراء الثانية بدلا من تشديدها ، وهى كلمة معربة عن : مَرْوِرود ، ناحية من فارس ؛ ومرو اسم نهر. ويطلب جمع اللفظ القبطى : قُمُّس ، على : قوامسة ، بدلا من قامسة ، خالطاً فى ذلك بين الكلمة القبطية المذكورة بمعنى نائب البطرك ، وبين الكلمة اللاتينية الأصل : قُومِس ، وهى تسمية كانت تطلق بالأندلس على رئيس الطوائف المسيحية .

كما التبس عليه (ص ٢٢٠ س ٦) لفظ : بَعُوث ، الوارد فى كتاب منسوب إلى الخليفة عمر[١] ، بمعنى عيد الفصح عند المسيحيين ، فطلب تصحيحه على : بَغُوث ، بالغين المعجمة . ولفظ : بَعُوث يرجع إلى السريانية ، ومعناه فيها بحسب الأصل : صلاة ، ولا يدلّ فيها بوجه عام على مطلق التغنى بالدعاء ، بل معناه عند المسيحيين الملكانيين ، أغنية خاصة[٢] .

كذلك فى تفسير الغريب الوارد فى الحديث ، لا يصادف ابن برى دائماً كثير من التوفيق ؛ نعم هو يفرّق تفرقة صحيحة بين لفظى : باسور وناسور (ص ٢٢٠ س ٨) ، وهما تعبيران وردا فى مجاميع السنة مختلطين مختلفين[٣] ؛ ولكنه يخطىء حيث يصحح (ص ٢١٩ س ١٤) لفظ : أرض بَوْر[٤] ، بفتح الباء ؛ لأن ضم الباء الذى يخطئه هو ، يؤيده اللفظ السريانى : بُورَا ، الذى أخذ منه اللفظ العربى .

(١) كنز العمال ج ٢ س ٣٠٢

(٢) انظر : G. Graf, ZS7, 240 und 244

(٣) انظر البخارى : تقصير الصلاة ، حيث ذكر : بواسير ، على الوجه الصحيح . وسنن أبى داود : صلاة ؛ وابن ماجه : إقامة الصلاة ، حيث ورد على عكس ذلك : ناسور .

(٤) لم يقتصر ورود هذا اللفظ على الحديث المذكور فى لسان الميزان ج ٣ س ٤٢٦ ، كما ذكره العقيلى ، بل ورد كذلك فى مواضع أخرى ، مثل كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أكيدر صاحب دومة الجندل ؛ ابن سعد ج ١٢ ص ٣٦ س ٢١ .

هذا ، وقد كتب أيضاً تعليقات فى مناقشة « درة الغواص » ابن ظفر[١] ، الذى توفى فى « حماة » بعد مغامرات كثيرة سنة ٥٦٧ أو ٥٦٨[٢] ، والذى كتب أيضاً شرحين على مقامات الحريرى .

وعلى نفس الطريقة أيضاً كتب العالم اللغوى البغدادى : ابن الخشاب (المتوفى ٥٦٧ هـ) نقداً على الدرة ، ووقع من أجل ذلك فى نزاع مع « ابن برى » الذى كتب كتابا فى الردّ عليه[٣] . والظاهر أن ذلك الاختلاف حول تصحيح بعض العبارات التى خطأها الحريرى .

وأخيراً تلاشى الإحساس اللغوى تجاه سلامة اللغة كل التلاشى ، حتى عدبعض النحاة ظواهر لغوية مولّدة ، من اللغة الصحيحة الفصيحة ، لمجرد أنها وردت — عرضاً — فى حديث ينسب على أى وجه إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

فقد أراد بعضهم أن يصحح العبارة التى وردت فى شعر رؤبة (قطعة رقم ٢١ آلورد) : كاد أن يفعل ، بدلا من الفصيحة : كاد يفعل ، اعتماداً على أنها وردت فى الخبر : كاد الفقر أن يكون كفراً[٤] ، على أن أبا البركات بن الأنبارى (٥١٣ — ٥٧٧ هـ) قد ردّ على ذلك بأن « هذا الحديث إن صح — لم يرد هذا الحديث فى المجاميع الصحيحة — فزيادة : أنْ ، من كلام الراوى لا من كلامه عليه السلام ، لأنه صلوات الله عليه أفصح من نطق بالضاد »[٥] .

وعلى الرغم من هذا فقد لقى الرأى القائل بحجية الحديث فى أمور اللغة تأييداً مطرداً . ويقال إن أول من اعتمد على الأحاديث من حيث هى حجة فى أمور اللغة[٦]

(١) انظر ياقوت : إرشاد ج ٧ ص ١٠٣ ؛ حاجى خليفة ج ١ ص ٤٨٤ (١٣١٠ هـ) وقد ظن أنه شخصان لاشخص واحد .

(٢) كذا ذكره ابن العماد الأصفهانى الذى كان من معارفه . أما التاريخ الذى ذكره ياقوت فى الإرشاد ج ٧ ص ١٠٢ والذى يذكر فى مواضع أخرى وهو ٥٦٥ ، فهو لا يكاد يصدق ، لأنه قد ثبت أن ابن ظفر ظل يمارس التعليم والاقراء حتى سنة ٥٦٦هـ ، وانظر : ZDMG 42, 626

(٣) انظر حاجى خليفة : كشف الظنون ج ١ ص ٤٨٥ .

(٤) السيوطى : الجامع الصغير ، وانظر ابن الديبع : تمييز الطيب من الخبيث ص ١١٤ ، (طبع ١٣٤٧ هـ) وفيه أحاديث أخرى تشتمل على ذلك التعبير .

(٥) إنصاف ص ٢٣٤ (نشر : Weil) .

(٦) انظر ابن الضائع فى شرح الجمل ، كما هو مذكور فى خزانة الأدب ج ١ ص ٥ س ١٢

هو النحوى : ابن خروف[١] ، الأندلسى ، الذى اختلّ فى آخر عمره ، ومات فى حلب فى أوائل القرن السابع الهجرى ، والذى نال شرحه على : « الكتاب » لسيبويه ، و « الجمل » للزّجّاج ، حظوة كبيرة .

وتبعه فى ذلك أشهر نحاة القرن السابع : ابن مالك ؛ وقد كان عظيم الاعتداد والاهتمام بالحديث ، حتى إنه عاون « اليونينى » على تصحيح نسخة من البخارى ، وألف مصنفاً خاصاً فى تفسير بعض النصوص الصعبة من الحديث[٢] . وهو يرى أن القرآن هو أوثق المصادر وأصحها فى أمور اللغة ، وتجىء أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد ذلك مباشرة فى المرتبة الثانية ؛ على حين أن كلام البدويين من الأعراب فى المرتبة الثالثة[٣] . وقد أدى به هذا إلى تصحيح تعبير مثل : أكلونى البراغيث ، لمجرد أنه ورد مثله فى حديث رواه البخارى ومسلم ، وصيغته : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار[٤] » .

وتوسع الاستراباذى ، الذى كتب حوالى سنة ٦٨٣ هـ شرحه على متن الكافية لابن الحاجب[٥] ، فى صحة الاستشهاد فى أمور اللغة أيضاً حتى بأهل البيت . وبهذا طرأ على طبيعة العربية تحول حاسم .

وهكذا لم تعد عربية الأدب فى العصر الإسلامى الأوسط منذ مختتم القرن الهجرى الثالث ، لساناً طبيعياً لطائفة لغوية من الشعوب ، بل لقد تحولت إلى لغة أقامت قواعد النحو ومبادئها أساساً لتكوينها الحقيق ، وطابعها الداخلى . ولم تعد

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٩٠٠ ؛ السيوطى : بغية ص ٣٥٤ ؛ ياقوت : إرشاد ج ٥ ص ٤٢٠ ؛ وتختلف الروايات فى هذه المراجع اختلافا كبيراً .

(٢) انظر : ZDMG 92 81 f .

(٣) الكتبى : فوات الوفيات ج٢ ص٢٨٨ (طبع ١٢٩٩ هـ) ؛ السيوطى : بغية ص ٥٥ ؛ المقرى ج ١ ص ٦٠٨ .

(٤) البخارى : مواقيت الصلاة ، التوحيد ؛ مسلم : مساجد ؛ مالك : موطأ (زرقانى ج ١ ص ٣٠٨) ؛ النسائى : الصلاة ؛ وفى البخارى : بدء الخلق ، ورد التعبير الفصيح : الملائكة يتعاقبون الخ ؛ وأظهر من ذلك نص الموطأ (زرقانى ج ١ ص ٣٠٩) إن لله ملائكة يتعاقبون الخ .

(٥) انظر : خزانة الأدب ج ١ ص ٤ وفى ترجمته انظر الخزانة أيضاً ج ١ ص ١٢ — ١٤

العناية بسلامة اللغة من حيث ظواهر الإعراب والتصريف ، التى ضعف إحساس الكتّاب بها ، أهم من العناية بحشد طائفة من العبارات القديمة ، والاستعمالات العربية الغريبة ، التى تقحم إقحاما ولكن دون اقتصار على حدود استعمالها البدوى القديم .

وقد كان مبلغ تمسك الكاتب باللغة الصحيحة ، ووقوفه عند مبدأ تنقية اللغة ، يختلف إما باختلاف الموضوع الذى يتناوله ، أو باختلاف الثقافة اللغوية التى حصل عليها ؛ وفى بعض الأحيان كانت لهجة وطنه الذى نشأ فيه تلعب دوراً هاماً فى تحديد تعبيره .

وكلما أخذت الرابطة التى كانت تربط بين جميع البلدان الإسلامية من ناحية الثقافة والعلم ، تضطرب عُراها ، وتضعف أواصرها ، بسبب الحروب المتتالية ، ازداد الانحلال والانحطاط فى المستوى اللغوى والثقافى العام ، واستقل كل إقليم بثقافة خاصة ، ولهجة لغوية محلية .

وتقرير ابن الصلاح (٥٧٧ — ٦٤٣ هـ) من أن كثيراً من شيوخ عصره لا يدرون ما يروون ، ولا يضبطون ما فى كتبهم ضبطا يصلح لأن يعتمد عليه فى ثبوته ، لا ينطبق على المحدِّثين فحسب ، بل على جميع العلماء فى عصر السلجوقيين بوجه عام[(١)] .

وإزاء هذا التحول الكبير لم يكن من المستغرب أن تتكاثر الأخطاء واللحن فى قواعد العربية الفصيحة ، وأن تنضح اللهجات المولّدة بقوة أشد من ذى قبل على لغة الأدب ، وأن تأخذ هذه اللغة فى كل إقليم طابعها المحلىّ .

وهكذا يجرى الفارس العربى المشهور : أسامة بن منقذ (٤٨٨ / ١٠٩٥ — ٥٨٤ / ١١٨٨) على الحدود والقوالب العربية المتوارثة فى أشعاره ؛ بيد أنه فى الحديث عن ذكرياته ، ومغامراته التى شهدها فى حياته — تردد مجرى حياته فى

---

(١) انظر عبارة ابن الصلاح المذكورة بتمامها فى شرح الإمام النووى على صحيح مسلم (على هامش القسطلانى ج ١ ص ٢٠) .

المرحلة الكثيرة الزعازع والقلاقل المحدودة باستيلاء الصليبيين على بيت المقدس سنة ١٠٩٩/٤٩٢ واسترجاع صلاح الدين لها سنة ١١٨٨/٥٨٣ — يخرج عن قيود اللغة الأدبية ، فيكتب فى أسلوب عربى طبيعى بسيط ، يبدو فيه كثير من الطابع العام المتعارف اليوم فى اللغة العربية — السورية .

وحتى النحوى ابن يعيش (١١٥٨/٥٥٣ — ١٢٤٥/٦٤٣) يتنازل فى شرحه للمفصّل عن التظاهر بالأدب ، فيكتب فى أسلوب عادىّ ركيك .

وفى تراجم الأطباء التى كتبها معاصره المتأخر عنه قليلا : ابن أبى أُصَيْبعة[(١)] . (١٢٠٣/٦٠٠ — ١٢٧٠/٦٦٨) نستفيد معرفة لغة المسامرة والحديث التى كانت سائدة بالقاهرة بين الطبقات المثقفة لذلك العهد .

وفى ذلك تُقدم لغة كل كاتب فى ذلك العصر المتأخر ، مشاكلها الخاصة ؛ ولا بد من محاولات كثيرة لكشف النقاب عن جميع هذه التفاصيل .

---

(١) انظر : Aug - Muller) über Text - und Sprachgebrauch von Jbn abi Usaibias Geschichte der ärzte, in SMA 1884, 853 - 977

(١٤)

عود على بدء

جاء السيل المغولى ، الذى أصاب فى الصميم بلداناً كان لها التصدر فى قيادة ركب الثقافة والمدنية فى العالم الإسلامى ، والذى اكتسح خلافة بغداد (١٢٥٨/٦٥٦) فأكمل حلقة الختام لمرحلة الانحلال فى تاريخ اللغة العربية ، أى المرحلة التى بدأت بقيام دولة السلجوقيين ؛ وبهذا تقطعت الخيوط الأخيرة من الثقافة التليدة المتوارثة فى الأقاليم التى تغلغل فيها المغول . وما ظهر بعد ذلك فى تلك الأقاليم من حركات تتجه إلى النهوض على استحياء ، لم تكن له صلة مباشرة بالقديم الغابر .

وقد برزت « مصر » إلى المكان الأول بين بلدان العالم الإسلامى منذ ذلك العهد ؛ فقد نجت من عاصفة المغول ، وصارت — تحت إمرة سلاطين المماليك بعد رد الصليبيين على أعقابهم — أولى دول الإسلام العظمى .

ذلك أن الثراء الواسع العريض ، الذى قام بمصر على أساس التجارة الهندية الواسعة المدى ، فى القرنين الثامن والتاسع (الرابع عشر والخامس عشر) ، قد هيأ الأسباب الضرورية لنشاط الحياة العقلية ، وساعد على إنشاء نهضة أدبية فى مصر وسورية ، تميزت — من الوجهة اللغوية — بظهور التعبيرات المحلية المصرية .

ولقد دامت هذه النهضة قرنين من الزمان ، ولكنّ كشف البرتغاليين طريق البحر إلى شرق الهند كان من أثره المباشر خرق امتياز مصر التجارى ، والقضاء على ذلك الثراء العظيم . وبهذا فقدت مصر سلطانها المسيطر ، واستولى العثمانيون عليها فى سنة ١٥١٧/٩٢٣

وعلى غرار مصر ، خضعت كل البلدان الناطقة بالضاد ، على وجه التقريب — ما عدا مراكش — ، من قبل أو من بعد ، لسلطان العثمانيين .

وتشمل المرحلة التى بدأت بذلك العهد ، ممتدة إلى آخر القرن التاسع عشر الميلادى ، أحلك قرون التاريخ العربى ، لا من الوجهة السياسية فحسب ، بل من الوجهة اللغوية كذلك .

وعلى النقيض من هذا تبدو المرحلة الحديثة ، التى تلت ذلك ، نيّرة مشرقة مشمولة بالنور التاريخى الساطع . وتبدأ هذه المرحلة الأخيرة بحملة « نابليون » على مصر سنة ١٧٩٨ م ، مقترنة بشعار تنظيم نفسها ، وترتيب أمرها ، تجاه العالم الغربى .

فإدخال النظم الغربية الذى بدأ على يد « محمد على » وإقامة المدارس والمعاهد على النمط الأوربى ، وتغذيتها بالعلماء الأوربيين ، وإرسال الشباب المصرى إلى الجامعات الأوربية ، وتأسيس مطبعة للدولة ، وإصدار صحيفة رسمية ، وإنشاء مكاتب للترجمة تقوم على تعريب عدد لا يحصى من المؤلفات الأوربية فى شتى أنواع العلوم والفنون ، تيسيراً لتناولها فى العالم العربى ؛ كل ذلك عاد على اللغة العربية — فى مصر بادىء ذى بدء — بآثار بعيدة المدى فى التأثير .

ومما يشهد بذلك تلك الألفاظ الدخيلة من اللغات الأوربية : أولاً من الفرنسية والإيطالية ، وأخيراً من الإنجليزية .

وقد أدت كثرة ذلك الغريب ، المهدِّد لكيان العربية ، إلى قيام حركة مضادة ، تدعو إلى استحضار الماضى العظيم ، وإحياء تليد الحضارة والثقافة من التراث القديم .

وقد أعلنت تلك الحركة عن نفسها ببعث لغوى جديد ؛ فطبع منذ ذلك العهد ما لا يحصى من كتب الأدب العربى فى جميع العصور بالقاهرة وغيرها ، وأدى الاشتغال بالآثار الأدبية من مخلفات العصور الغابرة إلى نشوء حركة « التنقية اللغوية » نشأة جديدة أخرى .

ولم يقف الأمر عند نشر المؤلفات الكثيرة فى النحو العربى وما إليه من المعاجم العديدة الأجزاء ، بل اشتدت العناية أيضاً بالبحث فى مسائل الاستعمال اللغوى ، وصواب التعبير . وقد استعيض فعلا عن كثير من الألفاظ الغريبة ، بصيغ عربية حديثة .

ومن أعمال المجمعين العلميين فى القاهرة ودمشق إيجاد ألفاظ مناسبة للعدد الوفير من المدلولات ، لاسيما فى دائرة الشئون الهندسية ، والآلية ، والطبية ، والكيميائية ، والطبيعية ، وغيرها مما أنشأته الحضارة الغربية الحديثة .

وهذا الكفاح فى وجه « الغريب » يدور فى الأعم الأغلب حول مذاهب الاستعمال اللغوى ، وتوفير المادة اللغوية المولدة ، وتيسير النقل المجازى ، ومسألة الوضع الحديث .

على أنه لا يتعرض بمساس للنقل الغربى فى الأمور العملية ، واقتباس الأشياء والمدلولات الغربية الأصل . فمثلا الحقيقة الثابتة من أن الشرق مدين للغرب بالسيارة ، لا يمحوها استعمال هذا اللفظ الفصيح : سيارة ، ومعناه الأصلى : قافلة ، بدلا من : أوتوموبيل .

وأهم من ذلك أن حركة « تنقية اللغة » تقصر نقدها غالباً على ظواهر وسائل التعبير ، على حين أن بواطن القوالب العربية معرضة لتأثير القوالب الأوربية ، المتغلغل خفياً دون انقطاع . فالمصرى الحديث الذى يستعمل هذا التعبير : (تحية) قلبية ، فى موضع : herzlich, heartily, Cordial ، يعترف بالتأثير الغربى من وجهة مضاعفة : فهو يصوغ على نموذج أوربى ، من اسم عربى ، بوساطة نسبة عربية ، وصفاً لا يجوز حسب القواعد العربية الفصيحة صوغه من أسماء الأعضاء الجسمية ؛ كما أنه من ناحية أخرى يخالف مذهب لغته التى تعدُّ القلب مركز العقل والشجاعة ، فينسب إليه مشاعر وإحساسات تنسبها العربية الأصيلة إلى الكبد أو الضلوع أو الأحشاء .

ومثل هذه الترجمة المعنوية ، التي هى العادة المتَّبعة فى عربية الصحافة بوجه خاص ، تُقرب الشقة بين العربية الحديثة ، وبين اللغات الأوربية الراقية تقريباً بيِّناً ، بحيث قد يتأتى فى المستقبل عدُّها عضواً فى الرابطة اللغوية الأوربية بالمعنى الذى قصد إليه : تروبتسكوى Trubetzkoy .

بيد أن الآثار البعيدة العمق ، التى تركها الغرب فى العربية الحديثة ، لا تقتصر على العربية الفصيحة ، بل كذلك اللهجات المحلية آخذة فى التغير البطىء المتواصل الخطى بوساطة التأثر بالغرب . فقد كان من أثر انكماش الأمية أن تغلغلت لغة الكتابة الحديثة بقواعدها ، ومفرداتها ، فى دوائر كانت لا تعرف من قبل سوى العامية ، كما تعمل الصحافة عملها أيضاً فى ذلك الاتجاه .

ومما يوحِّد الألسنة وينفى الفروق اللغوية ، التجنيد فى الخدمة العسكرية ، إذ يجمع الرجال من المناطق اللغوية المختلفة فى حياة واحدة .

وأبعد من ذلك أثراً ما تقوم به فى هذا السبيل مسارح السمر الشعبى ، التى تقدم الأغانى والمقطوعات الفنية .

ومما يعمل على الانسجام وتقريب الألسنة بوجه خاص : المذياع ، والحاكى ، والخيالة (السينما) الناطقة .

ولما كانت مصر قد تقدمت خطوات فسيحة فى ميادين النقل الآلى والفنى المشار إليها ، فقد يكون متيسراً أن تصبح لغةُ التحادث القاهرية هى المثلَ الأعلى للعالم العربى خارج مصر فى نواحى النطق الصوتى ، والتعبير السائد ، والمادة اللغوية ؛ وأن يعيد التاريخ ثانية لمصر تلك المكانة التى حققت لها التصدر فى طليعة البلدان الناطقة بالضاد على عهد المماليك فى القرنين السابع والثامن (الثالث عشر والرابع عشر) .

وقد ظهر أخيراً أثر آخر من آثار التأثر بالغرب ، حيث علت أصوات فى دوائر بعض دعاة الإصلاح فى مصر ، تنحي بالنقد على العربية الفصيحة نفسها ، وتتحدث عن صبغ التعليم اللغوى بصبغة جديدة ، توائم قواعد التربية اللغوية الحديثة .

وقد كان لزاماً على العربية الفصيحة أن تقضى على تلك الحركة ، لا لأن انتصارها قد لا يبقى أثراً للنحو العربى ، بل لما هو أهم من ذلك ، وهو أن الحركة المذكورة تراعى اللهجة المحلية رعاية قوية يتعسر أو يتعذر معها استخدام اللغة الجديدة

رباطاً عاماً لكل البلدان الناطقة بالعربية . وبهذا يمتد الإشكال ، ويخرج من الدوائر اللغوية الضيقة إلى دوائر الثقافة الاسلامية عامة .

وإن العربية الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمى أساسياً لهذه الحقيقة الثابتة ، وهى أنها قد قامت فى جميع البلدان العربية ، وما عداها من الأقاليم الداخلة فى المحيط الإسلامى ، رمزاً لغوياً لوحدة عالم الاسلام فى الثقافة والمدنية .

ولقد برهن جبروت التراث العربى التالد الخالد على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها إلى زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر .

وإذا صدقت البوادر ، ولم تخطىء الدلائل ، فستحتفظ أيضاً بهذا المقام العتيد من حيث هى لغة المدنية الإسلامية ، ما بقيت هناك مدنية إسلامية .

ملحق

مادة : ل ح ن ، ومشتقاتها

يتطلب معنى اللحن اللغوىّ أن يكون الصواب متقدما عليه . وكلاهما يمكن حصوله وتصوّره إذا تجاوز التفكير فى اللغة خطوات نشأتها الأولى . بيد أن مثل هذا التفكير والتأمل فى نشوء اللغة كان بعيدا كل البعد عن عرب البادية قبل الإسلام .

حقا كان لهم ذوق مرهف ، وإحساس ناضج كل النضج بجمال اللفظ المنطوق : سواء فى الخطاب البسيط المألوف ، أم فى النثر الفنى المسجوع وغير المسجوع ، أم فى الكلام الموزون المنظوم . كما عرفوا أيضا تلك العوائق الحسّية والنفسية التى تعترض النطق ، وتؤثر فى المنطق ، فيعيى[1] الخطيب أو يُرتج عليه .

ولاحظوا كذلك عيوب اللسان كاللفّة ، والرتة[2] ، واللجلجة ، والحُبسة ؛ بل لاحظوا أيضا خصائص من اللهجات واللغات الخاصة[3] ؛ ولكنهم لم يعرفوا كنهاً للخطأ فى القواعد والخروج على النحو .

وهذا اللفظ القديم : اللّحن ، الذى يطلقه علماء اللغة والنحو اصطلاحا على : الخطأ فى اللغة ، إنما اكتسب هذا المدلول نتيجة لاتفاق عرفى على تغيير معناه الأصلى فى وقت متأخر .

والمدلول الأصلى للفظ : لحن ، بفتح الحاء ، هو : مال ؛ وتفسّر المعاجم دون ذكر الشاهد : لحن إلى ، بمعنى : مال إلى[4] . ومن هنا تدل مشتقات هذه المادة

---

(١) انظر مثلا المفضليات قصيدة رقم ٩١ بيت ٢٣ ؛ الحطيئة : ديوان ص ٧٧ س ١٩ .

(٢) انظر التسمية بالأرت مثلا (الجمهرة لابن دريد ص ٢٣٧ س ١٥) .

(٣) انظر الكامل للمبرد ص ٣٦٤ (نشر : Wright) .

(٤) قرن الزمخشرى فى كتابه : الفائق ج ٢ ص ٢٢١ لحن الى لحد بمعنى ضل ؛ ومسألة تعلق المادتين مع : لحظ ، بمعنى أصلى واحد ، ترجع الى مبحث الاشتقاق الأكبر .

على معان تتميز بالإشارة إلى الميل والتحول عن الهيئة المألوفة . وهذا لا يعنى أن الحالة المألوفة هى الصواب ، وأن الميل والتحول عنها يؤدى إلى الانحراف والخطأ ؛ كما لا يعنى أن المقصود هو التحول إلى الصواب والحق .

وعلى هذا فمعنى : لَحِنٌ على وزن : فَطِنٌ ، سريع الميل والالتفات ، أى حُوَّلٌ قُلَّبٌ ، وهذا معناه الفطن الأريب ؛ وهكذا يصف لبيد مثلا (قصيدة رقم ١٣ بيت ٣ ؛ ص ٦١ نشر الخالدى) وليدا يمانيا مَرِناً على الكتابة :

متعوِّد لَحِنٌ يعيد بكفّه قلما على عُسُب ذَبَلْنَ وبان

وفعل : لحن بكسر الحاء يفسّر على ذلك بمعنى : فطن ؛ ومصدره : اللّحن بفتح الحاء ، كما فى بيت قعنب بن أم صاحب [١] الذى عاش فى عهد الوليد بن الملك :

[غَمَسْتُ عنهم وما ظنّى مخافتهم] وسوف يعرفهم ذو اللب واللحن [٢]

وقدروى أيضا [٣] أن اللّحْن بسكون الحاء مصدر لَحَن بفتحها ، ورد بمعنى الإصابة والفطنة كذلك .

وأفعل التفضيل : ألحن ، ورد فى حديث مستفيض روى فى كل مجاميع السنة [٤] يحث المؤمنين على الصدق والحق إذا تقاضوا إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) : « إنّما أنا بشر مثلكم ، وإنكم تختصمون إلىّ ، فلعل بعضكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه ، فمن قضيت له بشىء من حق أخيه فلا يأخذ منه شيئا ، فإنما أقطع له قطعة من النار » .

ولما كان معنى اللحن فى هذا المثال الأخير متحققا فى أن يكون أحد الخصمين أعرف بإلباس حالته حُلّة من البلاغة المُقْنِعة — فى بعض الروايات بدلا من : لعل بعضكم

---

(١) انظر التبريزى : شرح الحماسة ص ٦٣٦ (نشر : Freitag) .

(٢) الصولى : أدب الكتاب ص ١٣٢ ؛ والظاهر أن هذا البيت من الأبيات التى رواها ابن الشجرى لقعنب المذكور فى مختاراته ص ٧ — ٩ .

(٣) انظر القالى : أمالى ج ١ ص ٥ س ١ .

(٤) مالك : الموطأ ، كتاب الأقضية (الزرقانى على الموطأ ج ٣ ص ١٧٩ ؛ البخارى : كتاب الأحكام) (وانظر فنسنك : فهارس الأحاديث ج ٢ ص ٣٧) .

أن يكون ألحن : لعل بعضكم أن يكون أبلغ[١] — فقد استعمل لفظ : اللحن ، بسكون الحاء ، فى معنى : التعبير بصورة مخالفة المألوف بوجه عام ، ويدخل فى ذلك الغناء ، بمعنى أن اللحن غالباً هو النغمة[٢] المخالفة للمألوف فى أصوات الغناء .

ويمكن استعمال اللحن مجازاً أيضاً فى هديل الحمام وغنائه[٣] . فقد قال شاعر بدوى من شعراء القرن الثانى : هو جهم بن خلف[٤] ، فى أبيات له[٥] :

تغنّت عليه بلحن لها   يهيّج للصبّ ماقد مضى

وقال فى مكان آخر[٦] :

مألوفة الألحان مطراب الضحى   تبكى بشجو دائم وتَوجّعُ

وفى قصيدة نسبت إلى جحدر ، أحد لصوص العرب ومعاصر الحجاج ، قال فى حمامتين[٧] :

تجاوبتا بلحن أعجمىّ   على غصنين من غرب وبان

ومثل هذا المعنى ورد أيضا فى البيت الذى لم يسم قائله[٨] :

باتا على غصن بان فى ذرى فنن   يردّدان لحوناً ذات ألوان

---

(١) البخارى : كتاب المظالم (وانظر فنسنك فى المرجع السابق) .

(٢) وهذا هو المقصود دائماً فى الأغانى لأبى الفرج . وإلى جانب ألحان ولحون ذكر الزمخشرى أيضاً فى أساس البلاغة : ملاحن ، فى صيغ الجمع . وإطلاق اللحن على النغمة مستفيض فى اللهجة اليهودية — العربية ، ويرد كثيراً فى ديوان يهودا هاليفى . وفى النصوص النصرانية — العربية معناه نوع خاص من الغناء الدينى . انظر : G. Graf ZS 9, 245 .

(٣) هكذا البكرى فى اللآلى ص ٢١ س ٢ خلافاً لأبى على القالى ج ١ ص ٥ حيث يريد أن يفسر ألحان الحمام باللغات على أن اللحن هو اللغة .

(٤) الفهرست ص ٧٠ .

(٥) الجاحظ : كتاب الحيوان ج ٣ ص ٦١ .

(٦) ابن الشجرى : حماسة ص ١٧١ .

(٧) القالى : أمالى ج ١ ص ٢٨٢ ؛ السيوطى : شرح شواهد المغنى ص ١٤٠ نقلا عن ابن عساكر : تاريخ دمشق ؛ الدميرى ج ٢ ص ٤٥١ ؛ عبد القادر : خزانة ج ٤ ص ٤٨٤ نقلا عن كتاب اللصوص للسكرى ؛ معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٢١١ .

(٨) القالى : أمالى ج ١ ص ٦ ؛ ابن الأنبارى : كتاب الأضداد ص ٢١٠ ؛ تاج العروس ج ٩ ص ٣٣١ ؛ وذكر القالى مثالين آخرين لهذا المعنى .

أما أن لفظ : لاحن ، على صيغة اسم الفاعل ، استعمل أيضا بمعنى : حسن الصوت ، فيدل عليه المثل المعروف : «ألحن من الجرادتين» : أى أحسن صوتاً وغناء . والجرادتان كانتا قينتين لمعاوية بن بكر العمليق ، سيد العمالقة فى سالف الدهر. وكذلك المثل الآخر : « ألحن من قَينتى يزيد »[1] ، والمراد بهما حبابة وسلّامة ، مغنيتا يزيد بن عبد الملك اللتان قيل فيهما إنهما كانتا ألحن من رُئى فى الإسلام من قيان النساء .

ويتصل بهذا المعنى فعل : لَحّن بالتشديد ، أى رتّل بالنّغم القرآن مثلا ، حيث نهى المحافظون عن ذلك[2] .

وأخيراً صار لفظ : تلحين (وجمعه : تلاحين) أى طريقة الغناء ، أو النغمة الرئيسة ، اصطلاحا من اصطلاحات الموسيقى[3] .

ويقصد من اللحن أيضاً : النطق على أسلوب مخالف للمألوف ، كما يراد به طريقة التعبير بوجه عام . وفى هذا المعنى يقول ذو الرّمة[4] :

* فى لحنه عن لغات العُرب تعجيم *

ويقول عبيد بن أيوب ، أحد لصوص العرب فى القرن الثانى للهجرة ، فى الغول :

أرنّت بلحن بعد لحن [وأوقدت حوالىّ نيرانا تلوح وتزهر[5]]

(١) مجمع الأمثال للميدانى (١٣٤٢ هـ) ج ٢ ص ١٨٤ — ١٨٦ .

(٢) انظر مسند الدارمى : فضائل القرآن .

(٣) انظر : Dozy, Supplèment فى المادة . وقد استعمل شاعر من عهد المأمون فعل : لحن فى تقسيم أصوات الغناء ، وهو محمد بن حازم الباهلى (أغانى ج ١٢ ص ١٥٨) ، كما ذكره ابن قتيبة : عيون ج ٣ ص ١٠٩ ، وبهذا المعنى ورد أيضاً فى رواية ساقها الزجاجى فى أماليه ص ٤٩ س ٢ ؛ كما ذكره أيضاً الهمدانى فى وصف جزيرة العرب ص ٢٠٣ س ٧ بمعنى تقسيم الفناء أصوات الأغانى التى ينحن بها على الموتى الخ .

(٤) ديوان قصيدة ٧٥ بيت ٤٤ .

(٥) الجاحظ : حيوان ج ٦ ص ٥٠ ؛ ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٤٩٣ ؛ الباقلانى : إعجاز القرآن ص ٤٤ ؛ السيوطى شرح شواهد المغنى ص ١٠٧ ؛ خزانة الأدب ج ٣ ص ٢١٣ ؛ واستعمله الفرزدق فى عواء الكلب (أمالى المرتضى ج ٤ ص ٢٩) وفى مكانه بالديوان : نبح بدلا من : لحن .

وفى بيت لم يسمَّ قائله[١] :

وقوم لهم لحن سوى لحن قومنا وشكل وبيت الله لسنا نشا كله

ويتصل بذلك القولُ المأثور : « هذا ليس من لحنى ولا من لحن قومى » ، ومعناه تقريبا : ليس هذا من شأنى ولا من طريقتى[٢] .

وهذا المعنى : طريقة التعبير ، ورد فى كثير من الأحاديث ، وإن كان من الصعب التحقق من قدمها وصحتها . فقد روى أن أبا ميسرة عمرو بن شرحبيل (المتوفى ٦٣ هـ) أحد الصحابة المتأخرين ، استعمل هذا التعبير : لحن اليمن[٣] . ورأى كل من الأصمعى وأبى زيد لفظ : لحن ، مرادفاً للفظ : لغـة[٤] ؛ وعلى ذلك فمعنى : لحن ، نطق بلغته الخاصة[٥] .

وبهذا فسّرت ثلاثة أقوال نسبت إلى الخليفـة عمر الأكبر ، وإن كان يظهر ضعف نسبتها إليه ، وهى : (١) تعلموا الفرائض والسنن واللحن[٦] . (٢) تعلموا اللحن فى القرآن[٧] . (٣) أبَىّ أقرؤنا وإنا نرغب عن كثير من لحنـه[٨] . على أن الغالب استعمال اللحن فى معنى الطريقة غير المألوفة فى التعبير ، بوجه من الوجوه : فقد يقصد من ذلك أن تريد الشىء فتورّى عنـه بقول آخر . وهذا

---

(١) تاج العروس فى المادة .

(٢) القالى : ذيل الأمالى ص ٣٩ ؛ وذكره الزمخشرى فى الأساس ؛ وكلاهما على أنه من كلام أبى المهدى أو أبى مهدية الأعرابى أحد من يروى عنهم الأصمعى (ابن قتيبة : معارف ص ٢٧١)

(٣) القالى : أمالى ج ١ ص ٥ (وانظر الفائق للزمخشرى ج ٢ ص ٢٢٢ ، فقد ذكر بدلا من ميسرة : أبا ميسرة) .

(٤) القالى : أمالى ج ١ ص ٥ ؛ الفائق ج ٢ ص ٢٢٢ ؛ وروى صاحب تاج العروس أن هذا اللفظ بالمعنى المذكور خاص بلهجة بنى كلاب .

(٥) القالى ج ١ ص ٦ ؛ ابن دريد : الملاحن ص ٧ (القاهرة ١٣٤٧ هـ) .

(٦) القالى ج ١ ص ٥ وفى الأساس والفائق والنهاية لابن الأثير فى المادة .

(٧) ابن الأثير : النهاية ج ٤ ص ٥٦ (١٣٢٢ هـ) .

(٨) الفائق ج ٢ ص ٢٢٢ ؛ ابن الأثير ج ٤ ص ٥٧ .

المعنى يبرز بوضوح فى بيت من قصيدة قالها القتّال الكلابى ، الذى عاش فى عهد مروان بن الحكم ، يلوم قومه لتخلفهم عن مساعدته :

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا ووحيت[1] وحياً ليس بالمرتاب[2]

وفى مثال ثان لهذا التعبير يقول مالك بن أسماء صهر الحجاج بن يوسف فى جارية تغنّى بها :

منطق صائب وتلحن أحيا نا وخير الحديث ما كان لحنا[3]

ولما اشتهر لفظ اللحن فى الاستعمال المتأخر بالمعنيين : الخطأ اللغوى ، والغناء ، وهِمَ الجاحظ فظن أن الشاعر أراد أنها تلحن فى الكلام أى تخطىء ، وأن اللحن فى الكلام مما يستحسن من النساء[4] .

نعم قد نبهه إلى وهمه العالم المشهور بين رجال القصور : علىّ بن يحيى المنجّم (المتوفى ٢٧٥ هـ) ، ولكنه لم يستطع إصلاح ما كتبه فى كتابه البيان والتبيين بعد أن سار فى الآفاق وانتشر أيّما انتشار[5] .

---

(١) استعمال الثلاثى : وحى ، بدلا من الرباعى : أوحى ، ورد فى قراءات شاذة ، مثل : وحى الى ، بدلا من : أوحى الى (آية ١ من سورة الجن) ، ومعناه الأصلى يؤخذ من آية ١١ فى سورة مريم : « فأوحى إليهم أن سبحوه بكرة وعشيا » أى أشار إليهم . ومن هذا المعنى يتفرع المعنيان الآخران : (١) الوحى الشرعى الذى ينزل على الرسول فى صور مختلفة (ويتصل عما ذكره فى دائرة المعارف الاسلامية ج ٤ ص ١١٨١ من أن أصله فى العبرية والآرامية بمعنى السرعة ، وفى الحبشية بمعنى المعرفة) (٢) الرسم ، الكتابة ، الخبر .

(٢) القالى : أمالى ج ١ ص ٤ ، والبكرى فى اللآلى ج ١ ص ١٣ (كما ذكره أيضاً ابن حجر فى الإصابة ج ٣ ص ٩٤ طبع القاهرة ١٣٢٨ هـ) ؛ الصولى : أدب الكتاب ص ١٣٠ ؛ تاج العروس ج ٩ ص ٣٣١ ؛ ابن الانبارى : الأضداد ص ٢٠٩ ؛ ورواه الزمخشرى فى الكشاف ص ٣٧ ، ومحب الدين فى شرح شواهد الكشاف ص ٤٢ : لكيما تعرفوا . ومن رواه دون تسمية قائله روى الشطر الثانى : واللحن يعرفه ذوو الألباب . وانظر الميدانى ج ٢ ص ١٨٥ والمرتضى : أمالى ج ١ ص ١١ .

(٣) الجاحظ : بيان ج ١ ص ٩٢ ؛ ابن قتيبة : عيون ج ١ فى المقدمة ؛ الشعر والشعراء ص ٤٩٢ ؛ ياقوت : إرشاد ج ١ ص ٤٢ .

(٤) البيان ج ١ ص ٦٢ .

(٥) الأغانى ج ١٦ ص ٤٣ (ونقله عنه تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٢١٤ ؛ البكرى : اللآلى ج ١ ص ١٧) وله رواية مساوقة عن المرزبانى فى أمالى المرتضى ج ١ ص ١٢ ؛ ياقوت : إرشاد ج ٦ ص ٦٥ ؛ السهيلى : الروض الأنف ج ٢ ص ١٩٠ .

ونظراً لذلك التأثير البعيد الذى كان لكتب الجاحظ فى الأجيال من بعده ، لم يكن غريباً أن يؤخذ تفسيره الخاطىء بالقبول فى أوساط مختلفة ؛ كما فعل ذلك ابن قتيبة فى « عيون الأخبار[١] » ، وهو كتاب نال من الحظوة مالا يكاد يقل عن كتاب البيان والتبيين ، وأسهم أيضاً فى إذاعة ذلك التفسير .

نعم لم تخرس المعارضة دونه بين حين وآخر ، كما أملى ابن دريد (المتوفى ٣٢١ هـ) على تلاميذه تصحيحاً مدعوماً بالحجة للتفسير الذى ذكره الجاحظ[٢] ؛ وكما فعل مثل ذلك فى جيل آخر بعد ابن دريد أبو بكر الصولى[٣] (المتوفى ٣٣٦ هـ) .

وذكر ابن الأنبارى (المتوفى ٣٢٧ هـ) — الذى يتفق شرحه للفظ اللحن مع شرح ابن الأعرابى (المتوفى ٢٣١ هـ) الذى يصفه بالصواب — أن مذهب ابن قتيبة من أن العرب تستحسن اللحن فى كلام النساء غير صحيح ، إذ أن العرب لم تزل تستقبح اللحن من النساء كما تستقبحه من الرجال ؛ ثم عضد ذلك بشواهد فى طيب حديث الصواحب[٤] .

بيد أن ذلك التفسير الخاطىء لم يكن من السهل تلاشيه ؛ فقد ذكره قدامة بن جعفر[٥] ، وإن فهم من كلامه أنه يأخذ به لعدم اتضاح تفسير آخر فى نظره[٦] ؛ ويؤخذ من كلامه أيضاً عدم ارتياحه إلى أن الخطأ فى كلام النساء يعد جميلا .

وفى ختام القرن الرابع (العاشر) استطاع أحد حواريّ الجاحظ وهو أبو حيّان

---

(١) انظر مقدمة عيون الأخبار .

(٢) الميدانى ج ٢ ص ١٨٥ عن حمزة الأصبهانى . وفى مقدمة كتاب الملاحن يذكر ابن دريد التفسير الصحيح دون تعرض للجاحظ .

(٣) أدب الكتاب ص ١٣٠ .

(٤) الأضداد لابن الأنبارى ص ٢١٠ (القاهرة ١٣٢٥ هـ) وتجد مواضع من حديث الصواحب فى البيان للجاحظ ج ١ ص ١٠٩ ؛ ابن قتيبة : عيون ج ٤ ص ٨١ — ٨٤ ؛ الحصرى : زهر الآداب (على هامش العقد ١٣١٦ هـ) ج ١ ص ١٣ ؛ ابن الشجرى : حماسة ص ١٩٥ ؛ المرتضى : أمالى ج ٢ ص ١٥٧ وغير ذلك .

(٥) نقد النثر ص ١٢٤ — ١٢٥ (القاهرة ١٩٣٣) .

(٦) انظر قدامة فى الموضع السابق . وهو يروى البيت : وخير الحديث . ولكن روى أيضاً : وأحلى الحديث ، كما عند الجاحظ وابن قتيبة الخ .

التوحيدى أن يحاول تسويغ حمل اللحن فى هـذا البيت على المعنى الذى ذكره الجاحظ ، أى الخطأ فى الكلام ، وإن لم ينف أيضاً احتمال تفسيره بالرمز والإشارة[1] .
وابتداء من القرن الخامس درج الناس على فهم التفسير الصحيح للبيت ، أى الرمز والإشارة[2] .

وورد هذا المعنى فى النثر فى خبر عن غزوة الخندق . فقد أرسل النبى [صلى الله عليه وسلم] سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وغيرهما إلى بنى قريظة ليتبينوا ما إذا كانت قريظة تريد أن تنكث عهدها معه ، وقال لهم : « فإن كان حقاً فالحنوا لى لحناً أعرفه[3] » ، فلما رجع الرسل ذكروا للرسول [صلى الله عليه وسلم] لفظى : « عضل والقارة » وهما قبيلتان غدرتا بأصحاب النبى [صلى الله عليه وسلم] من قبل ، فعلم النبى [صلى الله عليه وسلم] من ذلك أن قريظة نكثت العهد .

واشتهر أيضاً على أنه مثال للّحن بمعنى اللغز والتورية ، ما جاء فى رسالة أرسلها أحد الأعراب فى يوم الوقيط ، وهو يوم من أيام العرب فى عهد فتنة عثمان ، إلى قومه يحذرهم من الغزو[4] .

وأخيراً ، يتصل بهذا ما جاء فى آية ٣٠ من سورة محمد [عليه السلام] ، وهو الموضع الوحيد الذى ورد فيه لفظ اللحن فى القرآن ؛ وفى هذه الآية ، التى نزلت بعد غزوة بدر بقليل ، يقول الله سبحانه عن المنافقين : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ

---

(١) ياقوت : إرشاد ج ٦ ص ٦٦ .

(٢) المرتضى ، البكرى ، الميدانى ، الزمخشرى فى المواضع المذكورة آنفا ؛ وانظر ابن رشيق فى العمدة ج ١ ص ٢١٠ ؛ ياقوت : إرشاد ج ١ ص ٢١ ؛ البلوى : ألف باء ج ١ ص ٤٤ وغير ذلك .

(٣) ابن هشام ص ٦٧٥ ؛ الروض الأنف ج ٢ ص ١٩٠ ؛ الواقدى : ص ١٩٧ ؛ المبرد : كامل ص ٦٣٢ .

(٤) نقائض جرير والفرزدق ج ١ ص ٣٠٥ ؛ وذكر ابن دريد رواية أخرى فى الملاحن ص ٤ ، ونقلها القالى فى الأمالى ج ١ ص ٦ (وعنه البكرى فى اللآلى ص ٢١) والمرتضى ج ١ ص ١٢ ؛ وتوجد الكلمات التى ذكرها ابن دريد والقالى فى معانى الشعر للأشناندانى ص ٥٧ .

وَلَتعرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ » . ولا يوجد أفصح ولا أبلغ ، ولا أنصع ولا أبين فى إصابة المحز من ذلك التعبير : لحن القول ، فى وصف طريقة التعبير المعسولة التى لا يبدو فى ظاهر جرسها سوء ، والتى يرمز بها أعداء محمد [صلى الله عليه وسلم] إلى معان يفهمها إخوانهم فى الرياء والنفاق .

ويتعلق بهذا السياق أيضاً فعل : لَاحَنَ (وهو مرادف لفعل : فَاطَنَ[(١)]) ، أى أظهر له ذكاءه وفطنته ، ولا سيا بتعاطى التورية والإلغاز ؛ كما فى بيت الطرمّاح ، قصيدة ٤٧ بيت ٥[(٢)] :

وأدّت إلىّ القول عنهن زَوْلة تلاحن أو ترنو لقول الملاحن

وعلى حين يراد من اللحن بالمعنى الأخير ، أى التورية والتعمية كما فى الأمثلة الأخيرة ، الرمز إلى السامع بغير ما يفهم من صريح الكلام ، يستعمل اللحن أيضا ، فى أحوال أخرى ، بمعنى ما يقصد إليه المتكلم نفسه من معنى يقصده ولا يتبين من ظاهر اللفظ ، كما فى حالة استعمال الألفاظ المشتركة فى معان غير متبادرة منها .

وقد ظن كثيرون إذا أقسموا يميناً على شىء أنهم يرضون ضمائرهم بالقصد إلى معنى غير ما يفهمه السامع ؛ فإذا حلف إنسان : ما سألت فلانا حاجة قط ، قصدوا فى أنفسهم من لفظ : حاجة ، أمراً معيّنا .

وقد ذكر ابن دريد فى كتابه : الملاحن[(٣)] ، مجموعة من مثل هذه الألفاظ المحتملة لمعان مختلفة ، مع ملاحظته على ذلك أن من يضطر إلى اليمين يستطيع استخدامها لينقذ نفسه من كيد المتسلط ، ويسلم مع ذلك من غضب القوى الجبار . وقد أمكنه أن يجمع من هذه الألفاظ نحو أربعمائة كلمة من كلمات الحيل فى القسم ، من بين العدد الدّثر من الألفاظ المشتركة فى العربية .

---

(١) الزمخشرى : أساس ج ٢ ص ٢٢٢ ، فسر: يلاحن الناس بقوله : يفاطنهم ويجاهلهم بفطنته ودهائه .

(٢) ديوان نشر كرنكو .

(٣) نشره : H. Thorbecke سنة ١٨٨٢ فى هايدلبرج ، وطبع فى القاهرة ١٣٤٧ هـ

وتنقل خطوات قليلة لفظ : لحن ، من معنى التضليل والتعمية ، إلى معنى الخطأ فى التعبير : لحن بفتح الحاء ، أخطأ فى الكلام ؛ لحّن بالتشديد ، عدّه لاحنا ، عد عليه لحنا ؛ لحّان ولحّانة ولُحَنَة ، كثير اللحن .

وإلى هذا اسم الفاعل : لاحن ، فى قولهم : قَدَح لاحن ، أى ليس بصافى الصوت عند الإفاضة ، وقوس لاحنة عند الإنباض ، أى عند شد وترها للرمى[(١)] .

وهذا المعنى ، أى الخطأ فى الكلام ، يبدو فى العهد الإسلامى فى غير عربية البدو بصورة قوية — لم يعق هذا الاستعمال عن الانفراد فى التعبير إلا استعمال اللحن بمعنى الغناء أيضاً — بحيث تورط ابن الأعرابى النحوى الكوفى (١٥٠ — ٢٣١ هـ) إذ ساقه اطراد ذلك الاستعمال إلى اعتقاد أن : لحن معناه أخطأ فى الكلام ، أو فطن وأصاب الصواب ، وأنه على ذلك من قبيل الأضداد[(٢)] .

وهذا الرأى المنحرف يتفق مع مذهب ذلك الكوفى العجيب الذى يذهب مثلا إلى جواز إبدال الضاد بالظاء حسب الرغبة والاختيار[(٣)] ، والذي ينكر فضل أبى عبيدة والأصمعى فى تحقيق اللغة وجمعها[(٤)] ، والذى يعدّ شعر أبى نواس وغيره من المحدثين كالريحان يُشم ويَذْوِى فيُرمى به[(٥)] .

ويظهر فى باب اللحن من كتاب الأضداد لابن الأنبارى[(٦)] (المتوفى ٣٢٧ هـ) ما أدى إليه هذا التفسير الذى مسخ معنى ذلك اللفظ : اللحن ، فى تفسير التعبيرات المتفرقة .

(١) انظر الأساس للزمخشرى فى الموضع السابق .

(٢) كتب أخيراً فى طبيعة الأضداد فى اللغة العربية هـ كفلر فى تقدمه لكتاب الأضداد لقطرب (المتوفى ٢٠٦ هـ) الذى نشره أخيراً : وقطرب لا يذهب إلى أن كلمة لحن من قبيل الأضداد كما فعل ابن الأعرابى .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٩٩ (١٢٩٩ هـ) .

(٤) الخطيب : تاريخ بغداد ج ٥ ص ٢٨٢ . ا

(٥) المرزبانى : موشح ص ٢٤٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٥ ؛ وكان ابن الأعرابى متعصباً على أبى تمام بوجه خاص (موشح ص ٣٠٤ ، ٣٢٩) ، ولهذا ينكر عليه ابن الأثير كل حق فى الكلام فيما يتصل بالذوق الأدبى (المثل السائر ص ٤٩٠) .

(٦) الأضداد لابن الانبارى ص ٢٠٧ — ٢١٤ (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .

ومن الأمثلة لذلك ما ذكره ابن الأعرابى فى شرح البيت المذكور آنفاً لمالك بن أسماء :

منطق صائب وتلحن أحيا نًا وخير الحديث ما كان لحناً

إذ قال : منطق قاصد للصواب وإن لم يصب ، وتصيب وتفطن أحياناً ، وخير الحديث ما كان إصابة وفطنة .

وهذا التأويل المتهافت يجد شبيهه فى تفسير ابن الأعرابى أيضاً لبيت من شعر امرىء القيس فى معلقته (١)

هذا ولا يزال ينقصنا بعد كل دليل يبين متى تم نقل لفظ اللحن إلى معنى الخطأ فى الكلام . وأغلب الظن أنه استعمل لأول مرة بهذا المعنى عند ما تنبه العرب بعد اختلاطهم بالأعاجم إلى فرق ما بين التعبير الصحيح والتعبير الملحون . وكثير من هؤلاء لم يكونوا يستطيعون إخراج حروف الحلق والإطباق بالدقة المعروفة فى العربية من مخارجها ، فاستعاضوا عنها بحروف أخف على ألسنتهم وأسهل على طباعهم . وكان من أثر هذا إلى جانب الثراء العظيم فى مادة اللغة العربية ، أن نشأ من التحريف واختلاط الكلمات مالا مناص عنه فى التفاهم العادى .

فإذا قال أعجمى مثلا : أهلّ ، الذى معناه ظهر أو فرح ، بدلا من : أحلّ ، بمعنى أجاز وأذن ؛ أو : أرب ، الذى معناه الحاجة أو العقل ، بدلا من : عرب جمع عربى ؛ أو : سار ، الذى معناه ذهب ، بدلا من : صار بمعنى : تحوّل ؛ أو : دلّ الذى معناه هدى ، بدلا من : ضل ، بمعنى غوى وحار ؛ أو : ترك ، الذى معناه : ودع وأبقى بدلا من : طرق ، بمعنى دق على الباب ليلا ، لم يكن من السهل على العربى أن يتابع كلامه بالفهم الصحيح ؛ وكان لا بد أن يؤدى ذلك إلى إدراك العربى معنى الخطأ اللغوى ، والخلط فى التعبير .

وليكن هناك من الفرص قبل الإسلام أيضاً ما يسمح باختلاط العرب بغيرهم

(١) انظر خزانة الأدب ج ١ س ٥٥٠ .

من الأعاجم فى المناسبات المختلفة ؛ فإن الهجرة العربية الكبرى التى تمت فى القرن الأول للإسلام ، وهيّأت الفرصة العظمى لاحتكاك العرب بالأعاجم ، واصطدام لغتهم باللغات الأخرى ، هى التى يعوّل عليها بالنسبة لما ترتب عليها من آثار جماعية غير فردية .

وقد كانت نتائج ذلك ما لاحظناه فى الأبواب المتقدمة ، وما قررناه من قيام مبدأ « تنقية اللغة العربية » فى أواخر القرن الأول للهجرة (السابع الميلادى) .

ومن آثار نشأة ذلك المبدأ المتزمّت إطلاق لفظ اللحن على الخطأ اللغوى ، كما ورد مثلا فى شعر رؤبة ، ويحيى بن نوفل .

وقد يجوز أن نضيف هنا إلى هذين الشاهدين بيتاً للحكم بن عبدل الأسدى(1) ، وكان هذا الشاعر مواليا لوالى البصرة الأموى : عبد الملك بن بشر بن مروان (حكم البصرة فى سنتى ١٠٢ — ١٠٣ هـ(2)) ، وكانت بينه وبين حاجب الأمير ملاحاة وخصومة ، فأراد أن يحمل الأمير على إقالته من منصبه وقال يهجوه :

ليت الأمير أطاعنى فشفيته من كل من يُكفى القصيد ويلحن(3)

هذا البيت إلى البيتين المشار إليهما من قبل ، يبدو أنه أقدم الشواهد على استعمال كلمة : لحن ، فى معنى الخطأ اللغوى .

(١) انظر الأغانى ج ٢ ص ١٤٨ — ١٥٩ .

(٢) Zambaur, S. 40

(٣) الجاحظ : حيوان ج ١ ص ١١٨ .

فهرس الأعلام

الأرقام المذكورة بعد حرف (ت) تبين مواضع الأعلام من التعليق فى أسفل الصفحات

« حرف الهمزة »

« حرف التاء »

«حرف الثاء»

«حرف الجيم»

« حرف الحاء »

« حرف الخاء »

« حرف الدال »

« حرف الذال »

« حرف الراء »

«حرف الزاى»

« حرف الشين »

« حرف العين »

« حرف الغين »

« حرف الفاء »

« حرف القاف »

« حرف الكاف »

« حرف اللام »

« حرف الميم »

« حرف الهاء »

« حرف الواو »

« حرف الياء »